

المجلد
٤

إِثْرَاءُ
المَشْرُوعِ الحَضَارِيِّ



مَوْسُوعَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ
قَادَةُ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ

نَبِيِّ اللَّهِ بِاصِلِحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَأَسْبَابُ هَلَاكِ قَوْمِ ثَمُودَ

تَأليف

د. علي مُحَمَّد مُحَمَّد الصَّلَابِي

الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

تقديم

أ.د. علي مُجَيِّ الدِّين القَرَّة دَاغِي

رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين



رقم الإصدار	315
الترقيم الدولي للسلسلة	(Tk) 978-625-5637-70-3
الترقيم الدولي للمجلد	(4.c) 978-625-5637-74-1
اسم الموسوعة	موسوعة الأنبياء والمرسلين: قادة الحضارة الإنسانية الربانية
اسم الكتاب	نبي الله صالح عليه السلام وأسباب هلاك قوم ثمود
اسم المؤلف	د. علي محمّد محمّد الصّلابي
المدير العام للدار	رجب صونگول
الاخراج الفني	AsaletAjans
الطبعة	الأولى - يوليو 2026 م / محرم 1448 هـ
دار النشر	دار الأصاله للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة
	Asalet Eğitim Danışmanlık
	Yayın Hizmetleri İç ve Dış Ticaret
	Sertifika No: 40687
	Balabanağa Mh. Büyük Reşit Paşa Cd.
	Yümni İş Merkezi No: 16B/16 Vezneciler
	Fatih/ İSTANBUL-TÜRKİYE
	Tel: +90 212 511 85 47
	www.asaletyayinlari.com.tr
	asalet@asaletyayinlari.com.tr

كما أن إصداراتنا متاحة على منصتي



Google Play
Books

Copyright © 2026

دار الأصاله للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة – إسطنبول – © تركيا 2026
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف.

مَوْسُوعَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ
قَادَةُ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ

نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ صَلَح

وَأَسْبَابُ هَلَاكِ قَوْمِ ثَمُودَ

تأليف

د. علي محمد محمد الصلابي

الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

تقديم

أ.د. فضل بن عبد الله مراد

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

أ.د. علي محيي الدين القره داغي

رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

الإهداء

إلى الراغبين والمتعطّشين لمعرفة سِير الأنبياء والمرسلين.

إلى الباحثين عن الحقيقة.

إلى أصحاب العقول النيرة، والفطر السليمة، والأفئدة الصافية.

أهدي إليكم هذا الكتاب.

سائلاً المولى عزَّوجلَّ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يكون خالصاً لوجهه الكريم. قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

تقديم:

الأستاذ الدكتور فضل عبد الله مراد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نفحاتٌ رحلةٌ في كتاب "نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأسباب هلاك قوم ثمود" الحمد لله، والصلاة والسلام على الرسول الكريم، ومن تبعه إلى يوم الدين، وبعد:

فلا يزال العلامة المؤرخ الكبير الشيخ د. علي الصلابي ماضياً في مشروعه التجديدي الحضاري، يقرأ فقه التاريخ من خلال سير الأنبياء. وقد قرأت العديد من هذه الإصدارات المباركة، وسأتكلم هنا عن هذا الكتاب: "نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأسباب هلاك قوم ثمود".

- عُمق النصّ وتحليل المعاني

لقد رحل بنا فقيه التاريخ الصلابي إلى أعماق النص وأعماق التاريخ. أما أعماق النص فهي الطريقة التحليلية المباركة التي يتناول فيها القصة في جميع القرآن، يتناولها بنفس المفسر ونفس المستثمر لدلالات اللغة، ويضرب في أطناها العديدة وأبعادها.

لقد نصحته أن يؤلف على هذا النمط تفسيراً ميسراً لكتاب الله، يُترجم للغات، يُقرب فيه النص القرآني بهذه اللغة القريبة من الناس على مختلف طبقاتهم، وأبدت استعدادي للمشاركة أو المشاورة فيه من جهة نوازلية خالصة من خلال مشروعنا "فقه العصر"، ليلتقي المشروعان لخدمة النهوض الحضاري للمشروع الإسلامي.

– عمق التاريخ واستلهام السنن

أما في أعماق التاريخ، فالكتاب يرحل بعقلك وتصورك وروحك لتعيش في تلك الحقبة التاريخية، متصوراً الجغرافيا، ومتخيلاً الحمولة الحضارية التي ورثتها ثمود عمن قبلهم.

إنك ترى هذه الأمة وما بلغت إليه من القوة والبأس والتحضر:

- الثروة الحيوانية.
- الحضارية.
- المعمارية.
- الطبقات الاجتماعية.
- الحوارات.
- مراحل الدعوة.
- القيم والأخلاق.
- سنن النهوض والفناء.
- صفات الأنبياء والمصلحين في الأرض ومواقفهم.
- السنن المتكررة في التعامل البشري مع النبوات ودعاة الإصلاح في الأرض.
- الجهات العديدة لعلوم الاجتماع في ظاهرة قوم صالح كأمة غابرة في حقبة الرسالات مضت عليها سنن الله.
- الفقه الدعوي والإصلاحي الذي يمثل مناراً للسالكين.

• الفقه الحضاري الذي يتشكل من خلال المنظومة الآنفة الذكر بأكملها وتنوعها.

• الفقه الدلالي للفظة القرآنية وسياقها في السور المختلفة التي تصف ذلك بأبداع بيان وأعظم أسلوب معجز.

لا شك أن سيرة رسول الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ تُعد تكملة بنائية لأطوار الحضارة الإنسانية، منذ النشأة إلى تاريخ أمة صالح، التي تجلت بوضوح من خلال التبع الموضوعي في عموم القرآن لهذه القصة العظيمة، وما صح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السنة الصحيحة.

- إضافات مميزة وتحقيق علمي

إن هذا الكتاب، كغيره، لا يمر على المسائل إلا بتحرير وتحقيق. وانظر مثلاً في مسألة نبي الله إدريس، وترجيح الشيخ بعد تحقيق دقيق أنه بعد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا قبله. وكذلك في قضية "عاد الأولى"، يرجح الشيخ علي أنها واحدة، وأن هلاكها مر بمرحلتين:

• الأولى: الصيحة.

• الثانية: الريح الصرصر العاتية.

كما أن الكتاب يحقق الألفاظ ويجمع بينها، فقوم صالح ورد عذابهم في القرآن بألفاظ: الصيحة، الطاغية، الصاعقة، سوط عذاب، الرجفة، التدمير. لذلك جاءت في سورة الشمس بعبارة: "قدمدم".

وهذا يدل على أنواع العذاب والتنكيل. ولقد تركهم العذاب كهشيم المحتظر، كما في سورة القمر، وهي أعواد الحظيرة الجافة المهشمة المرمية تحت أقدام الأنعام.

فيا له من تصوير يقف له شعر البدن ويهتز له الكيان!

إن الفوائد العظيمة من قراءة هذا الكتاب وقراءة هذه السلسلة لا يمكن اختزالها في هذه الكلمات. ولا أريد أن أعكر على القارئ بهذه الأحرف أشواقه للإبحار، وأقول له: دونك البحر فأبحر في أي وجهة تشاء.

ومن قلب صادق أنصح كل عالم فقيه أو مفسر أو داعية أو مفكر أن يرسو هنا، ويبحر في تاريخ كله صدق وكله حقيقة وكله فقه، من هنا، لأنه نابع من أصدق كتاب، ومن أصدق من الله قيلاً.

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

هنيئاً للشيخ العلامة مؤرخ الإسلام في عصرنا علي الصلابي بهذا السفر الجليل، ودعواتي الخالصة له بتمام هذا المشروع العملاق بقلمه الأنيق، وفكره العميق، وتحليله الدقيق، والذي يُسهم في نهضة الأمة الإسلامية، وتجديد فقهها التاريخي.

والحمد لله رب العالمين

أ.د. فضل عبد الله مراد

مؤسس مشروع فقه العصر

الأمين العام المساعد للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

أستاذ الفقه والقضايا المعاصرة بجامعة قطر



مقدمة الكتاب

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُ بِهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَلِعَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَلَكَ الْحَمْدُ حَتَّى تَرْضَى، وَلَكَ الْحَمْدُ إِذَا رَضِيتَ، وَلَكَ الْحَمْدُ بَعْدَ الرِّضَا.

أَمَّا بَعْدُ؛

فهذا الكتاب يحمل اسم (صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَسْبَابُ هَلَاكِ قَوْمِ ثَمُودَ)، وهو ضمن سلسلة الأنبياء والمرسلين، ومشروعي في القصص القرآني، والتي صدر منها:

– موسوعة "نشأة الحضارة الإنسانية الأولى وقادتها العظام؛ آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

– النبي الوزير يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ من الابتلاء إلى التمكين.

– الأنبياء الملوك داود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وهيكل سليمان المزعوم.

— لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته لقومه الظالمين وعقاب الله لهم.

— هود عَلَيْهِ السَّلَامُ وزوال حضارة عاد.

إنَّ قصَّةَ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ حُفِظَتْ في القرآن الكريم لكي تستفيد الإنسانية من أحداثها المليئة بالمواقف والدروس والعبر، والقوانين، والسُّنن، والابتلاءات، وقد حفظ الله تعالى للبشريَّة في كتابه الكريم أهمَّ محطات تاريخها، ومن بينها قصَّة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه ثمود.

وحتى تكون قصة نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ واضحة حرصتُ على تقسيمه لعدة مباحث، وهي:

يتحدث المبحث الأول عن أصل الثموديين، وتاريخهم، وعصرهم، ونقوشهم، ومساكنهم، وحياتهم.

وفي المبحث الثاني تناولتُ قصَّةَ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الأعراف، وهود، والحجر، والشعراء، والنمل، والقمر، والشمس، وعن السور التي فيها إشارات سريعة لقصَّة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ثمود؛ كسورة الإسراء، وفُصِّلَتْ، والفجر، والذاريات، والآيات التي ذُكرت فيها ثمود مع الأمم الهالكة.

ولقد وقفتُ مع الآيات الكريمة في التأمل والتدبُّر والتفكُّر، واستخراج الفوائد منها، والدروس والعبر، والتزمتُ التفسيرَ الموضوعيَّ، واستفدتُ من علماء التفسير، وفقهاء الشريعة، وأهل التخصص في علم التاريخ والحضارات، فكان هناك وقفات مع قصَّة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه في فقه السنن الإلهية، وقضايا التوحيد، والعقائد، والأخلاق، والقيم، والمبادئ.

وفي المبحث الثالث: كان الحديث عن أسباب هلاك قوم ثمود، وذكرت منها:

أولاً: الكفر بالله عَزَّوَجَلَّ.

ثانياً: الشرك بالله.

ثالثاً: التكذيب.

رابعاً: الظلم.

خامساً: استعجال العذاب.

سادساً: الإسراف والترف.

سابعاً: الاستكبار.

ثامناً: الإجرام.

تاسعاً: المكر.

عاشراً: الفساد.

الحادي عشر: الطغيان.

الثاني عشر: بطر النعمة.

الثالث عشر: الخطايا والذنوب.

الرابع عشر: انتهاك حُرُمات الله.

الخامس عشر: سُنَّةُ الإِمْلاء والاستدراج.

السادس عشر: الانشغال بالدنيا عن الآخرة.

السابع عشر: سنة الاستبدال.

الثامن عشر: سنة الأجل الجماعي.

التاسع عشر: سنة الهلاك.

العشرون: سنة الخسران.

الحادي والعشرون: الغفلة عن أسباب الهلاك.

وفي المبحث الرابع: أهم صفات وخصائص صالح عَلَيْهِ السَّلَام، ووفاته.

وقد بيّنتُ في هذا المبحث حقيقة الرُّسل وخصائصهم، وبأنَّ الرسالة إصطفاء من الله، وبأنَّ الرسول يوحى إليه من ربّه، وطُرق الوحي، والفرق بين النبيّ والرسول وأهم صفات الرسل، ومنهم صالح عَلَيْهِ السَّلَام؛ كالصدق والفظانة والتبليغ والعصمة ومكارم الأخلاق، والكمال في الخلقة الظاهرة، والسلامة من الأمراض المُنفّرة، وأهميّة الإيمان بالأنبياء والمرسلين، وعدد الرسل، والتفاضل بين الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَام، وحكمة إرسال الرسل عامّة، ووظائفهم، والأُمور التي تفرّد بها الأنبياء.

وتناولتُ في نهاية الكتاب الحديث عن وفاة صالح عَلَيْهِ السَّلَام، وحجّه لبيت الله الحرام قبل وفاته.

إنَّ القصص القرآني مدرسة عظيمة في تعليم الشعوب والأمم، حقائق الوجود، ومسار الحضارات، وأحوال الأمم الغابرة، ومن خلالها نستلهم الدروس، ونفهم السنن، كما أنَّ الأنبياء والمرسلين مرجعيّة روحية وأخلاقيّة، وعقائديّة، ودينيّة لمعرفة الصراط المستقيم والإجابة على كلّ الأسئلة التي تشغل بني الإنسان فيما

يسمى بالأسئلة الوجودية، كما أن الوقوف مع أقوال الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والتأمل فيها تُكسبنا ملكات وقدرات عقلانية ومنطقية ووجدانية في الحوار، ودعوة الناس لدين الله الحق، والتضييق على منافذ الشيطان الرجيم، والنفس الأمارة بالسوء.

وأخيراً: لا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم، معترفاً بفضلِهِ وكرمه وجوده، متبرئاً من حولي وقوتي، وملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي.

فالله العزيز الحكيم، الخلاق العليم، الرؤوف الرحيم؛ هو المتفضل. وربّي الكريم وإلهي العظيم؛ هو الموفق، فلو تخلّى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي لتبلد مني العقل وغابت الذاكرة، ويست الأصابع، وجفت العواطف، وتحجرت المشاعر، وعجز القلم عن البيان.

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك وطاعتك.

اللهم إني أعوذ بك من سوء الأخلاق والأعمال والأهواء وطريق الغواية.

اللهم بصّرني بما يرضيك واشرح صدري، وجنبني اللهم ما لا يرضيك، واصرفه عن قلبي وتفكيري، وأسألك يا الله بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا أن تُبشّني وإخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد.

اللهم اجعل هذا العمل لوجهك خالصاً، ولعبادك نافعاً، واطرح فيه البركة والقبول والنصح العميم، ونرجو من كل من يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضاه من دعائه.

﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ
وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

والحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضواته

د. علي محمد محمد الصلابي

ولقد تم إنجاز هذا الكتاب -بفضل الله ومنه ورحمته وتوفيقه وتسديده- يوم
الخميس، الساعة الواحدة وسبع وثلاثين دقيقة ظهراً بتوقيت العاصمة القطرية
الدوحة (حفظها الله وسائر بلاد المسلمين).

١٥ ذو القعدة ١٤٤٥هـ / ٢٣ مايو ٢٠٢٤م

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





المبحث الأول

أصل الثموديين، وحديث التاريخ عنهم،
وعصرهم، ونقوشهم، ومساكنهم، وحياتهم

أولاً: أصل الثموديين

ثانياً: ثمود في الكتابات القديمة

ثالثاً: مساكن ثمود

رابعاً: الرسوم والنقوش الصخرية الثمودية

خامساً: المجتمع الثمودي

سادساً: حضارة ثمود

سابعاً: دين أهل ثمود

ثامناً: ذكر صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقوم ثمود في القرآن الكريم

أولاً: أصل التموديين:

يُنسب التموديون إلى ثمود بن عائر بن إرم بن سام^(١). ويذهب بعض المؤرخين إلى أن ثمود، إنما هو أخو (جديس، وطسم)، وأنهم أبناء عابر بن إرم بن سام بن نوح^(٢). ويكتفي البعض بإرجاع نسبهم إلى عاد، على أنهم بقية من عاد^(٣).

وأما النبي، فهو: صالح هو صالح بن عبید بین ماشع بن عبید بن حاجر بن ثمود بن عائر بن إرم بن سام بن نوح^(٤).

وصالح اسم علم على نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ و(صالح) لفظ عربي قديم. والصالح هو الطريق الملائم والمناسب الذي يصلح للمسير وللعمل دائماً، ولا يصل إليه الخلل. وهو الأمين الصادق، والمفيد الإيجابي والمنتج والبناء دائماً، والذي لا يسبب الضرر ولا يُنتج الفساد أبداً، ويقوم الأمور باتجاه الحق باستمرار، وهو دائماً ضد الفساد. (والصالح) الفاعل من الصلاح، والصالح هو النافع والخير من كل أمر، وهو اسم نبي عربي قد اختص به، والأنبياء جميعهم صالحون^(٥).

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، إعداد إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٤، ٢٠٠٣ م (١/ ٨٢)؛ البداية والنهاية، ابن كثير، دار الريان للتراث، مصر، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٩٠ م، بعناية عبد الرحمن اللاذقي ومحمد غازي، دار المعرفة، لبنان، ط ٤، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م (١/ ١٩٦)؛ نظرات في أحسن القصص، محمد السيد الوكيل، دار القلم للطباعة والنشر، ١٩٩٤ م (١/ ١٢٢)؛ الأنبياء والرسل في القرآن، د. علي العريبي، ص ٣٥.

(٢) البداية والنهاية (١/ ١٩٦).

(٣) دراسات تاريخية من القرآن، محمد بيومي، دار النهضة العربية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٨ م (١/ ٢٦٥).

(٤) البداية والنهاية (١/ ١٩٦).

(٥) أسماء الأنبياء دلالاتها ومعانيها، خالد محمد خالد، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، ط ١، ٢٠١٦ م، ص ٨٣.

ويُجمع المؤرّخون الإسلاميّون على أنّ الثموديّين عربٌ، بل ويكاد يتفقون على أنّهم من العرب العاربة، ثمّ يذهبون بعد ذلك مذاهب شتى، حيث يرى فريق منهم أنّهم بقية من قوم عاد، ومن ثمّ، فإنّهم يرون أنّهم نشؤوا في اليمن، ثمّ غلبهم الحميريّون فأجلّوهم إلى الشمال، فسكنوا منطقة الحِجر^(١).

وهناك فريق آخر، يذهب إلى أنّهم بقية من العماليق، ولعلّ هذا هو الذي دفع بعضاً من المؤرّخين المُحدّثين إلى القول بأنّ ثمودَ، إنّما هم شرذمة من الهكسوس الذين طردهم حمس الأول حوالي عام ١٥٧٥ ق.م من مصر، وأنّهم سكنوا منطقة الحِجر، حيث نحتوا من الجبال بيوتاً على غرار المقابر المصريّة القديمة، التي شاهدوها أثناء إقامتهم في مصر^(٢). وقد ردّ الدكتور محمد بيومي على تلك الاتجاهات التاريخيّة وفنّدها^(٣).

وهناك طرف ثالث يذهب إلى أنّ الثموديّين عرب جنوبيّون هاجروا إلى شمال غرب الجزيرة العربيّة كدأب كثير من القبائل الجنوبيّة التي اشتهرت بكثرة تنقّلاتها. وأيّاً ما كان الأمر، فهناك ما يدلّ على أنّ الثموديّين إنّما كانوا من القبائل التي سكنت شمال شبه الجزيرة العربيّة^(٤).

١- سبب تسمية "ثمود":

و(ثمود): كلمة عربيّة فصيحّة مشتقّة من (الثَّمد)، قال ابن فارس في مقاييس اللغة عن الثَّمد: هو القليل من الشيء، والثَّمد هو الماء القليل، وثمدت فلانا

(١) دراسات تاريخية من تاريخ القرآن (١/٢٦٦).

(٢) عصر ما قبل الإسلام، محمد مبروك نافع، مكتبة السعادة، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٤٨م، ص ٣٦.

(٣) دراسات تاريخية (١/٢٦٦).

(٤) المصدر السابق (١/٢٦٨).

النساء: إذا قطعن ماءه من كثرة الجماع. والإثمد: الطيب المعروف، سُمِّي بذلك، لأنَّ الذي يُستعمل منه قليل يسير^(١).

قال الدكتور صلاح الخالدي رَحِمَهُ اللهُ: ولعلَّ هذا هو سرُّ تسميتهم بتمود، ولعلَّهم سكنوا في منطقة ماؤها ثمد، أيَّ قليل يسير، فسَمَّوا بذلك^(٢).

ويقول العلامة سليمان الندوي رَحِمَهُ اللهُ: وفي اللغة العبريَّة كلمة (تاميد) تعني الدائم، وتاء العبريَّة وتاء العربيَّة شيء واحد، والعبريَّة ليست فيها ثاء، ومعظم ثاءات اللغة العربيَّة ثاءات بالعبريَّة، فيكون معنى كلمة تمود في اللغات السامية العامَّة هو خالد، وهو اسم لكثير من قبائل العرب^(٣).

٢- تمود بعد عاد:

و(تمود) وُجِدوا في التاريخ بعد (عاد)، وهم مثل عاد من العرب العاربة الفصيحة، وقد كانوا يتكلَّمون العربيَّة الفصيحة، التي أخذوها من (عاد)، كما أنَّهم من العرب (البائدة) الذين أبادهم الله ولم يبق منهم أحداً، ولم يُترك لهم أثر^(٤).

وجاءت قصَّة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه تمود في القرآن الكريم عقيب قصَّة هود، ففي سورة الأعراف جاءت القصص على هذا الترتيب: نوح، ثمَّ هود، ثمَّ صالح، بل جاء على لسان صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في تلك السورة أنَّه قال لقومه: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ

(١) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، دار الفكر، ١٩٧٩م (١/ ٣٨٧-٣٨٨).

(٢) القصص القرآني، الخالدي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م (١/ ٢٧٠).

(٣) تاريخ أرض القرآن، سليمان الندوي، دار القلم، ٢٠١٦م، ص ١٩٠.

(٤) القصص القرآني، (١/ ١٩٠).

الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴿[الأعراف: ٧٤]﴾. وكذلك الشأن في سورة هود، والحجر، والشعراء، والقمر، وغيرها مما يدل على أن الأمتين (عاداً وثمود) كانتا متقاربتين في الزمان، وأن ثمود كانت على علم بما جرى لأسلافهم - عاد - من العذاب والنكال^(١).

إن الآيات القرآنية التي ذكرت فيها قصة هود وصالح عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مع أقوامهم في سورة الأعراف، وهود، والشعراء وغيرها، وكذلك الإشارات السريعة في سورة فصلت، والذاريات، والنجم، والحاقة، والفجر، جاءت ثمود أيضاً بعد عاد، وهذا الترتيب في الذكر الحكيم يوحي بالترتيب التاريخي.

وفي قول صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٧٤]؛ فهذا تصريح على أن الله جعل قوم ثمود خلفاء من بعد قوم عاد. وكلمة (خلفاء) توحى بالبعدية المباشرة؛ لأن الخليفة هو الذي يأتي بعد الخليفة السابق^(٢).

ثانياً: ثمود في الكتابات القديمة:

ذكرت كتب التاريخ القديم الثموديين، ومن أقدم من ذكرهم سرجون الثاني، فقد تحدّث عن الثموديين هؤلاء في حولياته، فالملك سرجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) يتحدّث عنهم، من بين من تحدّث عنهم من قبائل خاض غمار الحرب ضدها، وذلك بمناسبة معركة جرت بين الآشوريين. وهذه الشعوب تدّعي في هذه الحوليات أن سرجون قد هزم خصومه، وسباهم في السامرة: "لقد قضيت بعون

(١) الشرك في القديم والحديث، أبو بكر محمد زكريا، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م (١/ ٢٥٠).

(٢) القصص القرآني (١/ ٢٧١).

آشور ربّي على تمودي ومرسيماني وحيابا، أرض العرب البعيدة، سُكَّان الصحراء الذين لا يعترفون برؤساء أو قادة والذين لم يدفعوا جزية لأيّ ملك، وقد سبيت الأحياء منهم، ونقلتهم إلى السامرة"^(١).

وهذه المرحلة ذكرها العلامة السيّد سليمان الندويّ رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه (تاريخ أرض القرآن)، وعنون فيها فقرة عن ثمود الثانية أيّ بقيّة ثمود، وعندما ذكر سرجون أو سرجون الثاني أحد ملوك الآشوريين، وماذا فعل بالقبائل العربيّة، ومنها ثمود، فقد قال: "يثبت من ذلك أنّ ثمود لم تستعد قوّتها في عهدها الجديد، وإن كانت قد استعادت قوّة ما، فإنّها كانت قد ضعفت آنذاك"^(٢).

ولقد ذكر ديو دوروس (٨٠ ق.م) وبليني (٧٩م) وبطليموس (١٤٠م) من بين المؤرّخين الروم واليونان ثمود، وكان نطقها عند ديو دوروس: تهموديني، وعند بطليموس: تهموديتي، والبلاد التي عيّناها لثمود هي التي تؤكّد أخبار العرب"^(٣). ويستند الدكتور شبرنجر في ذكر ثمود إلى مؤلّف يوناني آخر أو لانيوس الذي شهد بأنّ ثمود كانت ساكنة بجانب الأنباط"^(٤).

ولما استولى الروم على شمالي بلاد العرب، انضمت ثمود إلى جيش الروم في عهد الإمبراطور الروماني جوستنيان (حكم بين ٤٨٣م - ٥٦٥م)، وكان هناك ٣٠٠ جندي من ثمود العرب في الجيش الرومي"^(٥)، وكانت رماحهم طويلة، وجمالهم

(١) الوجود التاريخي للأنبيا وجدل البحث الأكيولوجي، سامي العامري، ٢٠٢١م، ص ٥٠٦.

(٢) تاريخ أرض القرآن، ص ١٩٦.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر السابق نفسه.

معروفة، ويبدو أنَّ أهل مدينَ لما استولوا على أكثر بلاد ثمود، وسيطر الأنباط على ما بقي منها فيما بعد، وعزم الروم على شنِّ هجمة على العرب الأنباط، وحققوا هذه العزيمة، فلا عجب إذن أن تكون ثمود ناصرت الروم في معاداتها للأنباط^(١).

ولقد ذكرت كتب التاريخ القديم بأنَّ العهد الذي شنَّ فيها الملك سرجون الثاني الملك الآشوريّ هجومه على شمالي بلاد العرب، وجبى الخراج من ثمود عام ٧٠٠ ق.م، وبعد ذلك سيطر الأنباط على ثمود قبل عهد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولما شنَّ الروم الهجوم على الأنباط، ناصرت ثمود الرومان، ولأجل مناصرتهم، وقد ورد ذكر ثمود في تاريخ الروم. ولما ظهر الإسلام لم يكن لثمود عين ولا أثر، فقد كانت تسكن في بلادها آنذاك قبائل جُهيّنة، وبلى، واليهود^(٢).

ويمكن القول: إنَّ الثموديين إنَّما كانوا يسكنون في القرن الثاني ق.م، وحتى نهاية القرن الثاني الميلادي في بلاد مدينَ، فضلاً عن أنَّنا نجدهم منذ بداية القرن الأوّل الميلادي في الحجاز والجوف ووسط الجزيرة العربيّة، وأنَّهم قد بقوا في هذه المناطق حتى نهاية القرن الثاني الميلاديّ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما يمكن استنتاجه من المصادر الآشوريّة، وإشارات المؤرّخين العرب، لأمكن القول، أنّه منذ بداية القرن الثاني الميلاديّ، فإنَّ المنطقة التي سكنها الثموديون قد اتّسعت تدريجيّاً حتى شملت بلاد العرب الشماليّة والوسطى، من الحدود السوريّة شمالاً إلى مسافة قريبة من حدود سبأ جنوباً^(٣).

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر ودار بيروت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م (٤/٣٣٨).

(٣) دراسات تاريخية من القرآن الكريم (١/٢٧٥).

وأما المصادر العربية، فتكاد تُجمع على أن ثمودَ إنما كان مقامها بالحِجْر إلى وادي القرى بين الحجاز والشام^(١).

على أن ارتباطها بعاد يقتضي تقاربهما بالمكان، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أن ثمود إنما كانت بين الشام والحجاز، إلى ساحل البحر الأحمر وديارهم بفجّ الناقة، وأن بيوتهم منحوتة في الجبال وأن رممهم كانت باقية في مقابرهم، وآثارهم بادية، وذلك في طريق الحجّ لمن ورد الشام في وادي القرى^(٢).

ثالثاً: مساكن ثمود:

كانت ثمود تمتلك الجانب الغربي والشماليّ من بلاد العرب، وكان يُسمّى في ذلك العهد وادي القرى؛ لأنّ الوادي من أوله إلى آخره قرى منظومة، وقد عثر الجغرافيون المسلمون على أطلال هذه القرى، وآثارها الحجرية ظاهرة بها إلى الآن^(٣).

وكانت عاصمة بلاد ثمود "الحِجْر"، والتي تقع على الطريق القديم الذي يمتدّ بين الحجاز والشام، وعلى الطريق نفسه مدينة أخرى لثمود (فجّ الناقة)، ولكنّ المدينة الحقيقية كانت الحِجْر، والتي تسمى بالوقت الحالي مدائن صالح^(٤).

(١) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أحمد بن عبد الله قلقشندي، مطبعة النجاح، ٢٠١٦م، ص ٢٠٠.

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر، كمال حسن المرعي، المكتبة العصرية، ٢٠١٢م، (٢/١٤)؛ عصر ما قبل الإسلام، ص ٣٦؛ تفسير المنار (٨/٥٠١)؛ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ط ٢، ١٩٩٣م (١/٤)؛ كتاب المعارف، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م، ص ١٤.

(٣) تاريخ أرض القرآن، ص ١٩٠.

(٤) المصدر السابق نفسه.

وقد أخبرت آيات القرآن الكريم عن مكان إقامة قوم ثمود، قال تعالى: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر: ٩]. والجوب: القطع، قال السمين الحلبي: الجوب: قطع الجوب وهو الغائط من الأرض؛ أي: الأرض المنخفضة، ثم استعمل في قطع كل أرض، ومعنى ﴿جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر: ٩]؛ قطعوا الصخرة، وجعلوه بيوتاً يسكنوها^(١).

وتدلنا الآية على أن ثمود كانوا يسكنون في منطقة صخرية في أحد الأودية، وأنهم قاموا بقطع الصخر في ذلك الوادي، وتجهيز بيوت ومساكن لهم فيه.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٠-٨٢]؛ كان قوم ثمود يسكنون في منطقة الحجر فهم (أصحاب الحجر) كما سمّتهم هذه الآية من سورة الحجر، ثم ذكرت كيف كانوا يقيمون في منطقة الحجر الصخرية الجبلية، فقد كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين.

وهذا يُوحى بأن صخور تلك الجبال والأودية كانت رخوة، وسهلة النحت والحث، وهو ما مكّنهم من نحت تلك الصخور والجبال، وتجهيز البيوت والمنازل في داخلها، كما أن هذا يدلّ على مهارتهم في نحت الجبال، وتقدّمهم العلمي والفني، وقدرتهم على تخطيط وتنفيذ الأشكال الفنية والهندسية والمعمارية^(٢).

(١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٦م (١/ ٤١٠).

(٢) القصص القرآني (١/ ٢٧٢).

ومنطقة (الحجر) التي أقام فيها قوم ثمود، تقع في شمال غرب الحجاز، على الطريق القديم الذي يربط بين المدينة المنورة - على ساكنها السلام - وبين تبوك^(١). وقد مرّ معنا رسول الله ﷺ على منطقة الحجر أثناء توجّهه من المدينة إلى تبوك. روى البخاريّ ومسلم عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاسِ عَلَى تَبُوكَ، نَزَلَ بِهِمُ الْحَجْرَ عِنْدَ بَيْوتِ ثَمُودَ، فَاسْتَقَى النَّاسُ مِنَ الْآبَارِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا ثَمُودَ، فَعَجَنُوا مِنْهَا، وَنَصَبُوا الْقُدُورَ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَهْرَقُوا الْقُدُورَ، وَعَلَفُوا الْعَجِينَ الْإِبِلَ، ثُمَّ ارْتَحَلَ بِهِمْ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ عَلَى الْبُئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا النَّاقَةُ، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ عَذَّبُوا، فَقَالَ: إِنِّي أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ^(٢).

يُحَدِّدُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ مَسْكَنَ ثَمُودَ، وَأَنَّهُ الْحَجْرُ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ، كَمَا يُحَدِّدُ الْحَجْرَ بِأَنَّهُ الطَّرِيقُ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَتَبُوكَ: نَزَلَ بِهِمُ الْحَجْرَ عِنْدَ بَيْوتِ ثَمُودَ، كَمَا يُحَدِّدُ الْبُئْرَ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا نَاقَةُ صَالِحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّهَا مَا زَالَتْ مَوْجُودَةً، وَمَا زَالَ مَاؤُهَا مَوْجُودًا حَتَّى عَهْدَ الرَّسُولِ ﷺ، حَيْثُ أَذِنَ لِلصَّحَابَةِ أَنْ يَشْرَبُوا مِنْهَا، وَمِنْطَقَةَ الْحَجْرِ أَطْلَقَ عَلَيْهَا التَّارِخُ الْإِسْلَامِي اسْمَ (الْعُلَا)، قَالَ يَاقُوتُ فِي مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ: الْعُلَا: بَضْمٌ أَوَّلُهُ وَالْقَصْرُ: اسْمٌ لِمَوْضِعٍ مِنْ نَاحِيَةِ وَادِي الْقُرَى بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشَّامِ، نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي طَرِيقِهِ إِلَى تَبُوكَ^(٣).

(١) المصدر السابق (١/ ٢٧٤).

(٢) صحيح البخاري، دار ابن كثير، محمد بن إسماعيل، البخاري، دمشق، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، رقم (٣٣٧٨)؛ مسلم، رقم (٢٩٨١).

(٣) معجم البلدان، ياقوت الحموي (٤/ ٢٤٤).

وما زالت المنطقة تحمل اسم (العُلا) حتّى الآن^(١)، وفي منطقة (العُلا) تقع منطقة أثرية، تُسمّى الآن (مدائن صالح) نسبة إلى نبيّ الله صالح عليه السلام^(٢). ولا تزال بها آثار قوم ثمود، ولا تزال بعض بيوتهم المنحوتة في الصخور والجبال، ولا تزال بعض مظاهر المهارة المعماريّة لقوم ثمود ظاهرة في هذه البيوت، والذين شاهدوا آثار ثمود في (مدائن صالح) من منطقة العُلا، يقولون إنّها تفوق في إتقانها وجمالها آثار الأنباط في منطقة البتراء في جنوب الأردن، ذات البيوت المنحوتة في الصخور والجبال^(٣).

١ - (مدائن صالح):

لا يوجد أيّ خبر موثوق في التراث الإسلاميّ أو خارجه أنّ تلك المنطقة التي كانت تُسمّى (مدائن صالح) قبل البعثة أو أثنائها، وعبء الإثبات يقع على المخالف لإثبات دعواه.

وتسمية الحجز بمدائن صالح متأخرة، يقول عالم الآثار عبد الله آدم نصيف في كتابه (العُلا والحجر): أقدم من ذكر الحجر بهذا الاسم (مدائن صالح) حسبما أعرف إبراهيم الحيارى المدني المتوفى سنة ١٠٨٣هـ^(٤).

وذهب صاحب كتاب: المدن والأماكن الأثرية في شمال وجنوب الجزيرة العربية إلى أنّ أوّل من سمّاها بـ (مدائن صالح) من المؤرّخين: البلويّ الأندلسيّ الذي زارها سنة ٧٣٧هـ في طريقه إلى مكّة^(٥).

(١) القصص القرآني (١/ ٢٧٥).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٧٦).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) العُلا والحجر، عبد الله آدم نصيف، ١٩٩٨م، ص ١٤٨.

(٥) الأماكن الأثرية في شمال وجنوبي الجزيرة العربية، أحمد حسين، مكتبة التاريخ، ص ٢١.

وذهب المؤرخ أحمد الحاسر إلى أنَّ ما يُعرف اليوم بمنطقة مدائن صالح (شمال العلا) لم يكن هذا اسمه في القرون الإسلامية الأولى، وأنَّه في جنوب مدينة العلا بنحو ٥٥ كيلاً آثار عمران قديم، من أُسس بناء ومجاري مياه وآثار زراعة. وقد كان الموضع في القرن السابع الهجري وما قُرب منه يُعرف باسم مدينة صالح، ثمَّ مدائن صالح، وله قبل ذلك اسم آخر، أرجح أنَّه (الرحبة) الوارد في كثير من كتب الرحلات ومعجمات الأمكنة، فنسي اسم الرحبة، واسم مدينة صالح -أو مدائن صالح- وعُرف باسم وادي العطاس على ما جاء في رحلة ابن بطوطة في عشر الثلاثين من القرن الثامن^(١).

ونقل ابن ناصر الدين الدمشقي (توفي ٨٤٢هـ) عن الحافظ البرزالي (توفي ٧٣٩هـ) قوله: مدائن صالح بالقرب من العلا في طريق الحاج من الشام -بلد إسلامي- وصالح المنسوبة إليه من بني العبَّاس بن عبد المطلب^(٢). فالنسبة على هذا القول ليست إلى نبيِّ الله صالح عَلَيْهِ السَّلَام^(٣). والقول إنَّ مدائن صالح هي عين وادي الحجر، عُمْدته مطابقة المتأخرين بينهما^(٤).

والحقُّ أنَّ المتقدمين قد اختلفوا في تحديد وادي الحجر، فقد قالت مثلاً طائفة منهم وممن تابعهم: إنَّ أرض قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَام هي وادي القرى^(٥). قال الحموي (توفي ٦٢٦هـ) في معجم البلدان: والحجر: اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام^(٦).

(١) ليس الحجر من مدائن صالح، مجلة العرب، ٢٠١٤م، ص ٣.

(٢) الوجود التاريخي للأبياء، ص ٥١٨.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) الإحساء.

(٦) معجم البلدان (٢/ ٢٥٥).

وقال ابن كثير: هذا إخبار من الله عَزَّجَلَّ عن عبده ورسوله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ بعثه إلى قومه ثمود، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر التي بين وادي القرى وبلاد الشام^(١). وأمّا ابن خلدون فقال: وأمّا ثمود، فكانت ديارهم بالحجر ووادي القرى فيما بين الحجاز والشام^(٢).

٢- مساحات واسعة لثمود:

من الثابت أَنَّ قوم ثمود قد سكنوا في مساحات واسعة، فقد وُجِدَت نقوشهم وكتاباتهم في بلاد الحرمين، والأردن، واليمن، وسورية، وسيناء، وتشير أغلب المصادر إلى أَنَّ موطنهم الأصلي أعالي الحجاز^(٣)، كما أشار الدكتور محمد بيومي مهران المتخصص في التاريخ العربي القديم (والمصريّات) إلى أَنَّ الأثرين قد عثروا على نقوش ثمودية في مناطق مختلفة من شبه الجزيرة العربية من الجوف شمالاً إلى الطائف جنوباً، ومن الإحساء شرقاً إلى يثرب فأرض مدين غرباً^(٤). ولذلك فإن بيوتهم المهذّمة قد تكون في أيّ مكان شمال الجزيرة العربية، وربما امتدّ الهدم إلى غيرها من المناطق الثمودية المجاورة.

ومنطقة الحجر التي جاء فيها الخبر القرآني بَأَنَّهَا أرض عذاب ثمود في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ۖ وَآتَيْنَهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۖ﴾

(١) تفسير ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، حققه يوسف علي بديوي، حسن سويدان، دار ابن كثير، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م (٦/١٥٥).

(٢) تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر (٢/٢٤).

(٣) دراسات في آثار المملكة السعودية، عبد الرحمن كباوي، إصدارات المهرجان الوطني للتراث، ١٩٩١م، ص ٧٣.

(٤) دراسات تاريخية من القرآن (١/٢٨٢).

وَكَاؤُوا يَنْجُتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿ [الحجر: ٨٠-٨٢] واسعة، وقد ذكر الطبري أنها بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله^(١).

٣- بلدة الخريبة بين المدينة وتبوك:

من المواضع المرشحة لتكون أرض قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بين المدينة وتبوك، بلدة الخريبة شمال شرقي العلا، وفي ذلك يقول صاحب كتاب (تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة): إِنَّ كثرة من الباحثين المحدثين حدّوها ببلدة الخريبة التي تبعد عن مدائن صالح بنحو عشرة أميال، وقد أصاب آثارها هي الأخرى خراب كبير، وبنوا رأيهم على غلبة النصوص الثمودية التي عُثر عليها فيها^(٢).

علماً أَنَّ هذه البلدة صخرية، وفيها أيضاً مقابر منحوتة، وهي أقدم بقرون من (مدائن صالح)، فقد حكمها الدادانيون في القرن السابع قبل الميلاد، وسكنتها أمم كثيرة، بما يظهر فيها من نقوش دادانية ومعيّنة ولحيانية وثمودية ونبطية وكوفية، وفيها ما يُعرف في تراثنا بمحلب الناقة (ناقة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وهذا يُبطل الظنَّ أَنَّ الصخور المنحوتة فيما يُعرف بمدائن صالح هي المنطقة الوحيدة التي ينطبق عليها الوصف القرآني الظاهري المتعلّق بالنحت في الصخر^(٣).

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، هجر

للطباعة والنشر (٢٨٢/١٠)

(٢) الوجود التاريخي للأنبياء، ص ٥١٩.

(٣) المصدر السابق نفسه.

رابعاً: الرسوم والنقوش الصخرية الثمودية:

دلّت الصخور المنقوشة بكتاباتهم ورسومهم على أنّهم تجوّلوا في أرجاء الجزيرة العربيّة، وكانت معظم سواحل البحر الأحمر تحت سيطرتهم، وقد تحكّموا في طرق التجارة، وتنظيمها، وتوفير الحماية لها، وقد قام العلماء الجغرافيون الأوروبيون خلال القرنين الماضيين باكتشاف العديد من النقوش الثموديّة التي ألقت مزيداً من الضوء على حياة الثموديين الذين يعيشون في الجزيرة العربيّة يسكنون منطقة تسمّى (حاجابا)، وذكر المؤرّخون أنّهم كانوا يسيطرون على معظم المنطقة العربيّة الصخرية التي تُعرف بالعرب الصخرية تمييز لها عن العرب الصحراوية والعرب السعيدة، وأوّل ترجمة للنقوش الثموديّة قام بها العالم أميل ريدجر عام ١٨٣٧م، ويؤكّد المؤرّخون، وعلماء الآثار، وجود الثموديين في جنوب الجزيرة وشمالها قبل الميلاد بآلاف السنين في مجتمعات منتشرة في أرجاء الجزيرة، وأنّها كانت مجتمعات كبيرة ومُتحضّرة، وذكر ذلك في كتاب التاريخ، لديدور الصقلي^(١). وقد كانوا السكّان الأصليين لشمال العربيّة.

وعلى أيّة حال، فإنّ نقوشاً ثموديّة كثيرة، جاءت إلينا من شمال شبه الجزيرة العربيّة، من تبوك، وتيما، والعلا، ومدائن صالح، وجبل مرير، ومن المدينة المنورة، ووادي الأب - الذي يبعد عنها بحوالي ٧٠ كم - ومن مكّة المكرّمة، والطائف، ومن السواحل الحجازيّة الشماليّة للبحر الأحمر عند الوجه^(٢).

(١) نظريات عصرية في القرآن الكريم، محمد لطفي جمعة، عالم الكتب، ١٩٩١م، ص ٢١٨.

(٢) دراسات تاريخية من القرآن الكريم (١/ ٢٨٣).

وأما في وسط الجزيرة العربية، فقد جاءتنا نقوش ثمودية من اليمن وقرب عدن، ومن حجر المعقاب عند جبل جليل، ومن طرف النجور بين حضرموت ومكة، ومن منطقة شوايف في اليمن الجنوبية^(١).

هذا، وتُشير النقوش التمودية إلى الحياة المستقرة التي كان يحياها القوم، ومن ثم فقد رأينا رسماً يُصوّر لنا عملية حرث الأرض، وهو عمل كثيراً ما تتحدث عنه النقوش، كما أن البعض يوصف بأنه (أكّار) أي فلاح كما وردت كلمة (عيّان) بمعنى سكة المحراث، وكلّ تلك ألفاظ تُشير إلى مهنة الزراعة، أضف إلى ذلك أن الاسم (رال) الذي يعني (قش) إنّما يدلّ على زراعة أنواع مختلفة من الحبوب، والأمر كذلك إلى لفظة (زرأ) بمعنى (بذر)^(٢).

وهناك ما يُشير إلى أن القوم عرفوا زراعة العنب، بدليل وجود اسم (عنب) أيّ تاجر العنب، وكما تشير الرسوم المتعددة لشجرة النخيل إلى أن ثمارها ربّما كانت الغذاء الرئيسي للتموديين^(٣).

وهناك ما يشير إلى أن التموديين قد عرفوا زراعة القطن، والاسم (هلق) أيّ حلاج القطن، الذي يشير إلى صناعته كذلك، كما أن هناك ما يُشير إلى معرفة القوم لزراعة البصل والبخور والورود^(٤).

ولم تقتصر النقوش التمودية على بلاد العرب، وإنّما وجدت كذلك في سينا وفي دلتا مصر، وفي وادي الحمامات بيت القصر وقفت، وفي الصفا شرق دمشق،

(١) المصدر السابق (١/ ٢٨٤).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق (١/ ٢٨٥).

وفي شمال غرب تدمر، وفي صدا، وجبل الرام، وأمّ الرصاص قرب ديبان في شرق الأردن، وفي النقب^(١).

خامساً: المجتمع الثمودي:

تدلُّنا الكتابات الثمودية على أنَّ أصحابها إنَّما كانوا في معظمهم يعرفون القراءة والكتابة إلى حدٍّ ما، وقد سُمِّيت إحدى النساء (سحف) أيَّ التي تخطئ عند القراءة، كما أنَّ هناك نصّاً يُعرف منه أنَّ فتاة صغيرة كتبت اسمها على الصخر، بينما كان والدها يُراقبها عن قرب، فضلاً عن أنَّ هناك من احترف مهنة الكتابة، بدليل وجود الاسم (كتب) أي (كاتب)^(٢).

وقد كان القوم زُرَّاعاً، ولكن أقرب إلى الحضرم منهم إلى أهل الوبر، وأنَّ لهم مواطن استقرار، ومعابد، وأنَّ بينهم من اشتغل بالتجارة، فضلاً عن الصيد الذي مارسه الثموديون سكَّان مدين بصفة خاصَّة، وقد عُثر على ثلاث رسومات في الجبال الداخلية لسفن كان يستعملها القوم في صيد الأسماك، ولعلَّ من المفيد هنا الإشارة إلى أنَّه قد عُثر على سفن من نفس الطراز في صخور وادي الحمامات في صحراء مصر الشرقية، بجوار بعض النقوش الثمودية، الأمر الذي يحمل على الظن بأنَّها مراكب استعملها القوم في عبور البحر الأحمر^(٣).

وإن كان هذا لا يمنع من القول بأنَّ فريقاً من المجتمع الثمودي، إنَّما كان بدواً رُحَّلاً، ومن بينهم من كان يعمل في تجارة القوافل، أو من (أهل العير) على حدِّ

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق (١/ ٢٨٧).

تعبير النقوش، وتُصوّر النقوش التموديّة رجالاً، ويبدو أنّهم كانوا من العنصر ذوي الرؤوس المستطيلة - مثلهم في ذلك مثل سكان بلاد العرب الشماليّة - وكان رجالهم ذوي شعور قصيرة، ويلبسون إزاراً وحزاماً في الوسط، والرأس عادة عارٍ، وإن كان الرجال - في بعض الأحيان - يلبسون غطاء رأس من القش، كما أنّ هناك من يلبس ثوباً، وعلى رأسه عمامة، ومن يرتدي قميصاً ينزل حتّى الركبة، وأمّا النساء فكانت شعورهنّ طويلة، هذا، وهناك بعض المناظر التي تبدو فيها المرأة وقد حملت سلّة فوق رأسها، وارتدت ثوباً طويلاً ينزل حتّى العرقوب، وارتدت خماراً. هذا، وتدلّ على مناظر النساء على أنّ المرأة التموديّة إنّما كانت شديدة الرغبة في التزيّن بالحلي والأساور، فضلاً عن العقود التي كانت على هيئة الهلال أو الجعل، حتّى إنّ المرأة التي لم تكن ترتدي حليّاً في جيدها إنّما تُسمّى (آتل) أضف إلى أنّ استعمال الدهون كان شائعاً بينهم^(١).

وإنّ دراسة الكتابات المنقوشة على الصخور، والتي كانت مدفونة تحت الرمال لقوم ثمود يعود تاريخها - كما حدّدها علماء الآثار - إلى القرن الثامن قبل الميلاد، واستمرّت حتّى منتصف القرن الخامس الميلاديّ، أي قبل قرن من ولادة النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا يعني أنّ قوم ثمود أقاموا على مسرح التاريخ ثلاثة عشر قرناً.

ويقال: كان هلاك قوم ثمود (قبل الميلاد بتسعة عشر قرناً، وكانت حياة نبيّهم ما بين ٢٠٠٠ - ١٩٠٠ ق.م) على وجه التقريب، وكان بين مهلك عاد وثمود خمس مائة عام^(٢).

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنكة، دار القلم، ٢٠٢١م، ص ٥١٩.

كما أَنَّ ثَمُودَ عاشوا وبادوا قبل زمن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مثل قوم عاد، قال الله تعالى: على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ (غافر: ٣٠، ٣١)؛ أي: حذر هذا الرجل المؤمن الصالح قومه - قوم فرعون - بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة فقال: يا قومي، إِنِّي أخشى عليكم إن كذبتُم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَن يصيبكم من العذاب مثلما أصاب الأقوام الذين خالفوا أنبياءهم وكذبوا رسله من الأمم الماضية، كقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم كقوم لوط، فقد حلَّ بهم بأس الله، ولم يجدوا لهم ناصراً ينصرهم ولا عاصماً يحميهم، وهذا الهلاك الذي حلَّ بهم إِنما هو نتيجة ذنوبهم وتكذيبهم، ومخالفتهم رسله وما الله بظالم لعباده^(١).

سادساً: حضارة ثمود:

إِنَّ قوم ثمود هم خلفاء (عاد) في الحضارة والعمران، واتخاذ السهول قصوراً والجبال بيوتاً، وآثارهم تشهد على حضارتهم الماديّة. وذكر المفسّرون أَنّهم أوّل من نحت الجبال والصخور، وبنوا مئات من المدن كما تشهد آثارهم على ذكائهم، وشدّة الحذق في بناء بيوتهم داخل الجبال، وتدلّنا النقوش التي كانت على الصخور على مكانة صاحب المغارة بين قومه، فبعضها منقوش بدقّة، وبدرجة عالية من الفنّ والزينة، والبعض الآخر منقوش بشكل مبسّط، وهذه الجبال المنفصلة عن بعضها بشكل هندسيّ رائع، كلّ جبل منها منحوت بنقوش مختلفة هو غاية الدقّة والإتقان والروعة. وكان الله قد أطال أعمارهم حتّى إن كان أحدهم يبني البيت من المدر فينهدم وهو حيّ، فلمّا رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتاً^(٢).

(١) أنبياء في القرآن تركوا آثاراً، هدى حسن، دار المعرفة للطباعة والنشر، ٢٠٠٦م، ص ٨٣.

(٢) الكامل، ابن الأثير (١/ ٨٩).

إنَّ قوم ثمود هم خلفاء عاد في القوَّة والصَّلابَة، وكانت أجسامهم مفرطة في الطول والعَظَم، ممَّا مكَّنهم من تقطيع الصخور ونحتها واتخاذها مساكن^(١).

وهذه البسطة في الأجسام، وفي طول الأعمار دفعتهم إلى الاستكبار في الأرض وتكذيب رسولهم صالح عَلَيْهِ السَّلَام مع الاستعلاء على الضعفاء منهم، فَعُرفوا بشراسة الطباع، وقسوة القلب خصوصاً بعدما كُثرت أموالهم واتَّسع سلطانهم، إذ كانت قبلهم قوم عاد، فأفسدوا في الأرض، وبطشوا بالناس، وجحدوا نعم الله التي أنعم بها عليهم.

وكان لثمود ملك عظيم اسمه (جندع بن عمرو)، وكان سيَّء الطباع، وقاسي القلب، فجاء إليه جماعة ممَّن أنجاهم الله من بقايا عاد، وراحوا يعظُّونه، ويذكرون له ما حلَّ بقومهم إثر كفرهم وطغيانهم وتجبرَّهم، وراحوا يصفون له غضب الله الذي حلَّ عليهم بعد دعوة نبيِّهم هود عَلَيْهِ السَّلَام؛ لأنَّهم رفضوا عبادة الله، وهم يظنُّون أنَّ جندع سيعتبر بمن سبقه، ويرتدع عن غيِّه وبطشه وجبروته، ولكنه قال لهم بصلف وغرور: إنَّما هلك قوم عاد؛ لأنَّهم لم يكونوا يُحسنون بناء البيوت كما نفعل نحن، ونحن نبني بيوتنا في الجبال، وننحتها في الصخور، ولذلك لا يمكن أن تُهلكنا الرياح مثلهم مهما كانت صريراً عاتية^(٢). وقد أشارت النقوش الثمودية إلى أبعاد حضارية لتلك الأمَّة الهالكة^(٣).

(١) تاريخ ابن خلدون، محمود عبده نور الدين (٢/ ٢٣)؛ أنبياء في القرآن تركوا آثاراً، ص ٨٥.

(٢) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٢٤).

(٣) تاريخ الأنبياء، د. محمود عبد نور الدين، ص ١١١.

سابعاً: دين أهل ثمود:

كانت ثمود تدين بعبادة الأصنام، يُشركونها مع الله في العبادة^(١). وعبدت ثمود الأصنام كعاد، وكان لهم ما يُقارب من أربعين صنماً^(٢)، ومنها (ود) و(جد) و(هد) و(شمس) و(مناة) و(اللات)، وغيرها^(٣).

فقد كانت ثمود أهل شرك وفساد، ومنهمكين في عبادة التماثيل والأحجار التي يصنعونها بأيديهم، ويقدّسونها، ويُقربون إليها الأضاحي والقرابين من دون الله تعالى، ومنهم مشركون عُتاة على نهج آبائهم وأجدادهم في عبادة الطاغوت، والابتعاد عن الحق المتجسّد في عدم الانفتاح على الهدى، والرشد، والصراط المستقيم، كما أنّهم أصحاب غيٍّ، وفساد في الأرض، وإسراف، وعتوّ، ويحكي القرآن الكريم عن ثمود بأنّها طاغية عاتية، ومتجاوزة في طغيانها كلّ الحدود وعلى جميع الصعد، إذ قال تعالى في ذلك: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ [الشمس: ١١]؛ وهذا ما يعكسه النصّ القرآنيّ، بأنّ طغيانهم كان شاملاً؛ عقائديّاً وسلوكيّاً، واجتماعيّاً، واقتصاديّاً، وسياسيّاً. ولقد عمّ طغيانهم، وفسادهم، واستشرى بين ظهرائهم على الصعيد العقديّ والأخلاقيّ والقيميّ والعادات والتقاليد الحاكمة البعيدة كلّ البعد عن شرع الله ومنهجه. وأشدّ أنواع الفساد هو العقديّ، وهو الأخطر والأكبر، فوقعوا في الكفر والشرك^(٤).

(١) الدعوة إلى الله في سورة هود، عبد الرحمن بن راجي بن رجاء العوفي، ١٩٩٢م، ص ٢٨٥.

(٢) أنبياء تركوا آثاراً، ص ٨٥.

(٣) أحسن القصص في القرآن الكريم، نائلة هاشم، دار النفائس، ٢٠٢٠م، ص ١١٦.

(٤) في رحاب قصص الأنبياء والرسل، عبود الراضي، دار الكتب العلمية، ٢٠١٧م (١/٤٢١).

وانظر: أنبياء القرآن، عبد المجيد همو، دار الحافظ، ٢٠٠٠م، ص ٦٢.

ثامناً: ذكر صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقوم ثمود في القرآن الكريم:

بعث الله تعالى نبيه صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قومه ثمود يدعوهم إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، وقد ذكر الله في القرآن قصة صالح مع ثمود في عدة سور، وأحياناً كان يذكر اسم صالح فقط، وأحياناً يذكر اسم ثمود فقط، وأحياناً يُذكر بعض اللقطات من القصة.

وردت كلمة صالح في القرآن علماً على نبي الله المبعوث إلى ثمود، واسماً له: تسع مرات؛

صالح، مرفوعة: ثلاث مرّات.

صالحاً، منصوبة: خمس مرّات.

صالح، مجرورة: مرة واحدة.

ووردت كلمة ثمود في القرآن، على الحالات الثلاثة: رفعاً ونصباً وجراً، ستّ وعشرون مرّة، ولا ننسى أنّ (ثمود) تكون مجرورة بالفتحة، لأنّها ممنوعة من الصرف:

ثمود: مرفوعة: تسع مرّات.

ثمود: منصوبة: ستّ مرّات.

ثمود: مجرورة بالفتحة: إحدى عشرة مرّة.

ووردت قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ثمود في عدة سور، وكان الكلام عنها في القرآن على عدة صور، فأحياناً يعرض مشاهد مطوّلة من القصة، وأحياناً يكتفي بتسجيل إشارات خاطفة، وأحياناً لا يذكر إلا اسم صالح أو اسم ثمود، من ضمن أنبياء آخرين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أو أقوام سابقين^(١).



(١) القصص القرآني (١/٢٦٦).



المبحث الثاني

قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الأعراف، وهود،
والحجر، والشعراء، والنمل، والقمر، والشمس

أولاً: قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الأعراف

ثانياً: قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة هود

ثالثاً: قصة قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الحجر

رابعاً: قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الشعراء

خامساً: قصة صالح في سورة النمل

سادساً: قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة القمر

سابعاً: قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الشمس

ثامناً: السُّور التي فيها إشارات سريعة لقصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ثمود

تاسعاً: ذكر ثمود مع الأمم الهالكة في القرآن الكريم

أولاً: قصة صالح عليه السلام في سورة الأعراف:

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا الْآيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ أُنْتَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثَمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ التَّصْحِيحَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٩].

جاءت قصة صالح عليه السلام في سورة الأعراف، وهي من السور المكيّة الطويلة، وهي أول سورة عرّضت تفاصيل قصص الأنبياء والمرسلين عليهم السلام. ومهمتها -كمهمة السور المكيّة- تقرير أصول الدعوة الإسلامية من توحيد الله وتقرير البعث والوحي والرسالة^(١).

وتناولت السورة الكريمة قصص الأنبياء بإسهاب آدم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى (عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام)^(٢)، لأغراض عدة،

(١) مقاصد القرآن الكريم ومحتوياته، عبد الله التليدي، دار الأمان، الرباط، ص ٧٢.

(٢) المصدر السابق نفسه.

منها: تسليّة قلب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وضرب المثل للمسلمين في صبر مَنْ قبلهم من الأنبياء والمؤمنين، والتطرّق إلى الصراع الأزليّ بين الحقّ والباطل من خلال استعراض قصص الأنبياء مع أقوامهم^(١).

وقصّة صالح عَلَيْهِ السَّلَام في سورة الأعراف صفحة من صحائف قصّة البشريّة، وهي تمضي في خضمّ التاريخ، وحلقة من حلقات موكب الإيمان الذي تصدره الأنبياء والمرسلون عَلَيْهِمُ السَّلَام، وأصبحوا أعلامه، وبيّنوا معالم طريقه، وهو يواجه البشريّة في رحلتها الطويلة على هذا الكوكب الأرضيّ؛ يواجهها كلّما ضلت بها الطرق، وكلّما انحرفت عن صراط الله المستقيم، وكلّما تفرّقت بها السبل، وذلك تحت ضغط الشهوات التي يقودها الشيطان، محاولاً أن يرضي حقه، وأن ينفذ وعيده، وأن يمضي ببني آدم من خضمّ هذا الشهوات إلى جهنّم، فإذا الموكب الكريم يواجه البشريّة بالهدى، ويلوّح لها بالنور، ويستروح بها روح الجنة، ويحذّرها نفحات السموم، ونزغات الشيطان الرجيم عدوّها القديم. وهذا إنّه لمشهد رائع، مشهد الصراع العميق، في خضمّ الحياة على طول الطريق.

إنّ التاريخ البشريّ يمضي في تشابك معقّد كل التعقيد، وإنّ هذا الكائن مزدوج الطبيعة، معقّد التركيب الذي يتألّف كيانه من أبعد عنصريّن يؤلّف بينهما قدرة الله وقدره؛ عنصر الطين الذي نشأ منه، وعنصر النفخة من روح الله، التي جعلت من هذا الطين إنساناً.

إنّ هذا الكائن ليمضي في تاريخه مع عوامل متشابكة كلّ التشابك، ومعقّدة كلّ التعقيد، ويمضي بطبيعته هذه يتعامل مع تلك الآفاق والعوالم التي أسلفنا

(١) مقاصد سور القرآن الكريم، منذر محمد، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ٢٠٢١، ص ٥٠.

في قصّة آدم الحديث عنها، بتعامل مع الحقيقة الإلهية: مشيئتها وقدرها، وقدرتها وجبروتها، ورحمتها وفضلها... إلخ.

ويتعامل مع الملائة الأعلى، وملائكته، ويتعامل مع إبليس وأتباعه، ويتعامل الكون المشهود ونواميسه، وسنن الله فيه، ويتعامل مع الأحياء في هذه الأرض، ويتعامل مع بعضه البعض، ويتعامل مع هذه الآفاق، وهذه العوامل بطبيعته تلك، وباستعداداته المتوافقة والمتعارضة مع هذه الآفاق والعوامل.

وفي هذا الخِصْم المتشابك من العلاقات والروابط، يجري تاريخه، ومن القوة في كيانه والضعف، ومن التقوى والهدى، ومن الالتقاء بعالم الغيب وعالم الشهود، ومن التعامل مع قدرة الله في النهاية؛ من هذا كله يتكوّن تاريخه، وفي ضوء هذا التعقيد الشديد يُفسّر تاريخه^(١).

وهذا موكب الإيمان الذي رفع أعلامه رُسل الله الكرام: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، ومحمّد (صلوات الله عليهم جميعاً)، في هذه السورة نشهد كيف يحاول هذا الرهط الكريم -بتوجيه الله وتعليمه- إنقاذ الركب البشريّ من الهاوية التي يقودها إليها الشيطان، وأعوانه من شياطين الإنس المستكبرين عن الحقّ في كلّ زمان، كما نشهد مواقف الصراع بين الهدى والضلال، وبين الحق والباطل، وبين الرسل الكرام وشياطين الجنّ والإنس، ثمّ نشهد مصارع المكذّبين في نهاية كلّ مرحلة، ونجاة المؤمنين بعد الإنذار والتذكير^(٢). وإليك تفسير هذه الآيات من سورة الأعراف المتعلّق بقصّة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ:

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، الطبعة الشرعية الثامنة والعشرون، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م (٣/ ١٣٠٣).

(٢) المصدر السابق (٣/ ١٣٠٤).

١ - قال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ٧٣].

أ- ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾:

أي: أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً، و(أخاهم) موقعها الأعرابي مفعول به. وكلمة (أخاهم) تُشعر بأشياء كثيرة، أي إنه من جنسهم، ولغته لغتهم، وأنسهم به، ويعرفون كل شيء، وكل تاريخ عنه، وكل ذلك إشارات تُعطي الأنس بالرسول، فلم يأت لهم برسول أجنبي عاش بعيداً عنهم حتى لا يقولوا: لقد جاء ليضع لنفسه سيادة علينا، بل جاء لهم بواحد منهم، وأرسل إليهم أخاهم، سواء كان المقصود أخوة في الأب القريب، أو أخوة في الأب البعيد، أي: من جنسكم من آدم^(١).

فقد نشأ صالح عَلَيْهِ السَّلَام بينهم، فهم يعرفون صدقه، ويعرفون استقامته، ويعرفون نظافته، ويعرفون إخلاصه، ويعرفون تميزه، إنه لا يبتغي منهم شيئاً من الدنيا^(٢).

وهذه الأخوة في أصلها إخوة نسب، لا إخوة دين. وقيل هي أخوة المجانسة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقيل: هو من قول العرب: يا أخا بني تميم، يريدون أي واحد منهم، فالأخ يستعمل في معنى القريب من القبيلة ومنه قول الحماسية^(٣):

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مكتبة الأسرة، ١٩٩٢م (٧/٤٢٠٦).

(٢) تفسير النابلسي (٤/٥٦٦).

(٣) تفسير القرطبي (١٦/٥٠).

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا وإن الأخوة لغةً وشرعاً على درجات وطبقات، وأولها: الأخوة الإنسانية التي وُصف بها الأنبياء مع قومهم وقبائلهم:

- قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥].

- وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥].

- وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٢].

- وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٤].

- وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٦١].

وتكرّر ذلك في القرآن الكريم والسنة النبوية، وجاء في حديث الإسراء أنّ الأنبياء إخوة، وكانوا يقولون لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مرحباً بالنبّي الصالح والأخ الصالح^(١).

وأعلى درجات الأخوة، أخوة الإيمان، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المؤمن أخو المؤمن».

وهي التي تستحق كامل الحقوق وأعلى الدرجات، ولكن ذلك دفع بعض المتعصّبين والمتشدّدين إلى حصر الأخوة في هذه الدرجة، وأنكر استعمالها في الدرجات الأخرى مُخالفاً بذلك القرآن والسنة. واستعمال الأخ حسب النسب

(١) شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م، ص ٩٤.

والدرجات والقبائل والأعراف والأديان، وهو ما يجري عادة في جميع المناسبات وأحقاب التاريخ والمجاملة في لقاء الآخرين مهما كانت صفاتهم وأحوالهم، وهي من الكلمات اللطيفة والمحبة في الأدب والأخلاق والمعاملات طول الدهر^(١).

ب- ﴿قَالَ يَتْلُوا آيَاتِ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾:

فهي الكلمة التي لا تبدل، وهي عماد قاعدة هذه العقيدة التي لا توجد إلا بها، وهي عماد الحياة الإنسانية الذي لا تقوم على غيره، وهي ضمان وحدة الوجهة ووحدة الهدف ووحدة الرباط، وهي الكفيل بتحرير البشر من العبودية للهدى، والعبودية لأمثالهم من العبيد، وبالاستعلاء على الشهوات كلها، وعلى الوعد والوعيد.

إن دين الله منهج للحياة، قاعدته أن يكون السلطان كله في حياة البشر لله وحده لا شريك له، وهذا هو معنى عبادة الله وحده، ومعنى ألا يكون للناس إله غيره. والسلطان يتمثل في الاعتقاد بربوبيته لهذا الوجود، وإنشائه، وتدبير أمره بقدرته الله وقدره، كما يتمثل في الاعتقاد بربوبيته للإنسان وإنشائه وتدبير أمره بقدرته الله وقدره، وعلى نفس المستوى، يتمثل في الاعتقاد بربوبية الله لهذا الإنسان في حياته العلمية الواقعية، وقيامها على شريعته وأمره، تمثله في التقدم بشعائر العبادة له وحده، كلها حزمة واحدة، غير قابلة للتجزئة، وإلا فهو الشرك، وهو عبادة غير الله معه أو من دونه^(٢).

(١) نوح عَلَيْهِ السَّلَام والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية، علي محمد محمد الصلابي، دار

ابن كثير، ٢٠١٩م، ص ٢٠٣.

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ٣٠٨).

فهذا النداء وجَّهه كلُّ رسول إلى قومه، هكذا ذكر القرآن الكريم عن نوح وهود وصالح وشعيب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وغيرهم، ولأهمية التوحيد ومنزلته في الديانات السماوية جميعاً، كان هو العنصر الأول في دعوات الرسل جميعاً^(١).

- ﴿قَالَ يٰٓقَوْمُ! تُوَدَّدُ إِلَيْهِمْ وَتَقَرَّبَ مِنْهُمْ وَتَرْفَقُ بِهِمْ: ﴿يٰٓقَوْمُ!﴾؛ فهو منهم، وأضافهم إلى نفسه، وهذا من حرصه عليهم، ورغبته في نجاتهم من عذاب الله والتزام أمره.

- ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾؛ إنَّها دعوة إلى الله وحده، وأن لا يجعلوا معه إلهاً آخر. قال الطبري: ليس بكم معبود يستحقُّ العبادة غيره، فأخلصوا له العبادة وأفردوه بالألوهية^(٢).

إنَّ صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا قومه إلى عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، وإفراده بالعبادة، وتحقيق التوحيد، ونبذ الشرك، بكافة أشكاله وأنواعه، فعندما انحرفت الإنسانية في عقيدتها بعد هود عَلَيْهِ السَّلَامُ شاءت رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أن يرسل صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ مبشراً بالحق، وداعياً إلى الإيمان بالله تعالى.

وتضعنا النصوص الصحيحة، والأخبار أمام هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو رجل مخلص صادق، وشجاع، ومُكتمل، أرسله الله لهداية قومه، ويكون الرسل من أشرف القوم والأسر، ولقد سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان بن حرب عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائلاً: كيف هو فيكم؟ فردَّ أبو سفيان قائلاً: هو فينا ذو حسب، فقال هرقل: وكذلك الرسل تُبعث في أحساب قومها^(٣).

(١) موسوعة الأعمال الكاملة، يوسف القرضاوي (٨ / ١١١).

(٢) أنبياء في القرآن تركوا آثاراً، ص ٤٦.

(٣) نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والطوفان العظيم، الصلابي، ص ١٨١.

وَيُعَلِّلُ ابْنُ خَلْدُونٍ فِي تَارِيخِهِ بِأَنَّ سَنَةَ اللَّهِ فِي بَعَثِ الرِّسْلِ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهِمْ، بِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا لِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ لِلرِّسْلِ أَسْرَةُ ذَاتِ شَوْكَةٍ، وَمَنْعَةٍ، تَحْمِيهِ مِنْ أَذَى الْكَفَّارِ حَتَّى يُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَيَتِمَّ مَرَادُ اللَّهِ فِي إِكْمَالِ دِينِهِ وَمِلَّتِهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي حَدِيثٍ صَحِيحٍ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنْعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ»^(١).

وَمِنْ هَذِهِ السَّنَةِ الْإِلَهِيَّةِ نَوْقُنَ أَنَّ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مِنْ أَسْرَةِ ذَاتِ مَكَانَةٍ وَشَرَفٍ وَمَنْعَةٍ.

وَأَمَّا مِنْ نَاحِيَةِ الْإِعْدَادِ التَّرْبَوِيِّ، فَإِنَّ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ بَدْعًا مِنَ الرِّسْلِ الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِرِسَالَتِهِ وَتَعَهَّدَ بِتَرْبِيَّتِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى تَبْلِيغِ رِسَالَةِ رَبِّهِمْ، فَقَدْ تَوَفَّرَتْ فِيهِ صِفَاتُ الْأَنْبِيَاءِ وَعِلَامَاتِهِمْ مِنْ خَلْقٍ كَرِيمٍ، وَحُبٍّ لِلْخَيْرِ، وَمُجَانِبَةِ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ، فَلَمَّا انْتَهَى إِعْدَادُ اللَّهِ لَهُ إِلَى غَايَتِهِ فَاجَأَهُ الْوَحْيُ وَتِلْكَ أَيْضًا سَنَةُ اللَّهِ فِي أَنْبِيَائِهِ، فَإِنَّهُ حِينَمَا تُصْبِحُ نَفُوسُهُمْ -بِتَرْبِيَةِ اللَّهِ وَعِنَايَتِهِ- أَهْلًا لِلتَّلَقِّيِّ عَنْهُ يُفَاجِئُهَا الْوَحْيُ، وَهَذَا مَا حَدَّثَ لَصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَلَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَمَا عَمَّ الْفَسَادُ لِيُشِيرَ بِالْخَيْرِ وَالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَبَدَأَ سَيِّدُنَا صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالتَّوْحِيدِ، وَهُوَ جَوْهَرُ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّةِ جَمِيعًا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُوَكِّدُ لِسَيِّدُنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ قَائِلًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِيْ اِلَيْهِ اِنَّهُ لَا اِلَهَ اِلَّا اَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وَالتَّوْحِيدُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرِّسْلُ عَنَوَانٌ يُعَبِّرُ عَنْ حَقِيقَتِهِ فِي كَلِمَةٍ مُوجِزَةٍ، هَذَا الْعَنَوَانُ هُوَ كَلِمَةُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) الَّتِي تُسَمَّى (كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ) أَوْ (كَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ) أَوْ (كَلِمَةُ التَّقْوَى).

(١) فِي رِحَابِ الْكَوْنِ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرِّسْلِ، عَبْدِ الْحَكِيمِ مَحْمُودٍ، ص ٦٥.

وهذه الكلمة العظيمة تتضمن نفى الإلهية عن كل ما سوى الله وإثباتها لله وحده، فهو وحده الإله الحق، ومما عداه ممّا عبد الناس في مختلف العصور فآلهة زائفة باطلة صنعتها الجهالة والأوهام كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

فالإله هو المعبود بحق -أي المحبوب المُطاع، الذي يستحق أن يُعبد- وذلك لما اتّصف به من صفات الكمال، التي تقتضي أن يُخصّ بنهاية الحبّ ونهاية الخضوع، وهما بمعنى العبادة فإنّ الإله -كما قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ-: هو الذي تأله القلوب بحبّها، وتخضع له، وتذلّ له، وتخافه وترجوه، وتنبإ إليه في شدائدها، وتدعوه في مُهمّاتها، وتتوكّل عليه في مصالحها، وتلجأ إليه وتطمئنّ بذكره وتسكن إلى حبه، وليس ذلك إلّا لله وحده^(١).

ولهذا كانت (لا إله إلّا الله) أصدق الكلام وأفضله، وكانت رأس الأمر وأحسن الحسنات. جاء في الحديث الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٢).

والمعنى الحقيقي للتوحيد هو: علم العبد واعتقاده واعترافه بتفرد الربّ بكل صفة كمال واعتقاد أنّه لا شريك له، ولا مثيل له في كماله، وأنّه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وإفراده بالعبادة^(٣).

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، مكتبة الرشد، ٢٠٠٦م (٢/٣٨٧).

(٢) رواه الطبراني في الدعاء، معجم شيوخ الطبري الذين روى عنهم في كتبه المسندة المطبوعة، أكرم بن محمد زيادة الفالوجي الأثري، الدار الأثرية، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، رقم (٨٧٤).

(٣) طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول، عبد الرحمن السعدي، دار البصيرة، الاسكندرية، ٢٠٠٠م، ص ١٠٣.

فالله لا يكون له شريك في ذاته ولا في صفاته، وكذا في عبادته، ومعاملته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا التعريف مستند على الدلالة الواضحة لمعنى (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)؛ إذ إنها تدلُّ بالمطابقة على تفرُّده في الألوهية فلا تُصرف العبادة إلَّا له، وبالاتزام على تفرُّده في الربوبية، كما تدلُّ على اتصافه عَزَّجَلَّ بكافة صفات الكمال والجلال بالتَّضَمُّن^(١). فهي الكلمة المفسَّرة للتوحيد من ناحية العلم، ومن ناحية العمل^(٢).

وإن المعنى الحقيقي لتوحيد الله: هو الاعتقاد اليقيني أنَّ كل ما في الكون من خلقٍ ورزقٍ، عطاء ومنع، وحياة وموت، وغنى وفقر، وقوة وضعف، وعزٍّ وذلٍّ، مرده إلى الله سبحانه، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى متفرّد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة وسائر أنواع التصريف والتدبير لملكوت السماوات والأرض، ويجب إفراده بالحكم والتشريع، فهو الذي أرسل الرُّسل وأنزل الكتب، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يدعو -كما أمر وغيره من الأنبياء الكرام بذلك- إلى إفراد الله وحده بالعبادة ولا يُعبد غيره، ولا يُدعى سواه، ولا يُستعان ولا يُستغاث إلَّا به، ولا يُنذر ولا يُذبح إلَّا له، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٣٢] لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وفي قصَّة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ الدعوة إلى أن أعظم ما يحتاجه العبد، وهو معرفة أسماء الله، ليحمده ويُمجِّده ويُثني عليه، ويسأله المغفرة والرحمة ويتوب إليه، وهذا ما سنقف عليه في محله عند الحديث عن صالح في محله عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبد الرحمن حبنكة الميداني، تحقيق: حسين مؤنس، دار القلم، دمشق، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ص ٢٧.

(٢) تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، فوز بنت عبد اللطيف الكردي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الحادي عشر، ١٤٢١هـ، ص ١٠٤.

إِنَّ الإنسان إذا آمَن بالتوحيد لن ينظر إلى غير الله، فيكون خوفه منه، ورجاؤه فيه، وثقته به، واتكاله عليه، وإذا أيقن ووجد الله، رأى أَنَّ كل ما سوى الله مُسَخَّرٌ لله، وإذا اعتقد التوحيد تحرَّر من ذلَّ العبودية لغير الله، لأنَّ كل مخلوق مُسَخَّرٌ لله، وتكتاف آيات وأحاديث الرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على دعوة الإنسانية إلى التوحيد حتَّى تتحرَّر من رقِّ العبودية^(١).

ولقد بشر سيِّدنا صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتوحيد، وبشر بالتوحيد جميع الرُّسل، وإذا فهم التوحيد حقيقته، واتخذته الإنسانية شعاراً لها يكون علاجاً لكثير من ألوان العنف في المجتمعات، فالإنسانية في مختلف أزماتها وأمكنتها تخاف الموت، وتخشاه، فتنقاد إلى استعباد الأقوياء، والذلة أمام الطغاة، ولكن هذا الوضع لا يتماشى قطَّ مع عقيدة التوحيد، فإنَّ مالك الملك إنما هو وحده الذي يملك الموت والحياة؛ إنَّه يملك إمارة الطغاة أو تركهم لحكمة يعلمها سبحانه، وهو الذي قدَّر الآجال وحدَّدها، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون^(٢).

إِنَّ المتأمل في قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته لقومه يرى عِظَمَ هذا النبي في قيامه بأداء مهمّة التبليغ لقومه، ودعوته إياهم لعبادة الله تعالى وحده، حيث مكث في قومه متحملاً الأذى والعناد والجحود لعلَّهم يستجيبون إلى دعوته.

وكانت دعوة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ التي دعا قومه إليها هي دعوة التوحيد الخالص، وتحقيق عبودية الله تعالى، وترك عبادة الأصنام: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥].

(١) قصص الأنبياء، مصطفى العدوي، مكتبة مكة، طنطا، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م، ص ٦٨.

(٢) نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والطوفان العظيم، ص ١١٠.

ج- ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ۖ﴾:

- ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ ۖ﴾؛ وهنا البَيِّنَةُ هي الدليل على الصدق في البلاغ عن الله^(١).

- ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ۖ﴾؛ جعل الله مع صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ آيةً بَيِّنَةً، ومعجزة واضحة، قد قَدَّمَهَا لقومه، دليلاً على نبوته، وهذه الآية هي الناقة، وكانت ناقة خاصة في خلقها، وصفاتها ليست كباقي (النِّياق) التي عندهم. وقَدِّمت لنا بعض آيات القرآن الكريم بعض صفات هذه النَّاقَةِ.

أمَّا خلق الناقة، وكيفية خلقها، فلم تُخبرنا الآيات عن ذلك، ولا يوجد أحاديث صحيحة توضِّح ذلك^(٢)، وإن كانت بعض كتب التفسير والتاريخ قد ذكرت قصصاً في ذلك لم تصل لدرجة الصحة، وتقول بعض الروايات: حين قام سيِّدنا صالح بدعوته، تحدَّاه السادة من قومه، وقالوا: نقف نحن وأنت، نستنجد، نحن بآلهتنا، وأنت بإلهك، وإن غلبت آلهتنا تتبعنا، وإن غلب إلهك نتبعك، وجلسوا يدعون آلهتهم، فلم يحدث شيء من تلك الآلهة، فقالوا لسيِّدنا صالح: إن كنت صادقاً في دعوتك، فهذه صخرة منفردة أمامك في الجبل اسمها (الكاتبة)، فليُخرج ربُّك لنا من هذه الصخرة ناقة هي عشراء كالْبخت - أحسن أنواع الإبل - فدعا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وانشَقَّت الصخرة عن الناقة، وخروج الناقة من الصخرة لا يدع مجالاً من الشك في أنَّها آية من الله ظهرت أمامهم.

(١) تفسير الشعراوي (٧/٤٢١٧).

(٢) القصص القرآني (١/٢٧٩).

إنَّهَا الْبَيْتَةُ الْوَاضِحَةُ، حيث انشَقَّت الصخرة عن الناقة، ووجدوها ناقة عشراء وبراء -أي كثيرة الوبر- يتحرَّك جنينها بين جنبَيْها، ثم أخذها المخاض، فولدت فصيلاً، وهكذا تتأكَّد الآية الإلهية، دون أن يجراً أحداً على التشكيك فيها، وهي ناقة من الله، وهو القائل^(١): ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾؛ وأضيفت الناقة إلى الله، وهي إضافة تشريف وتكريم للناقة، لأنَّها خاصة في خلقها ووجودها بينهم، وليست الإضافة لتخصيص التملك، بمعنى أنَّ الله يملك هذه الناقة وحدها، كما يملك أحدهم ناقته، ولا يملك ناقة غيره، لأنَّ كلَّ الكون وما فيه من المالكين والمملوكين ملك لله وحده^(٢).

وقد كان شرب الناقة للماء شرباً خاصاً مُعْجِزاً، وقد أشارت له آيات، قال تعالى: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ۝ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥، ١٥٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَأَرْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ۝﴾ [٢٧] وَبَيَّنَّهٗمُ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّخْتَصِرٌ ﴿ [القمر: ٢٧، ٢٨].

لقد كان ماء ثمود قسمة بينهم وبين الناقة، حيث يشربون هم ماء العين يوماً، وتشرب الناقة وحدها ماء العين كلّ يوماً آخر، وهكذا يكون شرب ماء العين بالتناوب بينهم وبين الناقة، كلّ له شرب يوم معلوم محدّد، وكلّ يحضر ليشرب العين في يومه، وإذا كان يوم شرب الناقة، فعليهم أن يُخلَّوا بينها وبين شرب العين ولا يمنعوها من ذلك، ولا يمسّوها بسوء^(٣).

(١) تفسير الشعراوي (٧/ ٤٢١٨).

(٢) القصص القرآني (١/ ٢٧٩).

(٣) المصدر السابق (١/ ٢٨٠).

د- ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾:

قال الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره للآية الكريمة: ومثله في سورة الشعراء إلا أنه وصف العذاب بالعظيم فهو أليم وعظيم. وفي سورة (هود) وصف العذاب بالقرب، وهو أنه يقع بعد ثلاثة أيام من مسهم إياها بسوء وكذلك كان، وفي سورة (القمر): ﴿وَنَبِّهَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّخْتَصِرٌ﴾ [القمر: ٢٨]؛ وفسره قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وقيل الوعيد على مسها بسوء. والشرب بكسر المعجمة: ما يشرب، وفي سورة الشمس: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا ۖ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ۖ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۖ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۖ﴾ [الشمس: ١١-١٤]، إلخ، فدل مجموع الآيات على أن آية الله تعالى في الناقة ألا يتعرض لها أحد من القوم بسوء في نفسها، ولا في أكلها ولا في شربها، وأن ماء ثمود قسمة بينهم وبين الناقة إذ كان ماء قليلاً، فكانوا يشربونه يوماً وتشربه هي يوماً، وورد أنهم كانوا يستعيضون عن يومها بلبنها، روي هذا عن ابن عباس وقتادة^(١) قال: قد علمنا من سنة القرآن وأسانيه في قصص الأنبياء مع أقوامهم أن المراد بها العبرة والموعظة ببيان سنن الله تعالى في البشر وهداية الرسل (عليهم الصلاة والسلام)، لا حوادث الأمم وضوابط التاريخ مرتبة بحسب الزمان أو أنواع الأعمال. وقد حكي هنا عن صالح عليه السلام أنه ذكر الآية التي أيده الله تعالى بها عقب ذكر تبليغ الدعوة، وفي قصته من سورة (هود) أنه ذكر لهم الآية بعد ردّهم لدعوته، وتصريحهم بالشك

في صدقه، وزاد في سورة (الشعراء) طلبهم الآية منه، وكل ذلك صحيح ومراد، وهو المسنون المعتاد، ولا منافاة بين ذلك التفصيل وهذا الإجمال، والمروى أنّ هذه السورة (الأعراف) نزلت بعد تينك السورتين فتفصيلهما لإجمالها جاء على الأصل المألوف في كلام الناس، وإن كان غير ملتزم في القرآن، على أنّ ترتيب السور لم يُراع فيه ترتيب نزولها، والمعنى قد جاءكم آية عظيمة القدر، ظاهرة الدلالة على ما جئكم به من الحقّ، فتذكروا الآية للتعظيم والتضخيم.

وقوله ﴿مَنْ رَبِّكُمْ﴾؛ للإعلام بأنّها ليست من فعله، ولا ممّا ينالها كسبه عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكذلك سائر ما يؤيّد الله به الرسل من خوارق وعادات^(١).

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: دلالة على نبوّتي ورسالتني، وعلى أنّ الله قادر على كلّ شيء وأنّه وحده لا شريك له، فهذا هي ناقة الله، العظيمة الهائلة لكم دلالة على صدقي ها هي ناقة الله التي أخرجتها لكم^(٢).

قال بعض أهل العلم: إنّ هذه الناقة قيل عنها ناقة الله، لكونها جاءت من عند الله بغير طريق التوالد والتناسل المعلوم في أمر الإبل، ولكنّها خرجت من صخرة، وخرجت عظيمة هائلة لا كسائر النوق، والله أعلم.

إنّ صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ استدلّ بالناقة أيضاً على نبوّته، ورسالته، وصدقه في دعوته لهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولكنّ القوم همّوا بقتلها، فحدّثهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ من ذلك قائلاً: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾؛ اتركوها وشأنها ترعى في المراعي والجبال، فليس عليكم رزقها ومؤونتها ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾؛ أي: ولا

(١) المصدر السابق (٨/ ٥٠١-٥٠٢).

(٢) قصص الأنبياء (١/ ٢٧٠).

تقريبها بأذى في نفسها، ولا في أكلها ولا في شربها. والمتبادر من كلمة ﴿بِسُوءٍ﴾، أن الوعيد مُرتَّب على أي نوع من أنواع الإيذاء - جَلٍّ أو حَقْرٍ - لأنَّه نكرة بعد نهي^(١). وأنيط النهي بالمسّ والسوء، لأنَّ المسّ يصدق على أقلّ اتصال شيء بالجسم، فكلّ ما ينالها ممّا يُراد منه السوء فهو منهّي عنه، وذلك لأنَّ الحيوان لا يسوّؤه إلا ما فيه ألم لذاته، لأنَّه لا يفقه المعاني النفسية^(٢).

والباء في قوله ﴿بِسُوءٍ﴾، للملابسة، وهي في موضع الحال من فاعل ﴿تَمَسُّوْهَا﴾ أي: بقصد السوء^(٣).

- ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: فيحلّ بكم من الله عَزَّجَلَّ عذاب مؤلم موجه^(٤).

وقد جعل الله سلامة تلك الناقة علامة على سلامتهم من عذاب الاستئصال: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾؛ وإلاّ فهو النذير بسوء المصير^(٥).

هـ- ناقة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ من آيات الرسل:

إن آيات النبوة هي الأدلّة والبراهين على صدق الرسل فيما يدعون الناس إليه، ولأنّ الرسالة أمر خطير يترتب عليه صلاح البشر في معاشهم ومعادهم؛ كان من حقّ الناس أن يطالبوا من يدّعي الرسالة أن يثبت صدقه ويؤيّد دعوته. والبراهين على ذلك كثيرة، فحياة الرسول نفسه وسلوكه المستقيم، وسيرته الحسنة

(١) دعوة الرسل، محمد أحمد العدوي (١/١٨٣).

(٢) التحرير والتنوير (٤/٣٠٤).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) قصص الأنبياء، مصطفى العدوي (١/٤٧٢).

(٥) التحرير والتنوير (٤/٣٠٣).

بين قومه؛ آية على صدقه، وكونه لا يدّعي لنفسه شيئاً، ولا يسأل الناس أجراً، بل يدعو إلى الله لا شريك له، دليل على صدقه، وما يسمّيها القرآن آيات هي مصطلح علماء التوحيد على تسميته (المعجزات)، وهي التي تناولها بشيء من التفضيل فيما يلي:

• تعريف المعجزة:

عرّفها الدكتور القرضاوي رَحِمَهُ اللهُ بقوله: هي أمر خارق للعادة يُظهره الله على يد مدّعي النبوة على جهة التحديّ تصديقاً له في دعواه^(١).

ولقد عرّفها الدكتور صلاح الخالدي رَحِمَهُ اللهُ: والراجح في تعريف المعجزة في الاصطلاح هي الأمر الخارق للعادة، السالم من المعارضة، يجريه الله على يد النبيّ، تصديقاً له في دعوى النبوة.

• شروط المعجزة:

- أن تكون المعجزة خارقة للعادة، بأن تكون غير خاضعة للسنن الكونيّة، والأسباب الماديّة، والمقاييس البشريّة، وخارجة عمّا ألفه الناس وتعودوه في حياتهم.

وهذه المعجزة خارقة للعقل، بمعنى أنّها لا تتعارض مع المنطق العقليّ البشريّ بشرط أن يكون هذا العقل واعياً منفتحاً كبيراً، وليس صغيراً ضعيفاً مغلقاً^(٢).

(١) موسوعة الأعمال الكاملة (٨/ ٤٢٥).

(٢) إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمار، الأردن، ٢٠١٦م، ص ٢٢.

- أن تكون المعجزة من فعل الله، فالله هو الذي يجري المعجزة على يد النبي، وهو يختارها ويقدمها للنبي.

والنبي لا اختيار له، ولا قدرة له على إجرائها، فليست من فعله ولا اختياره، ودوره هو تقديمها للناس وإظهارها على يده مع تأكيده لهم أنها ليست منه وإنما من الله.

- أن تظهر المعجزة على يد النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن النبي هو الذي يُقدم نفسه لقومه باعتباره نبياً، فيُقدم الله له الدليل على نبوته، بالمعجزة التي يجريها على يديه. لا يجوز إطلاق (المعجزة) إلا على الآية الربانية، التي يجريها الله على يد النبي^(١).

أما إذا قدم الله لأحد عباده وأوليائه الصالحين خارقة من خوارق العادات، فإنها تُسمى (كرامة)، ولا تُسمى معجزة، فالمعجزة للنبي والكرامة للولي.

والأمور العجيبة من السحر والكهانة والحيل الشيطانية التي يقدمها بعض السحرة وجنود الشيطان ليست من هذا الباب، لأنها ليست من فعل الله، وليست تصديقاً من الله لصاحبها، وليست دليلاً على رضاه عنه.

- أن تكون المعجزة سالمة من المعارضة بحيث يعجز أعداء النبي عن معارضتها، ولا يقدرّون على نقضها، ولا يستطيعون الإتيان بمثله، لأن هذه المعجزة دليل من الله له، ولو تمكّن أعداؤه من معارضتها لفقدت معناها، ولم تصلح دليلاً على صدقه.

- أن تكون المعجزة بعد دعوى النبوة، فبعد أن يبعث الله النبي ويُقدم نفسه لقومه على أنه نبي من عند الله، يُجري الله على يده المعجزة تصديقاً له، فإذا وقعت

(١) المصدر السابق، ص ٢٣.

(الخارقة) قبل النبوة لا تسمى معجزة، وإنما تُسمى (إرهاصاً)، مثل كلام عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو في المهد، ومثل تسليم الحجر في مكة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل بعثته^(١).

واعتبر بعض العلماء التحدي شرطاً في المعجزة، ولذلك قالوا في تعريفها: هي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي، السالم من المعارضة.

والمقصود بالتحدي أن يتحدى النبي بالمعجزة قومه الكافرين المكذبين له، ويطلب منهم معارضتها وإبطالها، أو الإثبات بمثلها، وهم سيعجزون عن ذلك لأنها من فعل الله^(٢).

قال الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي رَحِمَهُ اللَّهُ: إننا لا نوافق هؤلاء العلماء على كون التحدي شرطاً في المعجزة، واعتبار كل المعجزات مقرونة بالتحدي، واعتبار هذا التحدي قيداً من قيود التعريف لا نوافقهم على ذلك، لأن التحدي ليس موجوداً في المعجزات كلها.

إنَّ المعجزات - في موضوع التحدي - نوعان:

الأول: معجزات مقرونة بالتحدي، وهي المعجزات التي يُقدِّمها النبي للكفار المكذبين له، لتكون شاهداً له على صدق نبوته، وهو يطلب منهم نقضها ومعارضتها أو الإتيان بمثلها، ويتحداهم بأنهم لن يقدرُوا على ذلك من هذه المعجزات المقرونة بالتحدي، ومن هذه المعجزات:

- ناقة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤.

- وعصا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- وإحياء الميت على يد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- وإنزال القرآن على رسول الله محمد (عليهم الصلاة والسلام)^(١).

والثاني: معجزات ليس فيها تحدٍّ، وهي تلك المعجزات التي يوجهها النبي لاتباعه المؤمنين به، وبما أن أتباعه مؤمنون به، فلماذا يتحدثهم بها؟

من هذه المعجزات: العيون الاثنا عشر التي فجرها الله لبني إسرائيل من الحجر، بعد أن ضربه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعصاه، والمائدة التي أنزلها الله للحواريين، بعد دعاء عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتسبيح الحصى وتكثير الطعام، ونبع الماء الذي جرى لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مشهد ومسمع من الصحابة، من هذا نعلم أن التحدي ليس شرطاً في المعجزة^(٢).

و- كلمات قرآنية قريبة من معنى المعجزة:

لم ترد كلمة معجزة في القرآن ولا في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا في كلام الصحابة والتابعين.

ولعلَّ أول استخدام لمصطلح المعجزة والإعجاز كان بعد منتصف القرن الثالث الهجري، ومن كان في شكٍّ فليراجع كلمات القرآن والحديث وأقوال الصحابة والتابعين.

ورغم أن كلمة (المعجزة) لم ترد في القرآن، فقد وردت في القرآن كلمات قريبة من معناها، تدلُّ على ما تدلُّ عليه وتُطلق على ما قدّمه الرسل لأقوامهم

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥.

من حجج وبراهين، تدلّ على أن الله بعثهم لأقوامهم، وقد وردت كلمات متقاربة معها، قريبة من معناها، ومن الكلمات القرآنية المتقاربة مع معنى المعجزة:

• الآية: وهي العلامة الظاهرة التي تدلّ دلالة واضحة على الدعوى. وكثيراً ما أطلق القرآن على ما يُقدّمه النبي من خوارق وبراهين لقومه (آيات) لأنّها ظاهرة الدلالة على نبوّته، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]. ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

• البينة: هي الدلالة الواضحة على صدق النبي في دعوى النبوة، قال تعالى:

﴿وَإِلَّا تَشْكُرُوا أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْتَظِرُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]. ونشير إلى ورود كلمتين في هذه الآية الكريمة، هما: البينة والآية.

• البصيرة: هي الشيء الواضح الظاهر، الذي يُدركه القلب، وتُبصره العين، ويتفاعل معه الإنسان المتفتح، ويهتدي به للحق، قال تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصَرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]. لقد ورد في هذه الآية الكريمة كلمتان، هما: الآيات، مبصرة.

و(مُبْصَرَةً) بمعنى بصيرة، وليس المراد أن الناقة مبصرة بعينها، ترى وتُشاهد فيهما ما أمامها، فهذا أمر معروف، لأن الله لم يخلق الناقة عمياء، وإنّما خلقها مُبْصِرة بعينها، إنّما المراد أن الناقة بصيرة واضحة ودليل على نبوة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ،

وقال تعالى عن آيات القرآن: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

• البرهان: هو البيان الواضح والدليل الظاهر، الذي يُقنع العقل، ويؤثر في القلب، سمى الله آيتي موسى عَلَيْهِ السَّلَام - العصا واليد - برهائين، وذلك في قوله تعالى:

﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [القصص: ٣٢].

وسمى الله القرآن برهاناً، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

• السلطان: هو الأمر القوي، والبرهان الساطع الذي يتمكن من العقول، ويستلظ على القلوب فيقهرها، ويتحكم فيها ويهجم عليها بحجته ويجعلها خاضعة لمنطقه، قال تعالى عن المواجهة بين الأنبياء وأقوامهم الكافرين:

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١٠، ١١].

ولا يعني عدم ورود كلمتي (المعجزة) و(الإعجاز) في القرآن والسنة عدم جواز استخدامها على اعتبار أنَّهما (بدعة) ناشئة!

يجوز استخدامهما، فنقول: هذه معجزة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإعجاز القرآن مستمر حتى قيام الساعة.

يجوز ذلك للتقارب الكبير بين معنى المعجزة ومعاني الكلمات القرآنية، ولانطباق معانيها على معنى المعجزة، ومن المعلوم أنه (لا مشاحة في الاصطلاح) ومع جواز ذلك فإن الأولى استعمال المصطلح القرآني، لفضله وشرفه وإشراقه وحيويته، وتمام دلالته، فنقول: القرآن هو آية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والناقة آية صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأعطى الله رسله آياتٍ بَيِّنَاتٍ، صدّقهم بها^(١).

ز- وجوب الإيمان بالمعجزات:

- يجب على المؤمن الإيمان بمعجزات الأنبياء عموماً، لأن القرآن الكريم أخبرنا بوقوع الكثير من المعجزات على يد الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

- وعلينا أن نؤمن بأن الأنبياء لا يأتون بالمعجزات من عند أنفسهم، ولكن الله تعالى يكرمهم ويجريها على أيديهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

- مَنْ أنكر وقوع المعجزات، أو الآيات للأنبياء التي أثبتها القرآن فهو كافر، لأنه أنكر ما ثبت بنص القرآن الكريم، وهو كتاب لا ينطق إلا بالحق: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

ح- أنواع المعجزات:

والمعجزة نوعان: منها ما هو حسي، ومنها ما هو عقلي.

وقد كانت معجزات الرسل السابقين كلّها من النوع الأول، مثل: ناقة صالح، وعدم إحراق النار لإبراهيم الخليل، وعصا موسى، وإنفلاق البحر، وإبراء الأكمه

(١) إعجاز القرآن البياني، ص ٢٨.

والأبرص وإحياء الموتى على يد عيسى، ولنبيِّنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا النوع ما لا يقع تحت الحصر، كفوران الماء من بين أصابعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحنين الجذع إليه، وانشقاق القمر، وغير ذلك.

أما النوع الثاني: فهو القرآن الكريم، وتلك المعجزة العقلية الكبرى، والآية العلمية الأدبية الخالدة التي أيد الله بها رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أُمِّيٌّ وتحدى العرب - وهم أرباب الفصاحة وأئمة البلاغة، وفرسان الكلام - أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله مُفتريات كما يزعمون، أو بأقصر سورة من مثله، فعجزوا وانقطعوا وصدق قول الله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

٢- قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَاتِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]:

إن الآية الكريمة تُبَيِّنُ لنا تذكير صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه لهم، وأثر النعمة والتمكين في الأرض لثمود، كما نلمح طبيعة المكان الذي كانوا يعيشون فيه، فهو سهل وجبل، وقد كانوا يتخذون في السهول القصور، وينحتون في الجبال البيوت، فهي حضارة عمرانية واضحة المعالم في هذا النص القصير.

أ- ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾:

يُذَكِّرُهُمْ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ باستخلاف الله لهم من بعد عاد، وإن لم يكونوا في أرضهم ذاتها، ولكنهم يبدو أنهم كانوا أصحاب الحضارة العمرانية التالية

في التاريخ لحضارة عاد، وأن سلطانهم امتد خارج الحجر أيضاً، وبذلك صاروا خلفاء ممكنين في الأرض، محكمين فيها^(١).

ب- ﴿وَيَوَّكُنْ فِي الْأَرْضِ﴾:

أي: أنزلكم في الأرض منازل صالحة^(٢)، أي: جعل لكم مساكن صالحة فيها وأزواجاً^(٣).

ج- ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾:

يقول الراغب في مفرداته: السهل ضد الحزن وجمعه سهول، قال: ﴿مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ [الأعراف: ٧٤]، وأسهل: دخل في السهل، وكلمة سهولاً من الفرائد القرآنية: من أكثر الألفاظ دلالة على المراد بحروفها السهلة اللينة الرخوة التي تنم عن استواء هذه الأرض وانبساطها وانقيادها لهم، مما مكّنهم من بناء القصور فيها، كما أن معناها يومئ - من طرف خفي - إلى سهولة أحوالهم ويسر معيشتهم وكثرة أرزاقهم وأنهم كانوا يعيشون في رغد من العيش، كما قال تعالى: ﴿أَتَتَرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٤٨].

وهذا - لا شك - يكون ألصق بحياة من يعيشون في السهول، فالسهول مشهورة بخصوبة تربتها، وكثرة زرعها ما بين حدائق غناء وبساتين فيحاء، وزروع ناضرة، ونخيل باسقة مثمرة، وعيون كثيرة، وجداول رقراقة، ومن ثم بنوا القصور الكثيرة

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٣١٣).

(٢) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، دار الأماجد، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م (١١/ ٣٣٠).

(٣) تفسير الطبري (٨/ ٢٣١).

في كل موضع من تلك السهول المحفوفة بالجئات والعيون والزروع والنخيل كما هو مدلول ﴿من﴾ في قوله: ﴿من سُهولها﴾ لدى كثير من المفسرين.

ولذلك قيل: كانوا يسكنون السهول في الصف، والجبال في الشتاء، وهذا يدل على أنهم كانوا مُتَنَعِّمين مُتَرَفِّين^(١).

وتدل كلمة ﴿سُهولها﴾ على تميز هذه السهول بسمات وخصوصيات لا توجد في غيرها كما بيّن سلفاً. و(سهول) جمع تكسير للكثرة ممّا يدل على كثرتها وتنوعها واتساعها وامتلائها بالخيرات والنعم التي لا تُحصى كما حكاها القرآن عنهم، ممّا يدل على تفرّدهم بحضارة عمرانيّة زراعيّة رائعة. كما أنّ لفظ (سهول) أكثر التصاقاً وأشدّ اتصالاً بكلمة (القصور)، فإنّ القصور المبنية في الأرض السهلة تكون أمكن وأثبت وأروع وأفخم وأجمل^(٢).

وتشير كلمة ﴿من سُهولها﴾ إلى تفرّد موضعها فلم يرد في الذكر الحكيم عن قوم آخرين أنهم اتخذوا من السهول قصوراً، إلّا قوم صالح وهي خصيصة اختصّوا بها على غيرهم من الأمم، كما أثبتّها لهم القرآن في موضع واحد لم يتكرّر^(٣).

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان البخاري القنوجي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، ١٩٩٢م (٣/٣٦٠)؛ تفسير أبي السعود، أبو السعود محمد العمادي الحنفي، المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض، مطبعة السعادة، القاهرة (٣/٣٤٣)؛ وتفسير الواعدي (١/٤٠٠)؛ والتحرير والتنوير (٤/٣٠٥).

(٢) الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية، د. عبد الله عبد الغني سرحان، ص ٦١.

(٣) المصدر السابق نفسه.

د- ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾:

أي: تتخذون البيوت من الجبال، والنحت: الأخذ من الشيء لتجعله على صورة مخصوصة، كنحت النحيت والضم والبيت من خشب وحجر ونحوهما، ويكون في الأجسام الصلبة المحتملة لذلك، وقد يتجوز في غيرها^(١).

- ﴿الْجِبَالَ﴾؛ جمع جبل، وهو الأرض الناتئة على غيرها مرتفعة. والجبال: ضدّ السهول.

- ﴿بُيُوتًا﴾؛ والبيوت جمع بيت، وهو المكان المحدد المتخذ للسكن، سواء كان مبنياً من حجر، أم كان من أثواب الشعر أو صوف، وفعل النحت يتعلّق بالجبال لأنّ النحت يتعلّق بحجارة الجبال. وانتصب ﴿بُيُوتًا﴾ على الحال من الجبال، أي: صائرة بعد النحت بيوتاً، لأنّ الجبل لا يكون حاله حال البيوت وقت النحت، ولكن يصير بيوتاً من النحت. ومحلّ الامتنان هو أن جعل منازلهم قسمين:

- قسم صالح للبناء فيه.

- وقسم صالح لنحت البيوت، قيل: كانوا يسكنون في الصيف القصور، وفي الشتاء البيوت المنحوتة في الجبال^(٢).

ولقد جمعت الحضارة الثموديّة بين رفاهية العمران وفخامته، وبين إنشاء الحدائق وغرس الجنان^(٣).

(١) التدبر والبيان (١١/ ٣٣٠).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٣٠٥).

(٣) إعجاز القرآن الكريم في العمارة والعمران، يحيى وزيري، ص ٦٠.

هـ- ﴿فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾:

- ﴿فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ﴾؛ نعمه التي لا تُحصى^(١)، وما حولكم من الفضل والرزق والقوة^(٢). فتذكروا نعم الله عليكم، واشكروها له، بتوحيده، وإفراده بالعبادة، واستعمالها فيما فيه صلاحكم، ولا تستبدلوا الكفر بالشكر، فتعتوا في الأرض مفسدين^(٣).

فدعا صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه إلى تذكّر نعم الله المتتالية، النعمة تلو الأخرى من النعم العظيمة.

- ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ حذرهم، ونهاهم عن العتوّ، وهو أشدّ الفساد؛ أي: لا تتماذوا في الفساد بالقتل، والشرك والظلم في إهلاك الحرث والنسل^(٤)، ولا تخربوا الأرض بالفساد والمعاصي، فإنّ المعاصي تدع الديار العامرة بلاقع^(٥).

فالإعراض عن عبادة الله تعالى ودينه وشرعه، يؤدّي إلى نشر الفساد، فنعم الله كثيرة والأرض صالحة للعيش الكريم السعيد، فلا تفسدوها بموالاة الشيطان، واتباع الشهوات والملذات والأهواء^(٦).

(١) تفسير الشعراوي (٧/ ٤٢٢٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٧م (١/ ٧٦٠).

(٣) تفسير المنار (٨/ ٥٠٣-٥٠٤).

(٤) تفسير القرآن الثري الجامع، محمد الهلال، دار جوامع الكلم، الطبعة الأولى، ٢٠٢٢م (٤/ ١١٢).

(٥) تفسير السعدي (١/ ٧٦٢).

(٦) التفسير الموضوعي مجموعة باحثين، إشراف: مصطفى مسلم، كلية الدراسات العليا والبحث =

وفي تذكير صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه في الآية الكريمة: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ...﴾، حيث تحدّث العلماء عن تفسيرها، واستخرجوا منها فوائد ودروس ومواعظ وعبر كثيرة منها:

- قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: وبالجملّة، فالبنائات للقصور والحصون والدور وغيرها من الأبنية، إمّا أن تتخذ مساكن للحاجة إليها، والحاجات تتنوّع وتختلف، فهذا النوع من الأمور المباحة، وقد يتوصّل به بالنية الصالحة إلى خير. وإمّا أن تكون البنائات حصوناً واقية لشرور الأعداء وثغوراً تحفظ به البلاد ونحوها، ممّا ينفع المسلمين ويقيهم الشرّ، فهذا النوع يدخل في الجهاد في سبيل الله، وهو داخل في الأمر باتخاذ الحذر من الأعداء. وإمّا أن يكون للفخر والخيلاء، والبطش بعباد الله، وتبذير الأموال التي يتعيّن صرفها في الطرق النافعة، فهذا النوع هو المذموم الذي أنكره الله على عاد وغيرها^(١).

- وقال الشيخ الدكتور محمّد مصطفى الزحيلي رَحِمَهُ اللهُ: كان قوم ثمود امتداداً لقوم عاد، وكان الله تعالى قد منحهم القوّة والبسطة في الجسم والمال، فشيّدوا المدن، وأقاموا القصور والعمران، ونحتوا الجبال لتكون لهم حصوناً ليأمنوا غوائل الدهر، وفتحوا الطرقات، وغرسوا الحدائق وفجّروا خلالها العيون واعتقدوا أنّهم خالدون في هذه الحياة، وغفلوا عن الله تعالى، بل عبدوا الأصنام والأوثان، فأرسل الله تعالى إليهم نبيّهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ليُسدّد مسيرتهم، ويصحّح عقيدتهم، ويُرشدّهم إلى الطريق السويّ، فأبوا وأصرّوا على الكفر والعناد^(٢).

= العلمي بجامعة الشارقة، الإمارات، طبعة ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م (٣/ ٩٥).

(١) التدبر والبيان (١١/ ٣٣٣).

(٢) شرعة الله للأنبياء، ص ١١٨.

وأقاموا البناء والعمران، وظنّوا أنّهم خالدون فيها، وآمنون من غوائل الدهر، فلم يُنكر عليهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك، ولكن حذّرهم الغفلة، وأمرهم بعبادة الله تعالى. وهذا شرع الله تعالى - كما مرّ سابقاً في قوم عاد- في طلب البناء والعمران، ولكن لتبقى في مكانتها في الحياة، ولا تؤدّي لإنكار الله تعالى واليوم الآخر. وهذا ما دعا إليه الإسلام، ونقّذه المسلمون في حضارتهم، ولكنّ البشريّة في معظمها اليوم تسلك منهج عاد وثمود في البناء والانشغال في الدنيا، والتطاول في البنيان وهو ما يجب تجنّبه خشية الدمار والهلاك، والزلازل والأعاصير، وخسران الدنيا والآخرة^(١).

و- تحريم الإفساد في الأرض:

- ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ إنّ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ينهى قومه عن التماذي في الفساد، وهذا يُبيّن أنّ ظاهرة الفساد مشكلة اجتماعيّة وسياسيّة وفكريّة ثابتة متأصلة في المجتمعات الإنسانيّة قديماً وحديثاً^(٢).

- والفساد في اللغة: نقيض الصلاح، والمفسدة خلاف المصلحة، والاستفساد خلاف الاستصلاح^(٣).

وقال الراغب الأصفهاني: الفساد خروج الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج أو كثيراً، ويُضادّه الصلاح ويُستعمل ذلك في النفس والدين^(٤).

(١) المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٢) المنهاج القرآني في مواجهة الفساد، محمد سلطان، دار روزا، ٢٠١٧م، ص ٤٢.

(٣) لسان العرب، محمد مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت (٣/ ٣٣٥).

(٤) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم للطباعة والنشر، ٢٠٢٢م (١/ ٦٣٦).

وعرّف الكفويّ الفسادَ قائلاً: إِنَّهُ أَعَمُّ مِنَ الظُّلْمِ؛ لِأَنَّ الظُّلْمَ: النِّقْصَ، فَإِنَّ مِنْ سَرَقَ مَالَ الْغَيْرِ فَقَدْ نَقَصَ حَقَّ الْغَيْرِ، وَالْفَسَادُ يَقَعُ عَلَى ذَلِكَ وَعَلَى الْإِبْتِدَاعِ وَاللَّهُوِ وَاللَّعِبِ^(١).

ومن أهمّ المعاني اللغويّة المستخلّفة للفساد المجرّد هي:

– نقيض الصّلاح أو الاستصلاح.

– أخذ المال ظلماً.

– خروج الشيء عن الاعتدال قليلاً كان ذلك أم كثيراً.

– أنّه عام يشمل اللهو والابتداع واللعب.

– أنّه شامل لقطع الأرحام.

– أنّه يقع في النفس والبدن^(٢)، وغير ذلك من المعاني.

وقد عرّف علماء التفسير الإفسادَ، فقال الطبريّ رَحِمَهُ اللهُ: "الإفساد في الأرض، العمل فيها بما نهى الله جلّ ثناؤه عنه، وتضييع ما أمر الله بحفظه، فذلك جملة الإفساد"^(٣).

ويعني بما نهى الله عنه: ارتكاب المعاصي، وتضييع ما أمر الله بحفظه، وترك الفرائض والحدود، ونحوها ممّا يترتب على تضييعه فساد وإفساد^(٤). أمّا ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ فقال: الفساد: الكفر والعمل بالمعصية^(٥).

(١) الكليات معجم من المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب الكفوي، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٧م، ص ٦٨٢.

(٢) المنهاج القرآني في مواجهة الفساد المالي، ص ٤٨.

(٣) تفسير الطبريّ (١/ ٢٨٩).

(٤) المنهاج القرآني في مواجهة الفساد، ص ٤٩.

(٥) تفسير ابن كثير (١/ ٩١).

إِنَّ صَالِحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حارب الفساد العقدي والاجتماعي والسياسي، وكل أشكاله، وأنواعه من الشرك، أو الأذية للخلق، فرسالة الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في الأرض، تحارب الفساد، وتتصدى له، وتعمل على تقليصه، وتخلص الناس منه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

استمرَّ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعوته، واستجاب له فئة قليلة من عامة قومه، وأبى أكثرهم، وانضمُّوا إلى الأعيان والوجهاء (الملا)، وتعرَّض المؤمنون للأذى والسخرية. وعرضت لنا الآيات مشهداً من مشاهد المواجهة بين الفئة الضعيفة المؤمنة، وبين زعماء الكفر والضلال ومن وقف معهم^(١).

٣- قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ ۝٧٥ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِءُ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

تفسير الآية الكريمة:

فقد آمنت طائفة من قوم صالح، واستكبرت طائفة:

أ- ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾:

الملا: هم السادة والأشراف الأعيان الذين يملؤون العين هيبة والقلوب مهابة^(٢). والملا: هم آخر من يؤمن بدعوة تجرّدهم من السلطان في الأرض، وتردّهم

(١) التفسير الموضوعي (٣/ ٩٥).

(٢) تفسير الشعراوي (٧/ ٤٢٢١).

إلى إله واحد: هو رب العالمين. ولا بدّ أن يُحاولوا فتنّة المؤمنين الذين خلعوا ربة الطاغوت من أعناقهم بعبوديتهم لله وحده وتحرّروا بذلك من العبوديّة للعبيد^(١).

- ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾؛ السين والتاء: تدلّان على الطلب، أي: هم ليسوا أهلاً، لكي يتكبروا، لأنّهم لا يملكون أسباب الكبر أو مؤهلات الكبر^(٢). ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾؛ أعطوا لأنفسهم كبراً، ليسوا أهلاً له. (والكبر): هو الشعور بالعظمة ورفع النفس فوق ما تستحق أو إظهار عظم الشأن. والكبر أو التكبر منها:

- الكبر على الله سبحانه، أو بآياته، وهو أعظم أبشع أنواع الكفر.
- الكبر على الرسل والأنبياء، كقول قوم ثمود لنبيهم صالح: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ﴾ [القمر: ٢٥].

• الكبر على الناس. والكبر أو التكبر صفة ذميمة، والمتكبر مذموم في الأرض والسماء، ومُعظم الآيات جاءت بصيغة استكبروا، استكبر، استكبرتم، تستكبرون، ويستكبرون، استكباراً. والقليل: يتكبرون، ومُتَكَبِّرِينَ، متكبر.

والفرق بين المستكبر، والمتكبر: الألف والسين والتاء: تُفيد الطلب، أي: المستكبر لا يملك، وليس عنده مؤهلات الكبر مثل السلطان، والغنى والجاه والعلم، والقوّة، والحكم، أي: هو يظهر من نفسه ما ليس فيه بأن يرفض عبادة الله وطاعته، أو لا يقبل الحقّ من أحد مثلاً.

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٣١٣).

(٢) تفسير القرآن الشري الجامع (٤/ ١١٢).

والاستكبار والتكبر غالباً يكون بغير الحق، وقليلًا ما يكون بالحق، مثل التكبر على العدو، أو لنصرة المظلوم. وأمّا المتكبر: فهو مَنْ حاز على بعض الصفات مثل الغنى، والسلطان، والحكم، والجاه، مثل فرعون وقارون، أو غيرهم من الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد وظلموا وبطشوا وتجبروا^(١).

وفي قصّة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وصف الملاً بالذين استكبروا في هذا الموضع لتفطيع كبرهم، وتعاضمهم على عامّة قومهم، واستدلالهم إيّاهم، ولتنبيهه على أنّ الذين آمنوا بما جاءهم به صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ هم ضعفاء قومه^(٢).

ب- ﴿لِّلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾:

أي: الذين استضعفوا هم عامّة الناس الذين أذلّهم عظماءهم، واستعبدوهم، لأنّ زعامة الذين استكبروا كانت قائمة على السيادة الدنيويّة الخالية من صفات الفضيلة؛ من العدل والرأفة وحب الإصلاح، فلذلك وُصف الملاً بالذين استكبروا، وأطلق على العامّة وصف الذين استضعفوا^(٣).

- ﴿اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾؛ هذا يدلّ على أنّ المستضعفين قسمان: قسم آمن، وقسم استمرّ في الكفر.

فهناك الذين استكبروا، وهناك الذين استضعفوا، منهم من آمن، ومنهم من بقي على حاله من الكفر. واللام: لام الاختصاص^(٤).

(١) المصدر السابق (١/١٧١).

(٢) التحوير والتنوير (٤/٣٠٦).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) تفسير القرآن الثري الجامع (٤/١١٢).

ج- ﴿اتَّعَلَّمُونَ أَنْ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾:

واضح أنه سؤال للتهديد والتخويف، ولاستنكار إيمانهم به، وللسخرية من تصديقهم له، في دعواه الرسالة من ربه. والاستفهام في ﴿اتَّعَلَّمُونَ﴾، للاستفهام والإنكار والتشكيك^(١).

أي: ما يظنكم آمنتكم بصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ عن علم بصدقه، ولكنكم اتبعتموه عن عمى وضلال غير موقنين به^(٢). ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافاً، لقد كسب الإيمان بالله القوة في قلوبهم، والثقة في نفوسهم والاطمئنان في منطقتهم.. إنهم على يقين من أمرهم، فماذا يعني التهديد والتخويف؟ وماذا تعني السخرية والاستنكار من الملائمة المستكبرين^(٣). ولذلك عدل المؤمنون عن الجواب بـ (نعم) إلى إعلان إيمانهم بدعوة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ على سبيل التحدي.

د- ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءُ مُّؤْمِنُونَ﴾:

فصدّق صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ واضح معلوم، والواجب المبادرة إلى الإيمان برسالته، وها نحن نواجهكم به، ولو كان يسوؤكم ويؤلمكم! عجباً للإيمان؛ ما أعظم تأثيره على النفوس والقلوب جعل الفئة المستضعفة المقهورة فئة قويّة تتحدى جبروت الظالمين، وتعلن كلمة الحق في وجوههم مجلجلة مدوية^(٤).

- ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءُ مُّؤْمِنُونَ﴾:

(١) التحرير والتنوير (٤/٣٠٦).

(٢) المصدر السابق (٤/٣٠٧).

(٣) في ظلال القرآن (٣/١٣١٤).

(٤) التفسير الموضوعي (٣/٩٦).

- ﴿قَالُوا﴾؛ أي: المستضعفين الذين آمنوا بصالح.

- ﴿إِنَّا﴾؛ للجمع والتفخيم.

- ﴿بِمَا﴾؛ الباء: للإلصاق والتأكيد. (ما): اسم موصول؛ يعني الذي أرسل به من ربه (أي: رسالته).

- ﴿بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾؛ جملة إسمية، تدل على صفة الثبوت؛ أي: صفة الإيمان أصبحت عندهم ثابتة، أي: آمنّا به كرَسُول، وآمنّا بما أُرسِلَ به^(١).

فوجئ الطغاة المستكبرون بشجاعة المؤمنين، وثباتهم، وقوة إيمانهم، فلم يجدوا ردّاً عليهم ليحفظوا ماء وجوهم، ويستروا خزيهم، إلا أن يعلنوا كفرهم^(٢).

هـ- ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾:

على الرغم من البينة التي جاءهم بها صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ والتي لا تدع ريبة لمستريب، إنه ليست البينة التي تنقص الملاء للتصديق، إنه السلطان المهدد بالدينونة للرب الواحد، إنها عقدة الحاكمية والسلطان، إنها شهوة الملك العميقة في الإنسان، إنه الشيطان الذي يقود الضالين من هذا الخطام، وأتبعوا القول بالعمل فاعتدوا على ناقة الله التي جاءتهم آية من عنده على صدق نبيّه من دعواه، والتي حذرهم نبيّه أن يمسّوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم^(٣).

(١) تفسير القرآن الشري الجامع (١/١١٣).

(٢) التفسير الموضوعي (٣/٩٦).

(٣) في ظلال القرآن (٣/١٣١٤).

٤- قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ أَسْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

أ- ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾:

العقر: هو الذبح، والعقر: هو الجرح، أو قطع عضو من أعضاء الناقة. والذي يعقر عادة فرد واحد، وقال: ﴿فَعَقَرُوا﴾ [الأعراف: ٧٧]، لأنهم اشتركوا في المؤامرة والجرم على عقرها، فهم شركاء في الإثم رغم أن الذي عقرها واحد، قيل: هو قدار بن سالف.

وجاءت تفاصيل ذلك في سورة النمل: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا مَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٤٨-٥٠].

وجاء ذلك في سورة القمر: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]؛ كونهم نادوا؛ فهم اشتركوا في الجريمة^(١).

ب- ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾:

العتوّ: تجاوز الحد في الكبر، وتعديته ب (عن) لتضمينه معنى الإعراض. وأمر ربهم هو ما أمرهم به على لسان صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ من قوله: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣]؛ فعبّر عن النهي بالأمر، لأنّ النهي عن الشيء مقصود منه الأمر بفعل ضده، ولذلك يقول علماء الأصول: إنّ النهي عن الشيء يستلزم الأمر بضده، الذي يحصل له تحقق الكف عن المنهي عنه^(٢).

(١) تفسير القرآن الشري الجامع (٤/ ١١٣).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٣٠٩).

ج- ﴿وَقَالُوا يَصْلِحْ أَنتِنَا يَمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾:

بدأت مرحلة التحدي، بعد مرحلة الكفر: ﴿أَنْتِنَا يَمَّا تَعِدُنَا﴾؛ من عذاب الله ونقمته، استعجالاً منهم للعذاب. ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ إِنْ كُنْتَ لَهِ رَسُوْلًا إِلَيْنَا فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصُرُ رَسُلَهُ عَلَى أَعْدَائِهِ^(١).

- قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا يَصْلِحْ أَنتِنَا يَمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾: لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا هَذَا الَّذِي يَعِدُهُمْ بِهِ، وَلَكِنْ بَيَّنَّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّهُ الْعَذَابُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤]. وَقَوْلُهُ هُنَا: ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]. وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ^(٢).

- وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَصْلِحْ أَنتِنَا يَمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾: فَجَمَعُوا فِي كَلَامِهِمْ هَذَا بَيْنَ كُفْرٍ بَلِيغٍ مِنْ وَجْهِهِ، مِنْهَا:

أَنَّهُمْ خَالَفُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي ارْتِكَابِهِمُ النِّهْيَ الْأَكِيدَ فِي عَقْرِ النَّاقَةِ الَّتِي أَرْسَلَهَا اللَّهُ لَهُمْ آيَةً. وَمِنْهَا: أَنَّهُمْ اسْتَحَقُّوا وَقُوعَ الْعَذَابِ بِهِمْ، فَاسْتَحَقُّوه مِنْ وَجْهِهِ: الْأَوَّلُ: الشَّرْطُ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤]، وَفِي آيَةٍ: ﴿عَظِيمٌ﴾، وَفِي الْآخَرَى: ﴿إِلِيمٌ﴾؛ وَالْكَلِّ حَقٌّ. وَالثَّانِي: اسْتِعْجَالُهُمْ عَلَى ذَلِكَ. وَمِنْهَا: أَنَّهُمْ كَذَّبُوا الرَّسُولَ الَّذِي قَدْ قَدَّمَ الدَّلِيلَ الْقَاطِعَ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَصَدَقَهُ،

(١) تفسير الطبري (٨/ ٢٣٢-٢٣٣).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، ٢٠١٣م (٢/ ٣٥).

وهم يعلمون ذلك علماً جازماً، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق، ووقوع العذاب بهم^(١).

٥ - قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨].

أ- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾:

وهنا الرجفة معناها الزلزلة الشديدة، وأخذتهم كما يؤخذ الشيء الحقيق. وقد دلّ حرف الفاء في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ على التعقيب، فلم يُمهّلوا كثيراً بعد عقربهم الناقة المعجزة، بل عجل الله تعالى في إهلاكهم والانتقام منهم.

وقد بيّن سبحانه في سورة هود أنه أمهلهم ثلاثة أيام فقط، عانوا في أثنائها أشد أنواع القلق، والخوف مع الترقّب، والانتظار: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]. وجاءتهم الصيحة من فوقهم والزلزلة من تحتهم^(٢).

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: لم يُبيّن هنا سبب رجفة الأرض بهم، ولكنه في موضع آخر ذكر أن سبب ذلك صيحة الملك بهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٦٧]؛ والظاهر أن الملك لما صاح بهم رجفت بهم الأرض من شدة الصيحة، وفارقت أرواحهم أبدانهم، والله جَلَّ وَعَلَا أعلم^(٣).

- ﴿فَأَصْبَحُوا﴾؛ الفاء: للمباشرة والتعقيب.

(١) البداية والنهاية (١/ ١٢٨-١٢٩).

(٢) التفسير الموضوعي (٣/ ٩٧).

(٣) أضواء البيان (٢/ ٣٥).

- ﴿فِي دَارِهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾؛ جمع جاثم: هو من لزم مكانه، أي: تجمّد على ما هو عليه، أو لصق بالأرض. وقيل: إن كان واقفاً ظلّ واقفاً، وإن كان قاعداً مات وهو قاعد، وإن كان نائماً مات وهو نائم، أي: على هيئته التي كان عليها قبل الصيحة أو الرجفة^(١).

ب- ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾:

هامدين لا حراك لهم، دمّرت الزلزلة قصورهم، ومساكنهم، وسائر عمرانهم^(٢). وهناك فرق بين الجاثي والجاثم، وأمّا الجاثم: فالميت الذي لا يتحرّك، وهو على حالته، كما كان قبل الموت.

- ﴿فِي دَارِهِمْ﴾؛ دارهم أي: بلادهم، وإذا قارنا هذه مع الآية السابعة والستين في سورة هود، وهي قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾؛ ديارهم في هذه الآية تعني: منازلهم، وأمّا دارهم تعني: بلدهم^(٣).

- ﴿جَنَّتَيْنِ﴾؛ أيّ ميتين، هامدين، لا يتحرّكون^(٤).

- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾؛ الرجفة والجثوم، جزاء مقابل العتوّ والتبجّح، فالرجفة يُصاحبها الفزع، والجثوم مشهد العجز عن الحراك. وما أجدر العاتي أن يرتجف، وما أجدر المعتدي أن يعجز، جزاءً وفاقاً في المصير في التعبير عن هذا المصير بالتصوير^(٥).

(١) تفسير القرآن الثري الجامع (٤/ ١١٤).

(٢) التفسير الموضوعي (٣/ ٩٧).

(٣) تفسير القرآن الثري الجامع (٤/ ١١٥).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) في ظلال القرآن (٣/ ١٣١٥)؛ مفهوم الاستكبار والاستضعاف، د. مصطفى أوعيشة، دار السلام للطباعة والنشر، ٢٠٢٣م، ص ٢٧١؛ النظم القرآني في قصة صالح، سعد عبد الرحمن، =

ج- عذابهم بالصيحة والرجفة والصاعقة:

أطلق القرآن على العذاب الذي وقع بقوم ثمود عدّة أسماء، سمّاه: (صيحة)، و(رجفة)، و(صاعقة).

ولا تعارض بين هذه الأسماء، فكلّ اسم تلحظ فيه مرحلة من مراحل ذلك العذاب، ودرجة من درجاته، لقد انشقت بهم الأرض، فسمعوا لها صيحة قويّة وصوتاً عالياً، ثم رجفت بهم وحركتهم ثم صعقتهم وأهلكتهم، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْجِينَ﴾ [الحجر: ٨٣].

قال السمين الحلبي: الصيحة هي الصوت الشديد. وأصلها تشقيق الصوت، مأخوذ من قولهم: انصاح الخشب والثوب إذ انشقّ فسمع منه صوت^(١).

لقد انشقت الأرض أمام قوم ثمود، وزلزلت، وسمعوا لانشقاقها صوتاً رهيباً، وصيحة مدويّة، وهذه الصيحة المدويّة التي سمعوها تنتج عنها رجفة قويّة. قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾؛ والرجفة من الرجف، والرجف هو: الحركة والاضطراب الشديد^(٢).

وهذه الرجفة وقعت بعد الصيحة، فقوم ثمود سمعوا صيحة قويّة، ثم رجفت بهم الأرض بعد ذلك، وتحركت، حركة شديدة وزلزلت زلزالاً كبيراً بعد الصيحة، ثم صُعقوا بعد الصيحة والرجفة، فسُمّي العذاب الواقع بهم (الصاعقة)، قال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صِعْقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا

= جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ٢٠١٤م، ص ٧٨.

(١) عمدة الحفاظ (٢/ ٤٢١-٤٢٢).

(٢) المصدر السابق (١/ ٨١).

يَكْسِبُونَ ﴿[فصلت: ١٧]. وقال تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَتَوَّأ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَآخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا أَسْتَطَعُوا مِنْ فَيِّامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿الذاريات: ٤٣-٤٥﴾. والصاعقة هي: الصوت الشديد من الجو، ثم يكون منها نار فقط، أو عذاب أو موت، وهي ذاتها شيء واحد وهذه الأشياء تأثيرات منها^(١).

لقد صعق قوم ثمود بالصاعقة، وكانوا ينظرون وهم مصعوقون عاجزون عن الحركة، أو الهرب، غير قادرين على الانتصار أو دفع العذاب عنهم^(٢).

ونجى الله سبحانه وتعالى نبيه صالحاً ومن آمن به، فوقف عليه السلام على أطلال قومه وخرائب عمرانهم وجثثهم الهامدة وقال ما ذكره الله في الآية التالية.

٦- قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴿الأعراف: ٧٩﴾.

أ- ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾:

الفاء للتعقيب والمباشرة.

ترك أرضهم مولياً لهم ظهره، وقال لهم ما قاله وهو يخاطبهم، وهم أموات جاثمين، من أسفه عليهم وتحسره عليهم، لعدم إيمانهم وموتهم، وهم كفار^(٣).

والتولي: الانصراف عن فراق وغضب، ويُطلق مجازاً على عدم الاكتراث بالشيء، وهو هنا يحتمل أن يكون حقيقة، فيكون المراد به أنه فارق ديار قومه

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مكتبة تزار مصطفى الباب، ٢٠٠٩م، ص ٤٨٥.

(٢) القصص القرآني (١/ ٢٩٤).

(٣) تفسير القرآن الشري الجامع (٤/ ١١٥).

حين علم أنَّ العذاب نازل بهم، ويحتمل أن يكون أعرض عن النظر إلى القرية بعد إصابتها بالصاعقة، أو فأعرض عن الحزن عليهم واشتغل بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَخِغٌ نَفْسَكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]^(١).

ب- ﴿وَقَالَ يَنْقُومُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِي رَبِّي﴾:

أكد مضمون الجملة بـ (قد) والقسم الذي دلَّت عليه (اللام)، وذلك للتأكيد على التبرؤ من التقصير في معالجة كفرهم، ولدفع توهم تقصيره عَلَيْهِ السَّلَامُ في تبليغ الرسالة والنصيحة لهم، ورحمته بهم.

وإضافة الرسالة في قوله تعالى (ربي) تدلُّ على الاعتراف بفضل الله عَزَّوَجَلَّ، وعنايته الخاصة بصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن ذلك أنَّ نَجَّا المؤمنين برسالته من العذاب^(٢).

ج- ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾:

بتقييد النصيحة بالجار والمجرور (لكم)، يدلُّ على تمحيص النصيحة لهم، وأنَّ فائدة النصح عائدة إليهم، وأنَّه لن يجني من وراء ذلك فائدة لنفسه^(٣). والنصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له^(٤).

والنصح: هو إخلاص العمل عن شوائب الفساد، والنصيحة: هي الدعاء إلى ما فيه الصلاح، والنهي عمَّا فيه الفساد^(٥).

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٣١٠).

(٢) النظم القرآني في قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ص ٧٩.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ (١/ ١٣٨).

(٥) التعريفات للجرجاني، ص ٢٤؛ موسوعة الأخلاق، إشراف علوي القاق (٣/ ٣٩٧).

وَمِنْ أبلغ ما وجَّهه صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قومه النصيحة الصادقة لتوحيد الله، وإفراده بالعبادة، وترك الشرك. ولَمَّا تبرأ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ من التقصير في تبليغ الرسالة، ودفع هذا التوهم بسبب عدم ظهور فائدة ذلك فيهم، واستدرك بقوله:

د- ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾؛

أي: تكرهون الناصحين، فلا تطيعونهم في نصحه؛ لأنَّ المحبَّ لمن يُحبَّ مطيع، فأراد بذلك الكناية عن رفضهم النصيحة^(١).

وجاء الفعل: ﴿تُحِبُّونَ﴾ مضارعاً لحكاية الحال الماضية، أي: شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم^(٢).

وصيغة اسم الفاعل في قوله: ﴿النَّاصِحِينَ﴾، فيه مزيد وصف وإشارة إلى أنه من الثابتين على النصح، والمستمرّين عليه، والمعروفين به، وهم لا يُحِبُّونَ مَنْ هذه صفته. وجاءت الجملة عامّة، فلم يُقَلَّ: (ولكن لا يُحِبُّونِي) لتفيد التعميم، وأنهم لا يُحِبُّونَ كُلَّ ناصح لهم، سواء كان صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ أو غيره. وفي ذلك المبالغة في وصفهم بالإعراض عن النصح، فهم لا يُحِبُّونَ النصيحة ولا الناصحين، وفي ذلك غاية الدّم لهم، إذا قلنا إنَّ هذا الخطاب صدر من صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد هلاك قومه وهذا ما يدلّ عليه التعقيب بـ (الفاء) في قوله: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾. فإنَّ للمفسّرين في ذلك قولين: الأوّل: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال ذلك تحسُّراً على ما فاتته من إيمانهم، وتحرقاً وأسفاً عليهم، فإذا ذكر ذلك الكلام فُرِّجَ عن قلبه وخفَّ عليه أثر المصيبة (فيكون لإنشاء التحسّر فيصير من قبل الإنشاء)^(٣).

(١) النظم القرآني في قصة صالح، ص ٧٩.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٠.

والثاني: أن صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ خاطب قومه عمّا خاطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل قليب بدر بعد أن أهلكهم الله إثر غزوة بدر حين ألقوا في القليب: ناداهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان ابن فلان ويا فلان ابن فلان أيسرُكم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟» فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجسادٍ لا أرواح لها؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»^(١)، فقال قتادة: "أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخاً وتصغيراً ونقمةً وحسرةً وندماً"^(٢).

إنّ مناداة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقتلى قريش بينت أمراً عظيماً، وهو أنّهم بدؤوا حياة جديدة، هي حياة البرزخ الخاصة، وهم فيها يسمعون كلام الأحياء، غير أنّهم لا يُجيبون ولا يتكلّمون، والإيمان بهذه الحياة من عقائد المسلمين، ونعيم القبر وعذابه ثابتان في صحاح الأحاديث، حتى إنّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرّ بقبرين، وقال: «إنّهما ليُعذبان وما يُعذبان في كبير»^(٣). وذكر أنّ سبب تعذيبهما النّم بين الناس، وعدم الاستنزاه من البول^(٤).

ولا بدّ من التسليم بهذه الحقائق الغيبيّة، بعد أن تحدّث عنها الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقطع بها القرآن العظيم في تعذيب آل فرعون، قال تعالى: ﴿التَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

(١) البخاري، رقم (٣٩٧٦)؛ صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧٢ م، رقم (٢٨٧٣).

(٢) البخاري، رقم (٣٩٧٦).

(٣) البخاري، رقم (٢١٨).

(٤) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، د. محمد فوزي، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٨ م، ص ٦٤.

وأما الشهداء، فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] (١).

كانت نصيحة صالح عليه السلام في حياته صادقة، وأصبحت نموذجاً يُحتذى به على مرّ الأجيال، ولكلّ مصلح وداعية في حرصه على الإخلاص في النصيحة، والعلم بما ينصح به، واللين والرفق في النصيحة.

هذا ما أنهت به سورة الأعراف في حديثها عن قصة صالح عليه السلام: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾؛ أي: إنني جهدت في هدايتكم بكلّ ما استطعت، وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيتي، ولكن لا تحبّون الناصحين، أي: لم تكن سجاياكم وطبائعكم تقبل الحق ولا تُريده، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمرّ بكم إلى ما لا نهاية، ولا حيلة لي فيما وقع بكم، والذي وجب عليّ من أداء الرسالة قد فعلته، وبلغتكم إياه (٢).

هـ- تعليق الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله على قصة صالح عليه السلام في سورة الأعراف:

قال رحمه الله: اعلم أنّ كثيراً من المفسّرين يذكرون في هذه القصة:

أنّ الناقة قد خرجت من صخرة صماء ملساء؛ اقترحوها على صالح، وأنّها تمخّضت تمخّض الحامل، فخرجت الناقة، وهم ينظرون. وأنّ لها فصلاً حين عقروها رغي ثلاث رغيات، وانفلق له الجبل، ودخل فيه.

(١) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، ٢٠١٠م، ص ٥٧٥.

(٢) قصص الأنبياء أحداثها وعبرها، محمد الفقي، مكتبة وهبة، ١٩٨٩م، ص ٦٠.

وَأَنَّ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لَهُمْ: آيَةُ نَزُولِ الْعَذَابِ بِكُمْ أَنْ تَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ مِنَ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ وَجُوهَكُمْ مَصْفَرَّةً، وَالْيَوْمِ الثَّانِي مُحْمَرَّةً، وَالثَّالِثَ مَسْوَدَّةً، فَكَانَ كَمَا قَالَ، وَكُلُّ هَذَا مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي لَا يَنْبَغِي نَقْلَهَا فِي تَفْسِيرِ كِتَابِ اللَّهِ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ مَا يَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ.

بل لو كانت صحيحة لذكرها الله تعالى، لأنَّ فيها من العجائب والعبر والآيات ما لا يهمله تعالى ويدع ذكره، حتَّى يأتي من طريقٍ من لا يوثق بنقله، بل القرآن يُكذِّبُ بعض هذه المذكورات، فَإِنَّ صَالِحًا قَالَ لَهُمْ: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]؛ أَي: تَنَعَّمُوا، وَتَلَذَّذُوا بِهَذَا الْوَقْتُ الْقَصِيرَ جَدًّا، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُمْ مِنَ الْمَتَاعِ وَاللَّذَّةِ سِوَى هَذَا، وَأَيُّ لَذَّةٍ وَتَمَتُّعٍ لِمَنْ وَعَدَهُمْ نَبِيُّهُمْ وَقُوعَ الْعَذَابِ، وَذَكَرَ لَهُمْ وَقُوعَ مُقَدَّمَاتِهِ، فَوَقَعَتْ يَوْمًا فَيَوْمًا، عَلَى وَجْهِ يَعْثُمُهُمْ وَيَشْمَلُهُمْ [أحمرار وجوههم، واصفرارها واسودادها من العذاب]، هَلْ هَذَا إِلَّا مَنَاقِضٌ لِلْقُرْآنِ وَمُضَادٌّ لَهُ؟ فَالْقُرْآنُ فِيهِ الْكَفَايَةُ وَالْهُدَايَةُ عَمَّا سِوَاهِ.

نعم لو صحَّ شيء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا لَا يُنَاقِضُ كِتَابَ اللَّهِ فَعَلَى الرَّأْسِ وَالْعَيْنِ، وَهُوَ مَا أَمَرَ الْقُرْآنُ بِاتِّبَاعِهِ: ﴿وَمَا أَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وقد تقدَّم أنَّه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمر التي لا يجزم كذبها، فَإِنَّ مَعَانِي كِتَابِ اللَّهِ يَقِينِيَّةٌ وَتِلْكَ أُمُورٌ لَا تُصَدَّقُ وَلَا تُكذَّبُ، فَلَا يُمَكِّنُ اتِّفَاقُهُمَا^(١).

ثانياً: قصّة صالح عليه السلام في سورة هود:

﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَفْقَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَتَوَبُّوا إِلَيْهِ إِن رَّبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَفْقَوْمَ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَقَوْمَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا آلَا إِن ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴿٦٨-٦١﴾].

نزلت سورة هود في أجواء عصية تُحيط بالنبِيِّ محمد صلى الله عليه وسلم، فتولّت تثبيته على المنهج من خلال أسس مقوّمات ذلك الثبات^(١). وتدور السورة حول قضية توحيد الله عزّ وجلّ، وإفراده بالعبادة، والترغيب في ذلك، والتحذير والترهيب ضده الذي هو الشرك وعاقبته، وتحديّ المشركين بهذا القرآن العظيم، وتسليّة النبيّ ممّا يُلاقيه منهم بذكر قصص الأنبياء قبله، وكيف كان ردّ أقوامهم عليهم، وبيان عاقبة الفريقين^(٢).

(١) الخارطة القرآنية، مشعل الفلاح، دار القلم، دمشق، ٢٠٢٢م، ص ١٠٣.

(٢) النظم القرآني في قصة صالح، ص ٨١.

وعرضت سورة هود قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، بعدما ذكرت قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ثم هود. ويتبدى السياق مع الربع الجديد في قصة ثمود مع النبي صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الآيات الكريمة العظيمة:

١ - قال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ آلِهَةٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

تفسير الآية الكريمة:

أ- ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾:

(الواو): وهي عاطفة قصّة على قصّة، ويصحّ أن تكون استئنافية.

- ﴿ثَمُودَ﴾: هم قوم من العرب، وتحدّث عنهم بالتفصيل في المبحث السابق.

- ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾: نبي الله عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو لأنّه منهم فهو أخوهم؛ أخوة دم وقبيلة، لا أخوة دين، وصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ من أنبياء العرب، وثمرود قبيلة منهم، والعهد موغل آلاف السنين في عمق التاريخ، ومعلوم أنّ كلّ رسول يُرسل في قومه بلغتهم.

ب- ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ آلِهَةٍ غَيْرُهُ﴾:

بداية كلّ نبيّ ورسول أن يُنادي قومه بالتحبّب إليهم، والانتماء إليهم في النسب والانتماء القبلي، والقراة الدموية، ومن ثمّ يدعوهم إلى خير وجوهر الدين كلّ، وهو "إفراد الله وحده بالعبادة"^(١).

(١) تفسير سورة هود دراسة تحليليّة - موضوعيّة، الدكتور: أحمد نوفل، جمعيّة المحافظة على القرآن الكريم، المملكة الأردنيّة الهاشميّة، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م، ص ٨١.

وإن الأنبياء جميعاً يؤكدون في رسالتهم لأقوامهم على حقيقة التوحيد، ووحداية الله، وتفرد بالعبادة، والتوجه إليه في كل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (١).

- ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾؛ هذه الكلمات هي ملخص الدين كله منذ آدم إلى خاتم المرسلين، فلا يعدو الدين هذه الكلمات، أما العبادة فهي كلمة جامعة شاملة، تشمل العبادات بمعنى الشعائر وكل نشاط الحياة من بعد، ولا تقتصر على هذه الشعائر، وقصرها من تقصير الفهم، فالشعائر مهمة قطعاً وهي أركان، لكن الدين أشمل منها والعبادة بطبيعة الحال كما بينا.

كل إنسان عابد بالضرورة، وبالفطرة، فهو لا ينفك عن عبادة، وعن طاعة معبود، فإن استكبر عن عبادة الله، فقد وقع تلقائياً في عبادة سواه بما لا يستحق العبادة؛ كالشيطان، أو المعبودات التي عُبِدَت في الأرض من شجر وحجر وبشر وشمس وقمر وأنهار، ومخلوقات ورموز، أو عادات وتقاليد أو قوى متنفذة، فقد تعددت المعبودات وجاء الدين ليرد الناس إلى العبادة الحق، وجاء الرسل ليردوا الناس إلى المعبود الحق، والمعبود بحق هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فلا يستحق العبادة إلا هو.

ولذا لم يقتصر قول نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَام على قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، وإنما أضافه: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾؛ فلا يُعبد معه أحد ولا يُعبد من دونه أحد كائناً من كان هذا (٢).

إن قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَام انحرفوا عن التوحيد، وإفراد العبادة لله عَزَّجَلَّ، وهو نتيجة العناد، والاستكبار، والظلم، والطغيان المادي، والإسراف، والفساد،

(١) الأمة في الرؤية الإسلامية، عمر إسماعيل، دار الكتب القانونية، ٢٠١٣م، ص ٩١.

(٢) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ١٩٨.

ونسوا عبادة الله في خِصَمِّ انشغالهم بالماديات من قصور في السهول، وبيوت في الجبال، وآلاء الله، ونعمه العظيمة، والتي لم يشكروا الله عليها، فذكرهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بضرورة التوجه لعبادة الله وحده، وذكرهم بأمر، ودعاهم إلى الاستغفار، والتوبة، والرجوع إلى الإله الرحيم القريب المجيب.

ج- ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾:

الإنشاء هو الإيجاد ابتداءً من غير واسطة شيء: أنشأ، أي: أوجد وجوداً ابتداءً من غير الاستعانة بشيء آخر^(١).

ولقد بين صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن الله عَزَّوَجَلَّ الذي دعاهم لتوحيده، وإفراده بالعبودية، هو الذي خلقهم من الأرض بخلق أبينا آدم منها، فالحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد خلق آدم من نفس مادة الأرض، والأرض مخلوق من مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ، ثم بعد ذلك أنشأ الإنسان من التقاء الزوج والزوجة، فمنِّي الزوج وبويضة الزوجة، يتكوّنان من خلاصة الدم، الذي هو خلاصة الأغذية، وهي تأتي من الأرض، فسواء رمزت لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بإنشائه من الأرض، أو أبقته في ذريته، فكل شيء مردّه إلى الأرض^(٢).

إنَّ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ يُعرِّف قومه بما عُرس في فطرتهم، وبما ينبغي أن يكون معلوماً بالضرورة، لأنَّ كلَّ دين ذكر بهذه الحقيقة حتى صارت في البديهيات في الأذهان، والمعلومات المتناقلة والمتداولة، ومفردة من مفردات الثقافة، ومكوناتها.

وللإنشاء من الأرض دلالات، فأولاً: قدرته تعالى، ومُلْكُه من خلقه، وعِلْمُه، وحكمته، ومشِيئته، وربوبيّته، ثمَّ حتّى ينقادوا طوعاً، ومحبةً، ورجاءً،

(١) تفسير الشعراوي (١١/٦٥٢٨).

(٢) المصدر السابق (١١/٦٥٢٩).

وخوفاً إلى عبادة الله عَزَّجَلَّ، وذكّرهم بأصلهم لكي يتركوا الاستكبار والتمرد ويتواضعوا لله ربّ العالمين ففيم الاستكبار والذهاب بعيداً فيه؟ ومن التراب بدأتُم، وإليه تعودون، ومنه يُخرجكم ربّ العالمين للحساب.

إن الخالق العظيم، هو الذي أوجدكم من العدم، وأمدّكم بالحياة، ومتطلّباتها، فمعرفة أصل الإنسان في خلقه تقوده إلى توحيد الله، وإفراذه بالعبوديّة، أيّ حين يتخلّص من الأهواء، والوساوس الشيطانيّة، ويُعطي عقله حريّة التأمل، والتفكير، والتأمل على أسس صحيحة.

د- ﴿وَأَسْتَعْمِرْكُمْ فِيهَا﴾ السين والتاء في (استعمركم) للمبالغة^(١)، وهو لبيان عظم فضل الله عليهم بتمكينهم في الأرض وعمارتهم لها، وفي لفظ: (استعمركم) إيجاز لاحتمالها معاني متعدّدة كلّها صالحة ومناسبة للسياق، فقد جاء معناها: أنّها من العمارة، أي: جعلكم تعمرونها وتستغلّونها وتسكنون فيها، وقيل من العُمُر، أي: أطال أعماركم فيها^(٢).

وإن الإيجاز في هذه السورة، وترك التفصيل في بيان كيفيّة استعمار ثمود الأرض؛ مناسب لترتيب السور، وذكر القصّة، سواء ترتيبها في المصحف أو ترتيبها حسب النزول، فسورة الأعراف التي سبقت سورة هود في المصحف وفي النزول^(٣).

(١) تفسير الرازي، التفسير الكبير، الإمام فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م (١٨ / ١٨).

(٢) تفسير الزمخشري، محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٠١٣م (١٦١ / ٤).

(٣) البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبد الله الزركشي بدر الدين، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص ١٣٦.

وقد ورد فيها تفصيل لعمارتهم الأرض، حيث بَيَّنَّتْ أَنَّهُمْ كانوا يَتَّخِذُونَ من سهولها قصوراً وينحتون الجبال بيوتاً، فناسب الإيجاز هنا، لورود ذلك فيما سبق^(١).

- ﴿وَأَسْتَعْمِرَكُمْ فِيهَا﴾؛ ساعة ترى الألف والسين والتاء، فاعلم أَنَّهَا للطلب، وهكذا يكون معنى الكلمة (استعمر)، هو طلب التعمير، ومن الخطأ الشائع تسمية البلاد التي تحتل بلاد أخرى: دولة الاستعمار^(٢).

يقول الشيخ محمد متوَلَّى الشعراوي رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّ ذلك خطأ، لأنَّهم كانوا دول استعمار، فهذا يعني أَنَّهُمْ يرغبون في عمارة الأرض، ولكنَّهم في حقيقة الأمر يخربون في الأرض، ولذلك كان يجب أن تُسمَّى (دول الاستخراب)^(٣).

ويقول الشيخ الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: والاستعمار: الإعمار، أي: جعلكم عامرينها، فالسين والتاء للمبالغة كالتي في (استبقى) و(استفاق)، ومعنى الإعمار أَنَّهُمْ جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع، لأنَّ ذلك يُعدُّ تعميراً للأرض^(٤). وقال إلكيا الهَرَّاسِي رَحِمَهُ اللهُ في قوله تعالى ﴿وَأَسْتَعْمِرَكُمْ فِيهَا﴾؛ الآية تدلُّ على وجوب عمارة الأرض، فإنَّ الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله للوجوب^(٥).

وذكر الشيخ علَّال الفاسي: إن المقصد العام للشرعية الإسلامية، هو: عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها،

(١) النظم القرآني في قصة صالح، ص ٨٧.

(٢) تفسير الشعراوي (١١/٦٥٢٩).

(٣) المصدر السابق (١١/٦٥٢٩).

(٤) التحرير والتنوير (٥/٥٦٤).

(٥) أحكام القرآن، إلكيا الهَرَّاسِي، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٨م (٢/٢٢٦).

وقيامهم بما كُلفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع^(١).

وعلق الشيخ الدكتور محي الدين القره داغي - حفظه الله - على كلام الشيخ علال الفاسي رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: ويدلّ على هذه الأهمية قول الحبيب المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن قامت على أحدكم القيامة، وفي يده فسيلة فليغرسها»^(٢)، وفي رواية أخرى بلفظ: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليفعل»^(٣). وكذلك الأحاديث الكثيرة الدالة على إحياء الموات والزرع والغراس ونحوهما.

ويرتبط بالعمران أدواته من الصناعة والتجارة والزراعة ونحوها التي وردت فيها مئات الآيات الكريمة والسنة المطهرة^(٤).

إنَّ نبيَّ الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت المنظومة المقاصدية حاضرة في دعوته لتحقيق كَفْتِي الميزان في التدين والعمران، فدعوة الأنبياء والمرسلين ومنهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ من مقاصدها، صلاح الإنسان في داخله بالتقديس والتسبيح وتحقيق التوحيد وإفراد العبادة لله والتعبد لله على منهجه، والاعتقاد الذي جاءت به رسله، وعمارة الكون لتحقيق العمران والاستخلاف. ومن الكتب النافعة في تحقيق هذه

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، دار الغرب الإسلامي، ٢٠١٠م، ص ٤٦.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب أرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٨م (١٢٩٠٢)، إسناده صحيح.

(٣) رواه أحمد، ١٢٩٨١، صحيحه الكثيرون.

(٤) الارتقاء من مقاصد الشريعة إلى المنظومة المقاصدية لتحقيق كفتي الميزان (التدين والعمران)، د. علي محي الدين القره داغي، دار الأصاله، ٢٠٢٤م، ص ٣٣.

المقاصد: (كتاب شيخنا القره داغي - حفظه الله - : الارتقاء لتحقيق كَفِّي الميزان: التدين والعمران).

في حديث سيدنا صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿هُوَ أَنشَأَ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَ فِيهَا﴾، يدلّ على أنّ الله يُريد عمارة الأرض، لا التخلّي والتبطل^(١).

وبعد أن ذكرهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بنعم الله عليهم وإحسانه إليهم، دعاهم مُرغباً لهم إلى الاستغفار والتوبة ممّا كانوا يفعلونه من الشرك والمعاصي قائلاً لهم^(٢). هـ - ﴿فَاسْتَغْفِرُوا لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(الفاء): هنا للتفريع، لأنّ ما تقدّم من الإحسان، يوجب الاستغفار والتوبة^(٣). وقدّم الاستغفار على التوبة لعدة أسباب:

الأوّل: الترتيب الزمني، لتعلّق الاستغفار بما مضى والتوبة بما يُستقبل. والثاني: للتقديم الرّتبّي، حيث إنّ التخلية مقدّمة على التحلية، أي: استغفروه من الشرك ثمّ ارجعوا إليه بالطاعة.

والثالث: أنّ طلب السلامة مُقدّم على الغنيمة^(٤).

وإليك شيء من التفضيل فيما يتعلّق بالاستغفار والتوبة:

(١) التفسير المحرر للقرآن الكريم، مؤسسة الدرر السنية (١٠).

(٢) النظم القرآني في قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ص ٨٧.

(٣) روح المعاني، الألوسي (٢٨٧/٦).

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم السبع المثاني، أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥ هـ، ص ٧٨٠.

- ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾؛ قدّم الاستغفار على التوبة، لأنّ الاستغفار إنّما يكون من الذنوب التي فعلها العبد، وأمّا التوبة فتالية له. ومن شروطها: عدم العودة على ما أسلف من المعصية.

وجاء في (البحر المحيط): أمر بالاستغفار من الذنوب، ومن ثمّ التوبة، وهما معنيان متباينان، لأنّ الاستغفار طلب المغفرة، وهي الستر، والمعنى لا يبقى له تبعه، والتوبة؛ الانسلاخ من المعاصي، والندم على ما طلب منه، والعزم على عدم العودة إليها^(١).

وجاء في تفسير الشيخ الرازي رَحِمَهُ اللهُ في فائدة هذا الترتيب أنّ المراد استغفروا من سالف الذنوب، ثمّ توبوا إليه من المستأنف.

والاستغفار طلب من الله لإزالة ما لا ينبغي. والتوبة سعي من الإنسان في إزالة ما لا ينبغي، فقدّم الاستغفار ليدلّ على أنّ المرء يجب ألا يطلب الشيء إلاّ من مولاه، فإنّه هو الذي يقدر على تحصيله، ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لأنّه عمل يأتي به الإنسان ويتوسّل به إلى دفع المكروه. والاستعانة بفضل الله مقدّمة على الاستعانة بسعي النفس^(٢).

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾؛ أي: اسأله مغفرة ما مضى من ذنوبكم.

﴿ثُمَّ تَوُوبُوا إِلَيْهِ﴾؛ أي: ثمّ توبوا إلى الله في المستقبل بالندم على ما فات، والإقلاع في الحال والعزم على عدم العودة في المستقبل، فلا يُقال: إنّ الاستغفار هو التوبة، وإنّما بينهما اختلاف وتغاير.

(١) البحر المحيط في التفسير، محمد يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - (٢٠١/٥).

(٢) تفسير الرازي (٣١٥/١٨).

وأصل معنى الاستغفار: طلب الغفر، أي: الستر، ومعنى التوبة: الرجوع، ويُطلق على الأوّل طلب ستر الذنب من الله تعالى والعفو عنه، والثاني على الندم عليه مع العزم على عدم العودة إليه. والقلب يميل فيه إلى حمل الأمر الثاني على الإخلاص في التوبة والاستمرار عليها^(١).

وقال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: والاستغفار طلب المغفرة للذنب، أي: طلب عدم المؤاخذه بما مضى منهم من الشرك، لأنّ استغفار الله يستلزم الاعتراف بوجوده، ويستلزم اعتراف المستغفر بذنب في جانبه^(٢). ومن أعظم ذنوبه عند دعوة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم الشرك بالله عَزَّجَلَّ.

﴿ثُمَّ تَوُوبُوا إِلَيْهِ﴾؛ أي: يترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، ويتبع ذلك التوبة النصوح وهي توثيق العزم على ترك الذنب لتورث صاحبها الفلاح عاجلاً وآجلاً.

إنّ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا قومه إلى التوبة، والله عَزَّجَلَّ من أسمائه (التواب)، والتوبة من شرعة الله الخالدة، وهي من الأحكام الشرعية للإنسان طوال الأزمان والدهور والعصور، ودعا إليها الأنبياء والرسل.

إنّ الاستغفار والتوبة إلى الله، حثّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الالتزام بهما، وقد كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدوة للأمم، فالترحم الاستغفار آناء الليل والنهار، وبين فضل الاستغفار، ودعا المسلمين إلى طلبه قولاً وفعلاً، لمنافعه الكثيرة في الدنيا

(١) التفسير الموضوعي (٣/ ٢١٤).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٥٥٥).

والآخرة^(١). وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر: (يستغفر كل يوم مئة مرة)^(٢).

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل همّ فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»^(٣). وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستغفر الله، ويتوب إليه يومياً، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(٤).

- ﴿تُوبُوا إِلَيْهِ﴾: أي: بعد استغفاركم توبوا إليه واستخدم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ حرف الجر (إلى) وبعده الضمير العائد إلى الرب الذي يريكم ويزكيكم ويرزقكم سبحانه. و(إلى) تُشعر برحلة الإياب بعد الغياب عن الرب التَّوَاب. فصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا قومه إلى الغفار والتَّوَاب، والرب الجليل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القريب المجيب.

﴿تُوبُوا إِلَيْهِ﴾؛ أي: توبوا إلى التَّوَاب، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هو التَّوَاب على من تاب إليه من عباده المذنبين، التارك مجازاته بإنابته إلى طاعته بعد معصيته بما سلف من ذنبه، وتوبة الله على عبده هو أن يرزقه ذلك، ويؤوب من غضبه عليه إلى الرضا عنه، ومن العقوبة إلى العفو والصفح عنه^(٥).

(١) شريعة الله للأنبياء، ص ١٠٤.

(٢) رواه الدارمي، مسند الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي، دار التأصيل، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م، رقائق (١٥)؛ مستند أحمد (٤/ ٢١١).

(٣) سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، عزة الدعاس، دار الحديث، حمص، سوريا، ١٣٨٨هـ (١/ ٣٤٨)؛ ابن ماجه، رقم (٣٨١٩).

(٤) البخاري، باب الاستغفار (٧/ ١٤٥)؛ التوبة في ضوء القرآن الكريم، آمال بنت صالح نصير، دار الأندلس الخضراء، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ص ٨٣.

(٥) تفسير سورة هود، ص ٢٠٣.

فَاللهُ عَزَّجَلَّ: هو التائب على التائبين أولاً بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب على التائبين بعد توبتهم قبولاً لهم وعفواً عن خطاياهم^(١). ووصف الله سبحانه نفسه بالتواب لكثرة من يتوب عليه^(٢).

- تعريف التوبة:

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في تعريفه للتوبة: هي الندم من القلب، وترك المعصية في الحال، والعزم على ألا يعود إلى مثلها، وأن يكون ذلك حياءً من الله^(٣).

- قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: التوبة النصوح: هو أن يُقْلَعَ عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على ألا يفعل في المستقبل، ثم إن كان الحق لآدمي رَدَّه إليه بطريقه^(٤).

- وقال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللهُ: التوبة ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة^(٥).

- ولقد عرّفها الإمام ابن القيم الجوزية، فقال: لا يكون -الإنسان- بمجرّد الإقلاع والعزم والندم تائباً، حتّى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور والإتيان به، وهذا حقيقة التوبة، وهي اسم لمجموع الأمرين... ولهذا علّق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحذور بها، فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) تفسير السعدي (٥/٣٠٠).

(٣) والله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، ٢٠١٥م، ص ٥٨٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٢/٣٩٢).

(٥) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مكتبة تزار مصطفى الباب، ٢٠٠٩م، ص ٧٦.

الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿[النور: ٣١] فكلّ تائب مفلح، ولا يكون مفلحاً إلا من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]. وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحذور ظالم، وزوال اسم الظلم عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين^(١).

فالإمام ابن القيم يرى أنّ التوبة لا يكفي فيها ترك المنهي عنه، بل لا بد من العزم الأكيد على فعل المأمورات والإتيان بها^(٢).

- وعرفها الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: أنّها عبارة عن معنى ينتظم في ثلاثة أمور مرتبة: علم وحال وعمل، فالعلم هو معرفة الذنوب وعظم خطورها، والحال هو تألم النفس من ذلك الضرر وهو ما يسمّى بالندم، والعمل هو ترك الذنب وتدارك ما يمكن تداركه في المستقبل^(٣).

مما سبق نستنتج أنّ التوبة هي معرفة العبد لقبح الذنوب وضررها عليه، فيقلع عنها مخلصاً في إقلاعه عن الذنب لله تعالى، نادماً على ما بدر منه في الماضي من المعاصي قصداً وجهلاً، عازماً أكيداً على عدم العودة إليها في المستقبل، والقيام بفعل الطاعات والحسنات، متحللاً من حقوق العباد بردّها إليهم أو محصلاً البراءة منهم^(٤).

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد حامد الفضلي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ - (١/ ٣٠٥-٣٠٦).

(٢) التوبة في ضوء القرآن الكريم، آمال بنت صالح، ص ٢١.

(٣) إحياء علوم الدين لحجة الإسلام، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ (٣/٤) بتصرف.

(٤) التوبة في ضوء القرآن الكريم، ص ٢١.

و- ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾:

وابتداً الختام بأن المؤكّدة، ثم كلمة الرب المفيدة التربية خاصة وأن الآية كلّها في الخلق والتعهد فناسب أن يختمها بذكر الربّ وأضاف الرب إلى ياء المتكلّم ليشعر بقرب المولى سبحانه من عباده، وابتداً الحديث بنفسه لتثقل المشاعر إليهم^(١). وكأنّهم استعظموا أن يكون جرمهم ممّا يقبل الاستغفار منه، فأجيبوا بأن الله قريب مجيب^(٢).

وفي الآية دلالة على كمال يقين صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بما تضمّنه الجملة من أن الله قريب مجيب، وهذا يدلّ على كمال علمه برّبّه^(٣).

والتعبير بالربوبية في قوله (ربّي) مناسب لمعنى الجملة، لأنّ لفظ الرب مُشعر بالعناية والرعاية والحفظ للمربوب، وهذا يستدعي أن يكون قريباً مجيباً. وفي إضافته لياء المتكلّم إشارة إلى أنّ صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ أعلم بالله من غيره فهو ربّه، وفيه أيضاً تعريض للمخاطبين بأنّ آلهتهم التي يدعون لا تسمع ولا تُجيب^(٤).

- ﴿قَرِيبٌ﴾؛ أقرب ممّا يتصوّر كلّ مخلوق، فهو يربّعاك في النفس الذي يتردّد في صدرك، وهو الذي يرمي التوازن الدقيق في جسمك، فلو زاد أي عنصر أو نقص في هذا البدن لاختلّ وجودك، فمن يرمي هذه الدقائق؟ والكبد والكلّى والرئتان ودورة الدم والدماغ المسطرة على كلّ. هذه تعمل بأمر من؟ أليس بأمره سبحانه وكلّها تجري وتقوم بوظائفها، أفقرّب أقرب من هذا القرب؟

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٢٣٤.

(٢) التحرير والتنوير (٥/٥٦٤).

(٣) النظم القرآني في قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ص ٨٨.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، ٢٠٠٦م (٣١٩/٩).

هو معك في متقلبك وخطراتك وحركاتك وسكناتك ونواياك وعزوماتك وإراداتك، وهو معك في كل لمحة عين وهمسة فم، وكل ما تسمعه^(١). وورد اسمه سبحانه القريب في القرآن ثلاث مرات:

- مرة مفرداً، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

- ومرة مُقترناً باسمه سبحانه (السميع)، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُمْ فِيمَا يُؤْمِرُكُمُ رَبِّيَ فَإِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبا: ٥٠].

- ومرة مُقترناً باسمه سبحانه (المجيب) كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾^(٢). وهو القريب من جميع خلقه، فهو المحيط بهم والعليم بحالهم، وهو القريب من المؤمنين بنصره لهم وإجابة دعائهم وحفظهم^(٣).

والآية الكريمة تُشير إلى أنس صالح عليه السلام بربه وقربه منه، واطمئنانه وحسن ظنه ومحبته، وقوة رجائه في خالقه سبحانه وتعالى. وعلمنا ربنا في كتابه على لسان صالح عليه السلام باسمه (القريب) الموغل في الجمال المكلل بالبهاء ففي الوقت الذي يُريدك خالقك أن تعلم أنه على العرش استوى، يُريدك أن تتيقن أنه أقرب إليك من حبل الوريد، يسمع كلماتك، ويرى أفعالك، ولا تخفى عليه منك خافية.

دخل الرسول صلى الله عليه وسلم المسجد، فإذا بصحابته الكرام يدعون ربهم بأصوات جهيّرة مرتفعة، فقال: «اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً،

(١) تفسير سورة هود، ص ٢٣٤.

(٢) والله الأسماء الحسنی، عبد العزيز ناصر، ص ٦٤٦.

(٣) هذا ربي، خالد الخليوي، دار الحضارة، ط ١، ٢٠١٩م، ص ١٢٤.

إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعاً قَرِيباً»^(١). وبمجرد أن ينتهي العبد من الدعاء، إذ بالإجابة تلوح، لأنَّه قريب^(٢). وسرعة الإجابة في الدعاء، ولو كان في السرِّ، دليل نفاذ علمه إلى البواطن وقدرته اللامتناهية في إيصال كلِّ ما يطلبه الخلق، فهو قريب منهم بقدرته^(٣).

وقال الشيخ السعدي رَحْمَةُ اللَّهِ: القريب: هو القريب من كلِّ أحد. وقربه نوعان:

- قرب عام من كلِّ أحد بعلمه وخبرته ومراقبته ومشاهدته وإحاطته، وهو أقرب من الإنسان من حبل الوريد.

- وقرب خاص من عابديه وسائليه، ومُجيبيه، وهو قرب يقتضي المحبة، والنصرة، والتأييد في الحركات، والسكنات، والإجابة للداعين والقبول والإثابة، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]. وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾. وفي قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وهذا النوع قرب يقتضي ألطافه تعالى، وإجابته لدعواهم وتحقيقه لمراداتهم، ولهذا يُقرن باسمه (القريب) اسمه (المجيب). وهذا القرب قرب لا تدركه حقيقة، وإنَّما تعلم آثاره من لطفه بعبده، وعنايته به وتوفيقه، وتسديده، ومن آثار الإجابة للداعين والإثابة للعبدين^(٤).

(١) البخاري، رقم (٤٢٠٥)، مسلم، رقم (٢٧٠٤).

(٢) لأنك الله، علي بن جابر الفيقي، دار الحضارة، ٢٠١٦م، ص ١٧٢.

(٣) التفكير في الأسماء عن طريق العلماء، د. ضياء الدين الجماس، دار الهجرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٠م، ص ٤٦٨.

(٤) الحق الواضح المبين، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مطبوع ضمن الكاملة في مؤلفات الشيخ السعدي، جزء العقيدة الإسلامية، مركز صالح بن صالح، ص ٦٤.

- ﴿مُجِيبٌ﴾؛ لا يردّ سائلاً، ولا يخيب أَمْلاً، ويُجيب دعاء مَنْ دعاه ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]. وفي الشدائد من يخطر بباله أن يدعو سوى الله^(١).

وورد اسمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (المجيب) مرّة واحدة في القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾. وورد بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنَعَمْ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥].

وقال في اللسان: وفي أسماء الله تعالى: المجيب، وهو الذي يُقابل الدعاء والسؤال بالعطاء والقبول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(٢).

ويقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: من أسمائه المجيب لدعوة الداعين، وسؤال السائلين، وعبادة المستجيبين، وإجابته سبحانه نوعان:

- إجابة عامّة لكلّ من دعاه: دعاء عبادة أو دعاء مسألة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. فدعاء المسألة يقول العبد: اللهم أعطني كذا، أو اللهم ادفَع عَنِّي كذا، فهذا يقع من البرّ والفاجر، ويستجيب الله فيه لكلّ مَنْ دعاه بحسب الحالة المقتضية وبحسب ما تقتضيه حكمته، وهذا يُستدلّ به على كرم المولى، وشمول إحسانه للبرّ والفاجر، ولا يدلّ بمجرّده على حسن حال الداعي الذي أُجيب دعوته إن لم يقترن بذلك ما يدلّ عليه وعلى صدقه وتعيّن الحقّ معه، كسؤال الأنبياء ودعائهم لقومهم وعلى قومهم فيجيبه الله، فإنّه يدلّ على صدقهم فيما أخبروا به وكرامتهم على ربّهم، ولهذا كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيراً

(١) تفسير سورة هود، ص ٢٣٤.

(٢) لسان العرب (١/٢١٦).

ما يدعو بدعاء يشاهد المسلمون وغيرهم إجابته، وذلك من دلائل نبوته وآيات صدقه، وكذلك ما يذكرونه عن كثير من أولياء الله من إجابة الدعوات فإنه من أدلة كراماتهم على الله.

- وأما الإجابة الخاصّة فلها أسباب عديدة، منها: دعوة المضطر الذي وقع في شدة وكربة عظيمة، فإن الله يجيب دعوته، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]. وسبب ذلك الافتقار إلى الله، وقوة الانكسار، وانقطاع تعلقه بالمخلوقين، ولسعة رحمة الله التي يشمل بها الخلق بحسب حاجتهم إليها فكيف بمن اضطر إليها.

ومن أسباب الإجابة طول السفر، والتوسّل إلى الله بأحبّ الوسائل إليه من أسمائه وصفاته ونعمه، وكذلك دعوة المريض والمظلوم والصائم، والوالد على ولده، أولى في الأوقات والأحوال الشريفة^(١).

إنّ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا قومه إلى الاستغفار والتوبة، ورغبهم في اللجوء إلى الله، وبيّن لهم بأن ربهم قريب مجيب فما كان جواب قومه إلا الإنكار والتوبيخ والصد والرد، فقالوا، ما ذكره الله تعالى في الآية الآتية.

٢- قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّ لَنَا فِي شَيْءٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ [هود: ٦٢].

في هذه الآية إجمال وتلخيص لدعوة نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه، وفي هذه الآية ردّ من القوم على دعوته، وهو الردّ المتوقع، رفض دعوة نبيهم لهم أفراد الله

(١) الحق الواضح المبين، ص ٦٥.

وحده بالعبادة، ودعواهم في ردّ دعوة النبيّ هي دعوى الأقوام: الآبائية، أي: أنّ دعوة النبيّ تخالف تقاليد الآباء وهي في نظرهم مقدّسة.

أ- ﴿قَالُوا يَصْلِحْ﴾:

قوم صالح يُنادونه باسمه لا للتقرّب والتودّد، وإنّما للتعوّد أي مازالوا يعاملونه كما لو كان قبل نبوّته.

ب- ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾:

- ﴿قَدْ﴾ للتحقيق، ﴿كُنْتَ﴾: على اعتبار ما كان أو لرسوخ الصفة^(١)، ﴿مَرْجُوًّا﴾ كان لنا رجاء فيك، وكنت مرجوًّا فينا لعلمك وعقلك وصدقك وحسن تدبيرك^(٢).

أي: كانت تلوح فيك مخايل الخير وأمارات الرشد، فكنا نرجوك لنتفع بك، وتكون مشاوراً في الأمور ومسترشداً في التدابير، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجائنا عنك، وعلمنا أن لا خير فيك^(٣). وقدم الجار والمجرور ﴿فِينَا﴾ على ﴿مَرْجُوًّا﴾؛ لأنّ الكلام يتعلّق بهم، فقدم ضميرهم ﴿فِينَا﴾.

ج- ﴿أَتَنْهِنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾:

بزعمهم أنّ هذا أعظم من القدح في صالح، كيف قدح في عقولهم وعقول آبائهم الضالّين، وكيف ينهاهم عن عبادة من لا ينفع ولا يضرّ ولا يُغني شيئاً، من الأحجار والأشجار ونحوها، وأمرهم بإخلاص الدين لله ربّهم الذي لم تزل نعمه عليهم

(١) تفسير سورة هود، ص ٢٣٧-٢٣٧.

(٢) أنبياء الله، أحمد بهجت، دار الشروق، ٢٠٠٦م، ص ٨٨.

(٣) على طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، دار الفكر، عمان، الأردن، طبعة ٢٠١٠م (٣/٢٥٥).

تتري، وإحسانه عليهم دائماً ينزل، الذي ما بهم من نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو^(١).

- ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾؛ تذكّرنا بما كان.

د- ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾:

- ﴿وَإِنَّا﴾؛ الواو للعطف، أو الاستئناف، أو الحال، تصلح لكل ذلك ولكل وجهاته.

- ﴿لَفِي شَكِّ﴾؛ اللام في خبر إن هي المرحلة، ووظيفتها التوكيد، وهي تنبئ عما يعتمل في صدورهم من شك وارتياب.

- ﴿لَفِي شَكِّ﴾؛ تفيد الاستغراق وتنكير كلمة (شك)، لتفيد التكثير.

- ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾؛ من الذي تدعوننا، أي: من دعوتك إيانا لعبادة الله وحده، ولعمارة الأرض والاستغفار.

- ﴿مُرِيبٌ﴾؛ والريب: الشك، كأنهم يقولون شك يستدعي شكاً آخر. وحقيقة الريبة قلق النفس واضطرابها^(٢).

- ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾؛ الشك هو أن يبقى الإنسان متوقفاً بين النفي والإثبات. والمريب هو الذي يظنّ به السوء فقلوله: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكِّ﴾؛ يعني به أنه لم يترجح في اعتقادهم صحة قوله.

(١) تفسير السعدي (٢/ ١٦٥).

(٢) تفسير سورة هود، ص ٢٣٨.

وقوله: ﴿مُرِيبٌ﴾، يعني أَنَّهُ تَرَجَّحَ فِي اعتقادهم فساد قوله، وهذه مبالغة في تزيف كلامه^(١).

إِنَّ الآيَةَ الْكَرِيمَةَ تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ الْآبَائِيَّةَ وَالتَّقْلِيدَ آفَةٌ خَطِيرَةٌ، وَحَتَّى عِنْدَ كَثِيرِينَ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُونَ عَنِ التَّقْلِيدِ وَيَنْعَوْنَ عَلَى فَاعِلِيهِ، وَهُمْ غَارِقُونَ فِيهِ حَتَّى الْأَذْقَانِ، وَقَدْ بَلَغَ بِالنَّاسِ التَّحَجُّرَ أَنْ يَعْجَبُوا مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَأَنْ يَحْلُلُوا الْعُقَائِدَ بِفَعْلِ الْآبَاءِ. وَالبَشَرُ طَبِيعَةٌ وَاحِدَةٌ وَرَوَايَةٌ وَاحِدَةٌ تَتَكَرَّرُ عَلَى مَدَى الْعُصُورِ وَالْأَهْوَالِ^(٢).

وَفِي قِصَّةِ إِسْلَامِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِبْرَةٌ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ خَالِدًا تَأَخَّرَ إِسْلَامُهُ إِلَى آخِرِ السَّنَةِ السَّادِسَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَ وَدَخَلَ فِي دِينِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا خَالِدُ أَنْتَ مَنْ نَعْرِفُكَ بِعَقْلِكَ وَسَمْتِكَ، مَا الَّذِي أَخَّرَ إِسْلَامَكَ؟ لِمَاذَا تَأَخَّرَ إِسْلَامُكَ؟ سَبَقَكَ النَّاسُ بِعِشْرِينَ سَنَةً إِلَى الْإِسْلَامِ، الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَائِلَ: أَبُو بَكْرٍ، عُمَرُ، عِثْمَانُ، عَلِيٌّ، طَلْحَةُ، الزُّبَيْرُ، عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، أَبُو عُبَيْدَةَ، سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ، بِلَالٌ، صَهِيْبٌ، عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، هَؤُلَاءِ أَسْلَمُوا قَبْلَ خَالِدٍ بِعِشْرِينَ سَنَةً، عِشْرُونَ سَنَةً عَلَى الْكُفْرِ لَمْ تَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ، مَا الَّذِي أَخَّرَ إِسْلَامَكَ يَا خَالِدُ؟ فَقَالَ: قَدْ كَانَ يَسُوسُنَا رِجَالٌ، وَكُنَّا نَرَى أَنَّ عَقُولَهُمْ تَزُنُّ الْجِبَالَ^(٣)، فَكُنَّا تَبَعًا، فَلَمَّا مَاتُوا وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَيْنَا، فَكَّرْنَا فِي الْأَمْرِ، فَعَرَفْنَا الْحَقَّ فَاتَّبَعْنَاهُ.

إِذْنٌ فِي السَّابِقِ مَا كَانَ يُفَكِّرُ، مَا كَانَ يُسَمِّحُ لِنَفْسِهِ أَبَدًا أَنْ يُفَكِّرَ؛ اتِّبَاعًا لِلْآبَاءِ، اتِّبَاعًا لِلْأَجْدَادِ، اتِّبَاعًا لِلْكِبَرَاءِ، فَلَمَّا رَجَعَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ وَصَارَ مِنْ كِبَارِ قُرَيْشٍ، فَكَّرَ،

(١) تفسير الرازي (٦/٣٦٨).

(٢) تفسير سورة هود، ص ٢٣٩.

(٣) فبهذا هم اقتدوه، قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، عثمان الخميس، دار إيلاف الدولية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، ص ٩٨.

فلَمَّا فَكَّرَ عرف الحقَّ واتبَّعه، فقد أراد الله له الهداية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما أَنَّ قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ أُصيبوا بالاستكبار والعناد والجحود، مع تقاليد الآباء بطريقة بعيدة عن العقل والحكمة والمنطق.

إِنَّ العقائد الباطلة الراسخة المأخوذة عَمَّن يُحسن بهم الظنَّ - من آباء أو غيرهم - من أكبر الموانع لقبول الحقِّ، وكذلك قالت جميع الأمم المكذَّبة رادِّين دعوة الرسل: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]؛ وهذا هو سبيل أهل الباطل في كلِّ زمان، يتعلَّقون بأوهى الحجج لتبرير مسلكهم في اتباع الآباء^(١).

رفضت ثمود دعوة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، لحجج واهية، وبتقليد أعمى استحکم على النفوس والعقول، وهذا التقليد الأعمى هو الذي أضرَّ بالكثيرين، ولذلك تأتي الآيات كثيراً في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

- ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

- ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

- ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

- ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وهكذا تأتي الآيات: أبصر، تذكَّر، فكَّر، أعقل^(٢).

(١) الدروس المستفادة من العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، عبد الهادي الشمراني، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ص ٢٣٤.

(٢) فبهذا هم اقتده، ص ١٠١.

وقد ردّ سيدنا صالح عَلَيْهِ السَّلَام على قومه عندما قالوا له: ما زلنا شاكّين فيما دعوتنا إليه شكّاً مؤثراً في قلوبنا الريب، بزعمهم أنّهم لو علموا صحّة ما دعاهم إليه لاتبعوه؛ هم كذبة في ذلك، ولهذا بيّن لهم كذبهم^(١)، في الآية الآتية:

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَوْنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣].

بعد أن قالوا للنبيّهم في شكّ مما يدعوههم إليه، ناقشهم صالح عَلَيْهِ السَّلَام بأمرين: أمر عقليّ منطقيّ، وأمر قائم على الحجّة الملزمة.

فأمّا الأمر العقليّ المنطقيّ فإنّه قال لهم:

أ- ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَوْنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾:

- ﴿قَالَ يَاقَوْمِ﴾؛ قال صالح عَلَيْهِ السَّلَام: يا قوم؛ نداء فيه تودّد وحنان ولطف ورفق وتقرب إليهم. وبدأ جوابه بالنداء، لقصد التنبيه إلى ما سيقوله اهتماماً بشأنه، وإيثار مناداتهم بلفظ (قوم)، لاستمالتهم؛ لأنّه يدلّ على إخلاصه في نصحه لهم، وكمال بشفقته عليهم، وتذكيرهم بأنّه منهم ولا يريد لهم إلّا خيراً.

- ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾؛ الهمزة همزة استفهام تعجّب وتقرير. والرؤية رؤية قلبية، أو فكريّة، بمعنى العلم بشكل مؤكّد^(٢). أي: أخبروني. والاستفهام هنا استفهام عن الرؤية بمعنى الاعتقاد، وهو استفهام تقريريّ. وبالإضافة إلى ذلك فقد حمل هذا الاستفهام معنى التعجّب، وعبر بالرؤية دون العلم ونحوه لما في الرؤية من قوّة إثبات الحجّة لقيامها على المشاهدة والتأمّل.

(١) تفسير السعدي (٢/ ١٦٥).

(٢) تفسير القرآن الشري الجامع (٥/ ٢٣٩).

- ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾؛ ﴿إِنْ﴾؛ تفيد هنا معنى لو. ﴿عَلَىٰ﴾؛ تفيد التمكين. ﴿بَيِّنَةٍ﴾؛ الحجّة الواضحة والدليل المقنع القاطع. ﴿مِّن رَّبِّي﴾؛ أي كائنه من عنده سبحانه. واختار لفظ ربّي المفيد للتربية والتعهد للمناسبة، أي لأنّه الأنسب، وأضاف الربّ إلى ضمير المتكلم للتشرف^(١) وللدلالة على رعاية وعناية خاصّة به عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذ خاصّه الله بالرسالة والرحمة من فضله^(٢).

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: واختيار وصف الرب دون اسم الجلالة للدلالة على أنّ إعطائه البيّنة والرحمة فضل من الله أراد به إظهار رفقه وعنايته به^(٣).

- ﴿وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ﴾؛ أي أعطاني ربّي منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رحمته، وهي النبوة^(٤).

ب- ﴿فَمَنْ يَصْرِفُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾:

فمن يحميني من غضبه، ويقيني من عقابه إن عصيته بعدم تبليغ دعوته.

ج- ﴿فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾:

أي: إن عصيت الله وأطعتمكم فإنكم لا تزيدوني غير حسرات بهذه الطاعة لكم^(٥).

أي: ما تزيدوني إلاّ خسارة على خسارة، غضب الله، وحرمانني شرف الرسالة، وخزي الدنيا، وعذاب الآخرة، وهي خسارة بعد خسارة، ولا شيء إلاّ التخسير والتثقيل والتشديد^(٦).

(١) تفسير سورة هود، ص ٢٤٠.

(٢) النظم القرآني في قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ص ٩٤.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) تفسير سورة هود، ص ٢٤٠.

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) في ظلال القرآن (١٩٠٨/٤).

وجملة: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾؛ جواب الشرط، وهو: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾؛ والمعنى إلزام وجدل، أي: إن كنتم تنكرون نبوتي وتوبخوني على دعوتكم؛ فأنا مؤمن بآتي على بينة من ربي، أفترون أنني أعدل عن يقيني إلى شككم، وكيف تتوقعون مني ذلك، وأنتم تعلمون أن يقيني بذلك يجعلني خائفاً من عذاب الله إن عصيته ولا أحد ينصرني.

والكلام على قوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾؛ كالكلام على قوله: ﴿مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ [هود: ٣٠] في قصة نوح.

وفُرع على الاستفهام الإنكاري جملة: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾؛ أي: إذا كان ذلك فما دعاؤكم إليّ إلا يسعى في خسراني^(١).

قال الإمام الجليل محمد أبو زهرة رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾؛ أي: فإنكم بهذا لا تزيدونني غير خسارة مضاعفة، بعد هذا ذكر لهم المعجزة، وقد كانوا في الصحراء سفيتهم فيها الناقة لها خواص ليست لكل صواحبا تجعلوها غير مشابهة لهم، وهي آية لهم ونذير، إن اعتدوا عليها، وجعل لها شرب أي ماء غير شرب سائر النوق، فقال لهم عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما قصّه الله تعالى^(٢).

٤- قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ فَإِذَا حُذِرْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

(١) التحرير والتنوير (٢٦٧/٥).

(٢) زهرة التفاسير أبو زهرة، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، دون تاريخ (٨/ ٣٧٢٥).

هذه الآية الكريمة، فيها ردّ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه، وهي آخر مرافعته قبل أن يحلّ بهم العذاب، بينما السابقة تكلمت عن ردّ قومه على دعوته، بينهما كمال الاتصال وتمام الاتساق.

أ- ﴿وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾:

- ﴿وَيَقَوْمِ﴾؛ هذا هو النداء الثالث والأخير يُنادي به صالح قومه مُتردداً منذراً محذراً.

- ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾؛ ﴿هَذِهِ﴾؛ اسم إشارة للقريب لتلفت الأنظار. ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾؛ وإضافة الناقة إلى الله لتعظيم شأنها، ولتحذيرهم ضمناً من التعدي عليها^(١).

- ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾؛ وفي تخصيصها لهم: ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾، ما يشير إلى أنّها كانت ذات صفة خاصة مميزة، يعلمون بها أنّها آية لهم من الله، ونكتفي بهذا دون الخوض في ذلك الخضم من الأساطير، والإسرائيليات التي تفرقت بها أقوال المفسرين حول ناقة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢).

والآية: العلامة الدالة على شيء، وهنا معناها: العلامة الدالة على أنّها من عند الله، وعلى أنّي رسول الله، وأنّ ما أدعوكم إليه حق^(٣).

(١) تفسير سورة هود، ص ٢٤٢.

(٢) في ظلال القرآن (٤/١٩٠٨).

(٣) تفسير سورة هود، ص ٢٤٢.

ب- ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾:

الناقة ناقة الله، والأرض أرض الله، لأنَّ كلَّ ما في الكون من كائنات ومملوكات هي لله سبحانه.

- ﴿فَذَرُوهَا﴾؛ اتركوها تأكل ممَّا تشاء، وأين تشاء، وكيف تشاء، وليس عليكم رزقها أو تدبيرها^(١).

ج- ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾:

لم يقل: لا تقتلوها، بل نهى عن مجرّد مسّ الناقة بأيّ سوء، أو أذى بسوء نكرة مهما كان شكله ونوعه، ولو كان أدنى القليل، وغيره من أنواع الأذى. والسوء أعمّ من القتل؛ أي: يشمل القتل^(٢).

وإن النهي عن المسّ الذي هو مقدّمة الإصابة بالشرّ الشامل لأنواع الأذى مبالغة في الزجر، أي: لا تتعرّضوا لها بشيء ممّا يسوؤها أصلاً كالطرد، والعقر، وغير ذلك^(٣). ونكرّ السوء ليشمل أيّ سوء مهما كان ضئيلاً^(٤).

د- ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾:

- (الفاء)؛ هذه فاء السببية، وما بعدها منصوب بأن مقدّرة، ففعلكم متسبّب في وقوع العذاب بكم، وهو عذاب قريب وشيك، وعبر عن وقوع العذاب بالأخذ بقوله:

(١) تفسير القرآن الثري الجامع (٥/ ٢٤١).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) على طريق التفسير البياني (٣/ ٢٥٩).

(٤) المصدر السابق نفسه.

- ﴿فَيَأْخُذْكُمْ﴾؛ ليفيد القوة، والهيمنة، وقلة شأنهم أمام هول العذاب، فهو يأخذهم كما تأخذ حزمة قش صغيرة بيدك، ويفيد الإحاطة، كل هذا وغيره في ظلال لفظة واحدة وهي ﴿فَيَأْخُذْكُمْ﴾، فيا لبلاغة القرآن، ويا لإيحائه، وإيماءاته، وغزارة دلالاته^(١).

- ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾؛ هنا وصف العذاب بالقرب لعلة التحذير الأقوى، ولم يعبر بالشديد، لأن من آمن أن العذاب قريب وشيك أغناه عن ذكر شدته، ويكفي ما أوحى به يأخذكم من قوة، وبأس، وإحاطة، وشدة^(٢).

- ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾؛ وصف العذاب ههنا بأنه قريب، وقال في الأعراف: ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]؛ فوصفه بالأليم، وفي سورة الشعراء وصفه (يوم عظيم): ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦]. ذلك أنه قال لهم ههنا: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، وهذا وعد قريب، فناسب ذكر القرب. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنه في الأعراف والشعراء كان في بداية الدعوة التبليغ، فلا يناسب ذكر التعجيل بالعقوبة، في حين كان الكلام في هود في نهاية الدعوة والتحدي والإعراض بعد أن بلغهم ونصح لهم فناسب ذكر قرب العذاب في سورة هود^(٣).

إن الناقة اختارها الله عَزَّجَلَّ؛ لتكون معجزة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، لذلك نسب صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ الناقة إلى الله ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾، مع أن كل شيء من المخلوقات منسوب

(١) تفسير سورة هود، ص ٢٤٣.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) تفسير القرآن الشري الجامع (٥/ ٢٤١).

إلى الله، ولكن الله تعالى اختارها لتكون معجزة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، كان ذلك له فضل اختصاص في النسبة إلى الله تعالى^(١)، لكن قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يستجيبوا للترغيب ولا التهيب ولا النهي عن مساس ناقة الله، فقاموا بعكس ما أمرهم به ونهاهم عنه.

٥- قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

ففي الآية السابقة نهاهم عن مجرد مسّ الناقة، وكأنّ التحذير كان تحريضاً على العكس، فعقروها فجاءهم ما يوعدون، فالآية نسق مع ما سبق^(٢).

أ- ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾:

- ﴿فَعَقَرُوهَا﴾؛ جاءت الفاء للتعقيب، لإفادة مسارعتهم في عصيان الأمر ومخالفة النهي، فهم نُهوا عن المسّ مجرد المسّ، فأتوا بما هو أشدّ وأسوأ بما لا يُقاس، عاملوها بالعقر.

وإن العقر يُستخدم في حقّ الناقة، ومن لم ير كيف تُذبح الإبل لم يتصور المعنى، فالناقة تُعقر لأنّه لا يستطيع أن يقترب منها أحد لقوّة الإبل، فتقيّد اليدان أولاً، ثمّ تُطعن لتنزف وتفقد الكثير من قوّتها ثمّ تُنحر، فهذا عقر الناقة ومعناه قتلها باختصار، سواء استُخدمت للأكل أم لا^(٣).

(١) زهرة التفاسير (٧/ ٣٧٢٥).

(٢) تفسير سورة هود، ص ٢٤٥.

(٣) المصدر السابق نفسه.

- ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾؛ فصار يُضرب المثل بمهلة ثمود، وقد قالها أي هذه الكلمة أبو نؤاس للرشيد: أمهلني مهلة ثمود^(١).

- ﴿تَمَتَّعُوا﴾؛ كلوا، واشربوا، وامرحوا، وامضوا في حياتكم على مرضاة شأنكم، ومعتاد أمركم؛ فإنّ الذي ينتظركم مهول رهيب مهيب محذور خطير... فتمتّعوا بين يدي عذاب سيّطول عليكم فوق ما تتوقّعون، فاغتمّوا قبل أن تغتمّوا غمّاً مقيماً^(٢).

- ﴿فِي دَارِكُمْ﴾؛ في مواطنكم، أو في مساكنكم وعبر بالفرد: ﴿دَارِكُمْ﴾؛ لإفادة أنّ كل فرد يستمتع في داره، أو كما قلنا في أوّل الكلام، أي: في مكان إقامتكم في ديار ثمود فهي موطنكم أو داركم المؤقّته إلى حلول العذاب، فلن تُسكن من بعدكم لأنّه لن تكون لكم ذريّة يسكنون دوركم من بعدكم ويجددونها كلّما تقادمت أو تضعضعت^(٣).

وهناك من العلماء من يرى أنّ ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ تعني البلدة أو القرية. أمّا (دياركم) تعني: المنازل أو المساكن^(٤).

- ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾؛ هذه الأيام هي التي أنظر فيها نبيّ الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه ثمود، بأن يتمتّعوا فيها بالعيش في دارهم، ثمّ يأتي يوم الهلاك والعذاب^(٥). وهذه مهلة يسيرة. ولك أن تصوّر أنّهم عاشوها في الترقّب، وإن كان بعضهم مستهتراً

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٤١.

(٤) تفسير القرآن الشري الجامع (٥/ ٢٤١).

(٥) تفسير سورة هود، ص ٢٤٦.

مستخفًا، لكنهم في أعماقهم يُقرّون أنّ الأمر قد يؤول إلى ما يقول صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فتكون الطامة! والثلاثة أيام مهلة في عمر الزمن أقلّ من لمح البصر^(١).

ب- ﴿ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾:

- ﴿ذَلِكَ﴾؛ استخدم اسم الإشارة ذلك بـ(لام) البعد إمّا لتحويله فهو بعيد الشأن في هوله، وإمّا لاستبعاد وقوعه، ونزول ذلك الذي تستبعدونه. وأمّا الثالثة أن يعتبر بمقاييسهم الثلاثة أيام مهلة طويلة ومعلومة بنسبة الزمن، فالثلاثة أيام لا تُقاس بمقياس واحد، ففي عمر الزمن هي صفر، وعلى المنتظر دهر، فمن أين شئت نظرت.

- ﴿وَعَدٌ﴾؛ موعد مضروب وتوقيت محدّد. ونكّر كلمة (وعد) لإقامة تعظيمه وتهويله وصدقه وعلوّ شأنه.

- ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾؛ غير مخالف ولا منقوض، ولا يقبل التأخير ولا التحويل ولا التبديل، فهو حقّ صادق، حقّ مطابق لما سيكون، مطابق للوعد والوعد، والموعد المضروب^(٢).

- ﴿مَكْذُوبٍ﴾؛ صيغة مبالغة من (كذب)، أي: وعد صادق لا ريب فيه. والوعد عادة يأتي في الخير. واستعماله هنا للتهكّم، وهو من قبيل تأكيد الشيء بنفي نقيضه^(٣).

وعلق الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ عن الآية الكريمة، فقال: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾؛ إنّما عقرها بعضهم. وأضيف الفعل إلى الكلّ لأنّه كان برضى الباقيين.. ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا﴾؛ أي:

(١) الأيام والليالي في القرآن، محمد رقات الفرّح، ص ١٦.

(٢) تفسير سورة هود، ص ٢٤٧.

(٣) تفسير القرآن الشري الجامع (٢٤٢/٥).

قال لهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ تَمَتَّعُوا، أي: بنعم الله عَزَّجَلَّ قبل العذاب ﴿فِي دَارِكُمْ﴾؛ أي: في بلدكم. ولو أراد المنزل لقال في (دوركم). وقيل: أي يتمتع كل واحد منكم في داره ومسكنه، كقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [غافر: ٦٧]؛ أي كل واحد طفلاً^(١).

ومن الدروس والفوائد والعبر من الآية الكريمة:

- أحمق الحمقى: من يفعل الفعل، ولا يتفكر في العواقب.
- الزمن أعظم فرصة، بل أعظم ثروة مهدورة.
- ربّما يأتي على الناس زمان يتمنون فيه لو أعطوا فسحة ساعة من الزمان، وقد كان معهم عمر فبدّوه.
- وعد الله حقّ واقع، وصدق ثابت لا يخلف ولا يكذب.
- فساد القلب يؤدّي إلى الاستهتار.
- وبعدما عقروا الناقة، جاء أمر الله في مواعده.
- ٦- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].
- أمهل النبيّ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ - بإعلام من ربّه تعالى - قومه ثلاثة أيّام، بانتظار أن تنقضي ليجيء الوعد، ويحلّ عليهم العذاب، وها قد جاء في هذه الآية موعد العذاب، وأجله الذي أجله الله.
- أ- ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾:

(١) المصدر السابق نفسه.

- (الفاء)؛ للتعقيب.

- ﴿فَلَمَّا﴾؛ تُفيد أوّل حدوث الشيء فأفادت السرعة من وجهين.

- ﴿أَمَرْنَا﴾؛ أي: وعَدنا بحلول العذاب، وأمر العذاب بأن ينزل بهم، وأضاف الأمر إلى ضميره بنون العظمة.

ب- ﴿بَنَجِّنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾:

- ﴿بَنَجِّنَا صَالِحًا﴾؛ عبّر بنَجِّنَا دون أنجينا ليُفيد تجلّي المشهد، بينما أنجينا تتكلّم بصورة إجمالية نهائية، ونَجِّنَا تُفيد أناة في عرض المشهد وتفصيلاً للنّجاة. وبلغه العصر: بالتصوير البطيء.

- ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾؛ أي: أنّ النّجاة شملت صالحاً والذين آمنوا معه، ونَجِّنَاهُمْ معه أيضاً.

ج- ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾:

- (الباء)؛ سببية، أي بسبب هذه الرحمة الكائنة منّا^(١).

فذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ نَجَّاهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ، ولم يقل مثل ذلك في موضعين آخرين، فقد قال في سورة النمل: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣]. وقال في فصلت: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨]. ولم يقل بِرَحْمَةٍ مِنَّا.

وذلك - والله أعلم - أنّه ذكر صفتين في سورتي النمل وفصلت، وهما الإيمان والتقوى، فقد قال فيهما: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨]. ولم يذكر

(١) تفسير سورة هود، ص ٢٤٨.

في سورة هود غير صفة واحدة وهي الإيمان، فاتسعت رحمته لتُمثّل من كان مؤمناً وإن لم يكن متّقياً، فناسب ذكر الرحمة في هذا الموضع، وإن كانت النجاة برحمته وليست بشيء آخر^(١).

وقد ورد الفعل: ﴿وَنَجَّيْنَا﴾ [فصلت: ١٨] على صيغة: (فعل)، التي تُفيد التكثير والمبالغة. وهذه الصيغة هي الأنسب من غيرها في هذا السياق بالنظر إلى من نجّاه الله، وبالنظر إلى العذاب الذي نجّوا منه، أمّا الذين نجّاهم الله فهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، والذين آمنوا وقد أُفرد ذكر صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعطف عليه الذين آمنوا فكأنّ النتيجة هنا مضاعفة، وهذا يناسب صيغة (فعل) التي تُفيد التكثير والمبالغة. وأمّا من حيث ما نُجّوا منه، فقد أنجاهم الله من العذاب والخزي والفضيحة.

وهذه الأمور مجتمعة النجاة منها مضاعفة، فكأنّما نتيجة بعد نتيجة، بالإضافة إلى أنّ السياق دلّ على هول العذاب. والآنسب أن يكون التعبير عن الإنجاء من الأمر المهور والمقحم بصيغة التكثير والمبالغة.

وإسناد التنحية إلى نون العظمة، يدلّ على أنّها نجاة عظيمة، ومِنَّة منه عَزَّجَلَّ تكريماً وتشريفاً لصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ والذين آمنوا معه. وعطف: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ على: ﴿صَلِّحًا﴾ من باب عطف العام على الخاص. والنكته في ذلك تمييز صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ والاهتمام به، والتنبيه على فضله وشأنه بتقديمه وذكره أولاً، وأنّ المذكورين بعده أتباع له. وذكر العام بعده يدلّ على العموم، وشمول بقيّة المؤمنين بالنجاة^(٢).

(١) على طريق التفسير البياني (٣/ ٢٦١).

(٢) النظم القرآني في قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ص ١٠٠.

ثم إنَّ في تخصيص صالح عليه السلام بالذكر تهيئةً للنبي صلى الله عليه وسلم وإشارة إلى أنَّ الله عزَّ وجلَّ سينصره كما نصر صالحاً عليه السلام قبله، وأنَّ الله يحفظ أنبياءه ورسله ويرعاهم ويكلؤهم بعنايته، وأنَّ الارتباط بقوله تعالى: ﴿وَلَا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِهٖ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]. وتعريف ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، بالصلة والتعظيم والإشعار بمكانتهم؛ لأنها تُفيد معيَّتهم لصالح عليه السلام. والتنبيه على أنَّ سبب نجاتهم ورحمة الله لهم، هو إيمانهم بصالح عليه السلام، كما أنَّ في ذلك تعريفاً للمشرِّكين، بأنَّه لن ينجو من عذاب الله إلَّا المؤمنون^(١). وقوله: ﴿بِرَحْمَةٍ﴾؛ التنوين للتفخيم، أي: بسبب رحمة عظيمة^(٢). وتقييد هذه الرحمة بالجار والمجرور: ﴿مِمَّنَّا﴾، يُفيد أنَّ إحسانه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَكُونُ إلَّا فضلاً منه^(٣).

د- ﴿وَمِنْ خِزْيٍ يَوْمَئِذٍ﴾:

أي: نجبتناهم -صالحاً والذين آمنوا معه- من خزي ذلك اليوم، فقوله: ﴿وَمِنْ﴾: عطف مع تقدير العامل، أي: ونجبتناهم من خزي يومئذ. والتنوين عوض، أي: يوم نزول العذاب^(٤).

والخزي: هوان ومقت وإبعاد من الله^(٥).

(١) النظم القرآني في قصة صالح عليه السلام، المصدر السابق، ص ١٠١.

(٢) تفسير أبو السعود (٢٢٣/٤).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي (٣٢٣/٩).

(٤) تفسير سورة هود، ص ٢٤٩.

(٥) استنباط الأهداف من القرآن من سورتي يونس وهود، بسام عبد الملك، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، ٢٠١٨م، ص ٢٩.

- ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾؛ ونَجِّيناهم من هوان ذلك اليوم وذلّه، ومن ذلك العذاب^(١). ولا خزي أعظم مَن كان هلاكه بغضب الله وانتقامه^(٢).

هـ- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾:

ناسب مجيء الأمر وصفه تعالى بالقويّ العزيز، فإنَّهما من صفات الغلبة والقهر والانتقام^(٣).

وفُصِّلَت جملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ عمّا قبلها، لأنّها تذييليّة تُفيد التعليل، لأنّ من كان قوياً عزيزاً ينصر أوليائه، ويهلك أعداءه. وفي ذلك تسليّة للنبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وجملة التذييل التعليليّة إذا أُكِّدَتْ فإنّ التأكيد يُفيد الاستقلال، وهو في الوقت نفسه يربطها بما قبلها ربطاً معنوياً. وقد أُكِّد الخبر بعدّة مؤكّدات للاهتمام به، وهي: (إنّ) و(ضمير الفصل)، وهما يفيدان القصر^(٤)، فصار المعنى: إنّ ربّك هو القويّ العزيز لا غيره^(٥).

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾؛ بإضافة الرب إلى ضمير المخاطب - وهو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تحذيراً لقريش من مغبّة موقفهم من رسول الله، فإنّ ربّك يفعل بهم ما فعل بالأقوام البائدة الذين أهلكهم الله كما قال محدّراً لهم: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]^(٦).

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٦٤-٦٥).

(٢) تفسير سورة هود، ص ٢٤٩.

(٣) البحر المحيط (٥/ ٢٤٠).

(٤) النظم القرآني في قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَام، ص ١٠١.

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) على طريق التفسير البياني (١/ ٢٦١).

والتعبير بالربوبية في خطاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبيان عناية الله به وإحسانه إليه كما أحسن إلى الأنبياء قبله^(١). وعَرَّفَ الخبر، وجاء بضمير الفصل، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾، ولم يقل (إن ربك قوي عزيز)؛ ليدل على أنه لا قوي غيره على الحقيقة، ولا عزيز غيره على الحقيقة، بل هو وحده القوي العزيز.

وقال في سورة الشورى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩]؛ فأكد في آية هود قوته وعزته بـ﴿إِنَّ﴾، ولم يؤكد ذلك بالشورى، فلم ذلك؟

والجواب: أنه أكد في آية هود لأنَّ المقام مقام عقوبة، وإنجاء صالح ومن آمن معه، وذلك يستدعي تأكيد القوة والعزة. وأمَّا السياق في الشورى فإنه في لطفه بعباده، فلا يستدعي ذلك تأكيدها.

وقدَّم (القوي) على (العزيز) لأنه قويٌّ فعزٌّ، فإنَّ العزة إنما تكون من القوة، ولذلك حيث اجتمع هذان الوصفان في القرآن الكريم قدَّم القوي على العزيز، وذلك نحو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]^(٢).

- ﴿الْقَوِيُّ﴾ [الشورى: ١٩]؛ من أسماء الله الحسنى، وقد ورد اسم القوي في القرآن الكريم (تسع مرات) جاء في أكثرها مقترناً باسمه العزيز، كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. وورد مرتين

(١) النظم القرآني، ص ١٠٢.

(٢) على طريق التفسير البياني (١/ ٢٦٢).

مقترناً بشديد العقاب، كما في قوله تعالى: ﴿فَكْفُرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢٢].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢٢]؛ القويّ: الذي لا يغلبه غالب، ولا يردّ قضاؤه رادّ ينفذ أمره، ويمضي قضاؤه في خلقه، شديد عقابه لمن كفر بآياته، وجحد حُججه^(١). وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب^(٢). وقال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: هو الذي لا يستولي عليه العجز في حال من الأحوال. والمخلوق وإن وُصف بالقوّة، فإنّ قوّته متناهية وعن بعض الأمور قاصرة^(٣).

وقد ورد الاقتران في القرآن الكريم بين اسمه سبحانه (القوي)، واسمه (العزیز) في سبع آيات، وهناك معنى زائد في الجمع بين الاسمين، وهو أنّ العزّة التي يتضمّنهما اسم الله عَزَّجَلَّ (العزیز) هي عزّة القوّة، وعزّة الغلبة، وعزّة الامتناع، ووصف الله عَزَّجَلَّ بالقوّة راجع إلى كمال عزّته^(٤).

ومن آثار الإيمان باسمه (القوي) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ التواضع لله تعالى ولخلقه، والشعور بالضعف الشديد أمام قوّة الله عَزَّجَلَّ، والتوكّل على الله وحده الذي لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، والاستهانة بقوّة المخلوق والثقة في نصر الله عَزَّجَلَّ وكفايته للمؤمنين، فمهما بلغت قوّة الكافرين، وعددهم وعنادهم، فالله فوقهم ونواصيهم بيده، وقوتهم لا شيء في جنب قوّة الله تعالى، ولكن بشرط

(١) تفسير الطبري (١٠/ ١٧-١٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٠).

(٣) شأن الدعاء، حمد محمد الخطابي، دار الثقافة العربية، ١٩٩٢م، ص ٧٧.

(٤) والله الأسماء الحسنى، ص ٤٠١.

الأخذ بأسباب النصر والعزة، وعدم الخوف من المخلوق والتبدد من الحول والقوة، حيث لا قوة للعبد على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وترك معاصيه والصبر على أحكامه القدريّة إلّا بقوة الله عَزَّوَجَلَّ وتوفيقه. ولو وكل العبد إلى نفسه وحوله وقوته؛ لضاع وهلك وخسر، ولذا قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن قيس: «يا عبد الله بن قيس، ألا أعلمك كلمات هي من كنوز الجنة، لا حول ولا قوة إلّا بالله»^(١). وثبت عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعائه أنّه قال: «يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً»^(٢).

- ﴿الْعَزِيزُ﴾؛ من أسماء الله الحسنى ورد اسم (العزیز) في القرآن في اثنتين وتسعين مرة، جاء في أكثرها مقترناً بأسماء أخرى من أسمائه سبحانه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وقوله سبحانه: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ [سورة ص: ٩]. وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤]. وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩]، وقد تكرّر في السورة كثيراً. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [سورة ص: ٦٦]. وقوله سبحانه: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿الْعَزِيزُ﴾؛ أي: الذي قد عزّ كل شيء قهره، وغلب الأشياء فلا ينال جنبه لعزّته وعظمته وجبروته وكبريائه^(٣).

(١) البخاري، رقم (٦٤٠٩).

(٢) عمل اليوم والليلة، أحمد بن شعيب النسائي، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ٢٠٠٦م، صححه الألباني.

(٣) تفسير ابن كثير (٤/٣٤٣).

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: ﴿الْعَزِيزُ﴾ : الذي له العزّة كلّها؛ عزّة القوّة، وعزّة الغلبة، وعزّة الامتناع، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة، وخضعت لعظمته^(١).

وحظّ المؤمن من اسم (العزیز): أن يحقق العبوديّة للعزیز، ويعتزّ به، ويشعر بذلك، ويتوكّل عليه، ويستعين به، ولا يتكبر على عباده، ولا يخشى أعدائه. ولا عجب أن نقراً لشاعر مؤمن يناجي ربّه في عبوديّة عزيزة بالله متذلّلة إليه، غنيّة بالله، فقيرة إليه:

ومما زادني شرفاً وعزّاً وكدت بأخمصي أطأ الثرباً
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن أرسلت أحمد لي نبياً
وقال سيّدنا عمر بن الخطّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: نحن كُنّا أذلّ قوم، فأعزّنا الله بالإسلام، فمهما نلتمس العزّة بغيره أذلّنا الله^(٢).

إنّ الآية الكريمة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾، تُبيّن لنا إنّ الله هو القويّ العزيز، فلا يغالب ولا ينازع في ملكه، ورحمته تسع كلّ الخلائق لكن من خرج عنها حُرْم منها، والله سبحانه يأخذ العُتاة أخذاً، ولا يعزّ عليه أمر ولا يهون من يتولّاه ويرعاه، وعذاب الآخرة هو العذاب، وعذاب الدنيا على شدّته مقدّمة يسيرة^(٣).

(١) تفسير السعدي (٥/ ٣٠٠-٣٠١).

(٢) موسوعة القرضاوي (٧/ ٤٢٢).

(٣) تفسير سورة هود، ص ٢٥٠.

٧- قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧].

تكلّمت الآية السابقة عن نجاة المؤمنين، وفي هذه الآية تكملة الصورة بالحديث عن هلاك المكذّبين الكافرين.

أ- ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾:

- ﴿وَأَخَذَ﴾؛ الواو للعطف، وعبر بالماضي المذكور دون (أخذت) لتقوية الأخذ. وعبر بالأخذ لإفادة القوّة والشدّة والبأس.

- ﴿الَّذِينَ﴾؛ وعبر بالاسم الموصول (الذين) لاستحضار صلته وهي: ﴿ظَلَمُوا﴾؛ ليسجلّ عليهم ظلّمهم.

- ﴿الصَّيْحَةَ﴾؛ أي: طوّقتهم الصيحة من كلّ مكان، وهي الصوت المفزع، ومعها الزلزلة الشديدة، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِمِينَ﴾.

وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ: كانت الصيحة في اليوم الرابع من عقر الناقة، صيح بهم فماتوا. وذكر الفعل لأنّ الصيحة والصياح واحد، مع كون التأنيث غير حقيقي: قيل صيحة جبريل، وقيل من السماء فتقطّعت قلوبهم وماتوا^(١).

وقال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: الصيحة: الصاعقة^(٢).

(١) فتح القدير في الجمع بين فني التفسير، محمد علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، نشر وتوزيع المكتبة التجارية بمكة المكرمة (٥٦٦/٤).

(٢) موسوعة التفسير بالمأثور، المشرف العلمي مساعد الطيار، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م (٢٣٢/١١).

وقال مقاتل بن سليمان رَحِمَهُ اللهُ: الصيحة صيحة جبريل^(١).

ب- ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِمِينَ﴾:

- ﴿الفاء﴾؛ للتعقيب.

- ﴿فَأَصْبَحُوا﴾؛ إمّا من الإصباح، وإمّا لمطلق الأوقات، كما قال: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوسَىٰ فَارِغًا﴾ [القصص: ١٠]، لا يقصد وقتاً بعينه، وإنّما صار كذلك.

- ﴿فِي دِيرِهِمْ﴾؛ في بيوتهم ومساكنهم، في بلدتهم، وقُدِّمت على جاثمين، للاهتمام بها وإظهار أنّها لا تحميهم.

- ﴿جَثِمِينَ﴾؛ الجثوم: الانكباب على الوجوه، وهي كناية على هلاكهم على هذه الحالة^(٢).

- ﴿جَثِمِينَ﴾؛ باركين على الركب أو مقيمين. والمراد أنّهم هامدون صرعى لا حراك بهم من الجثوم، وهو للناس والطير بمنزلة البروك للإبل، يُقال جثم الطائر يجثم جثوماً^(٣).

وقد عبّر عن ثمود بالذين ظلموا، للإيماء بالموصول: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ إلى علّة ترُتّب الحكم، أي: لظلمهم، وهو ظلم الشرك. وفيه تعريض بمشركي أهل مكّة بالتحذير أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك لأنّهم ظالمون أيضاً^(٤).

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) تفسير سورة هود، ص ٢٥٢.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) تفسير التحرير والتنوير (٥/ ٥٦٨).

ومن الدروس المستفادة من الآية الكريمة:

- الهلاك باستئصال من يُكذّب بآيات الله.
- قد لا يكون الهلاك الآن بالاستئصال الشامل، كما حصل مع الأمم السابقة، ولكن ربّما يكون الهلاك بالأوبئة والحروب وما أشبه ذلك.
- لا يحمي من قَدَر الله شيء إذا وقع.
- الإيمان منجاة.

- القرآن الكريم تتكامل آياته، فما أُجْمِل في موضع، يُفَصِّل ويكمل في موضع آخر، فالأعراف وهود تكاملتا في بيان عذاب ثمود صالح^(١).

٨- قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ [هود: ٦٨].

هذه الآية من الآيات المتحدّثة عن قصّة ثمود، فقد انتهت ثمود من الدنيا، وأصبح لا وجود لهم فيها.

أ- ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾:

كأن لم يكن لهم وجود فيها وكأنّهم ما كانوا، قال الشاعر بعد انفضاض الناس من مكّة (ومع الفارق بالطبع):

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكّة سامر^(٢)

(١) تفسير سورة هود، ص ٢٥٣.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وَتَبَيَّنَ الْآيَةُ سُرْعَةَ زَوَالِهِمْ، كَانَتْهُمْ لَمْ يَأْتُوا إِلَى الدُّنْيَا، وَلَمْ يُقِيمُوا فِي دِيَارِهِمْ، وَيَتَمَتَّعُوا، وَإِنَّهُ لَمَشْهُدٌ مُؤَثَّرٌ، وَأَصْحَابُهُ جَثُومٌ مِثْلُ بَصِيرَةٍ الَّتِي تَرَى وَتَحْسُسُ الصُّورَةَ الْقَرَانِيَّةَ، وَلَيْسَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ -بَعْدَ أَنْ يَكُونَ- إِلَّا لَمْعَةٌ كَوْمِضَةٍ الْعَيْنِ، كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا^(١).

ب- ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ سُحْبَانَهُ وَتَعَالَى هَلَاكُ ثَمُودَ وَصَفَ حَالَهُمْ، فَسَبَّهَهُمْ بَعْدَ زَوَالِهِمْ وَفَنَائِهِمْ وَاسْتِئْصَالِهِمْ بِحَالٍ مَنْ لَمْ يُقِمِ فِي دَارِهِ، وَلَمْ تَسْبِقْ لَهُ حَيَاةٌ أَصْلًا، ثُمَّ نَبَّهَ عَزَّجَلَّ عَلَى سَبَبِ عَذَابِهِمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَقَدْ أَكَّدَتِ الْجُمْلَةُ بِأَدَاةِ التَّنْبِيهِ (أَلَا)، وَ(إِنَّ) مَعَ تَصْدِيرِ (أَلَا) الْخَبَرَ وَهِيَ لَا تُقَالُ إِلَّا عِنْدَ الْأُمُورِ الْهَائِلَةِ. وَوَضَعَ الْأِسْمَ الظَّاهِرَ مَوْضِعَ الْمَضْمَرِ فِي قَوْلِهِ عَزَّجَلَّ ﴿ثَمُودًا﴾ لَزِيَادَةِ الْبَيَانِ وَالتَّشْنِيعِ وَالتَّسْجِيلِ عَلَيْهِمْ.

- وَفِي قَوْلِهِ: ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾؛ عَدَى الْفِعْلُ (كَفَرُوا) إِلَى (رَبَّهُمْ) بِدُونِ حَرْفِ الْجَرِّ؛ لِأَنَّهُ ضَمَّنَ مَعْنَى الْجُحُودِ، فَالْتَقْدِيرُ: أَلَا إِنَّ ثَمُودَ جَحَدُوا رَبَّهُمْ. وَهَذَا مِنَ الْإِيْجَازِ، قِيلَ هُوَ مِنْ بَابِ حَذْفِ الْمُضَافِ وَإِنَابَةِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ مُنَابَهَ مَعَ التَّعْبِيرِ عَنِ الرُّبُوبِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَالْعَنَايَةِ بِهِمْ، تَفْظِيْعًا لَجُزْمِهِمْ، وَتَشْنِيعًا لِحَالِهِمْ؛ إِذْ كَيْفَ يَكْفُرُونَ بِمَنْ رَبَّاهُمْ بِنِعْمَةٍ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ؟! وَبَعْدَ أَنْ سَجَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْكُفْرَ وَالْجُحُودَ لِعَنَهُمْ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، فَقَالَ:

ج- ﴿أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾؛

وَكُرِّرَ التَّنْبِيهُ بِقَوْلِهِ ﴿أَلَا﴾ فِي الدَّعَاءِ عَلَيْهِمْ تَهْوِيلًا لِأَمْرِهِمْ، وَتَفْظِيْعًا لَهُ، وَبُعْدًا عَنِ الْإِعْتِبَارِ بِهِمْ، وَالْحَذَرِ مِنْ مِثْلِ حَالِهِمْ.

(١) فقه دعوة الأنبياء، أحمد الأميري، دار السلام، ٢٠١٢م، ص ١٥٣.

ووضع الاسم الظاهر موضع المضمرة في قوله عز وجل: ﴿بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ مبالغة في التنصيص عليهم، والتأكيد على استحقاقهم اللعنة والإبعاد^(١).

وتدخل ثمود في سلسلة الأقسام التي لعنها الله تعالى، وقد ورد اللعن بشأنهم بصيغة الإبعاد: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾، وقد عملت ثمود أعمالاً استحقت بها لعنة الله من الكفر والجحود والعناد، والاستكبار، واستعجال العذاب، وتكذيب نبيهم ومحاولتهم قتله، والتناول عليه بشتى الاتهامات، فمرة يرمونه بالسحر، ومرة يرمونه بالكذب^(٢).

ثالثاً: قصة قوم صالح عليه السلام في سور الحجر:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَهُمْ آيَاتِنَا فَكَأَنُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٠-٨٤].

تدور سورة الحجر حول موضوع إثبات تنزيل القرآن الكريم من عند الله عز وجل على الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه معجزة ظاهرة بينة كافية لبيان صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وتهديد المكذبين به، وترهيبهم بذكر قصص المكذبين قبلهم، وما حلّ بهم؛ بسبب كفرهم بآيات الله سبحانه وتعالى التي جاءتهم بها رسلهم. قال البقاعي رحمه الله: مقصودها وصف الكتاب، بأنه في الذروة من الجمع للمعاني الموضحة للحق عن غير اختلاف أصلاً، وأشكل ما في هذا المعنى قصة أصحاب الحجر،

(١) نصوص اللعن في القرآن وأثرها في الأحكام الشرعية، عمر شاکر الكبسي، مؤسسة الريان للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٣هـ، ص ٤٤٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٤٥-٤٤٧.

فإنّ وضوح آيتهم عندهم وعند كلّ من شاهدها أو سمع بها كوضوح ما دلّ عليه مقصود هذه السورة في أمر الكتاب عند جميع العرب، لاسيما قريش، وأيضاً آيتهم في غاية الإيضاح للحقّ، والجمع لمعاينة الدائرة على التوحيد المقتضى للاجتماع على الداعي^(١).

عرضت السورة لدعوة الأنبياء، ويّنت موقف أهل الشقاوة والضلالة من لدن بعثة شيخ الأنبياء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلى بعثة خاتم المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، وقد بيّنت السورة أنّ هذه سنّة المكذّبين في كلّ زمان وحين^(٢).

وفي هذه السورة إشارة مجملة عن ثمود، لم تذكرها فيها باسمها، بل كنّت عن ثمود بأصحاب الحجر، حيث كانت مساكنهم. وقد ذكرت الآيات أنّ أصحاب الحجر كذبوا المرسلين، لأنّ تكذيبهم صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ يعتبر تكذيباً لجميع المرسلين، لأنّ دعوتهم واحدة، كما جاء في سورة الشعراء^(٣)، وسيأتي الحديث عنها مفصّلاً إن شاء الله. والجديد في هذه الآيات عن قصّة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، على الرغم من إيجازها وإجمالها، أنّها بيّنت لنا مكان ثمود لأوّل مرّة، وهو أنّ مدينتهم كانت الحجر^(٤). وإليك تفسير الآيات الكريمة:

١ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠].

- ﴿وَ﴾؛ الواو للعطف، عطف قصّة أصحاب الحجر على قصّة أصحاب الأيكة.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/١).

(٢) مقاصد القرآن الكريم ومحتوياته، عبد الله التليدي، ص ١٤١.

(٣) القصة في القرآن الكريم، د. عصام الدين الهنامي، ٢٠٢٣م، ص ٨٨.

(٤) من قصص القرآن، د. فضل حسن عباس، ص ٢٤١.

- ﴿وَالسَّلَامُ﴾؛ للتخفيف، وهي داخلة على الفعل الماضي (كذب) لمزيد التوكيد، وأنه حصل منهم التكذيب.

- (التكذيب): جُحِدَ ما جاء به الرسل، وزعم الكذب بحق كل نبي كذبه قومه من الأنبياء (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جميعاً).

والكاذب يكذب الناس الصادقين. والكفر والتكذيب وجهان لقضية واحدة.
أ- ﴿أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾:

سكان المكان أو مالكوه، أو المقيمون فيه، ويمكن أن نقول أصحاب الشيء لأدنى ملابسة كما يقولون، فأصحاب الكهف مروا به مروراً عابرين، فجعله الله وطناً لهم، ومسكناً ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]. ولأي شيء سمي الحجر بهذا الاسم؟ هل لأنه في نظر أهله ممتنع مع كل عدو خارجي طامع لحصانته ومنعته؟ أم لأنه نحت من الحجر كما نُحِتَت البتراء؟ كل ذلك محتمل، وهما احتمالان مترابطان على كل حال، فهو، أي المكان الممتنع على ذي الطمع، لأنه منحوت من الصخر ومُحَصَّن^(١).

- وفي الشعراء: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

- وهنا في الحجر: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢].

- وفي الشعراء: ﴿أَتُرْكُونَ فِي مَا هَهُنَا آمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦].

ب- ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾:

(١) تفسير سورة الحجر، د. أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ٢٠١٩م، ص ٣٧٢.

كذب قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ - وهم أصحاب الحجر - رسولهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن كذب واحداً، فكأنما كذب النبيين والمرسلين أجمعين، ومن قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً، القاعدة ذاتها^(١).

ذلك أنَّ الأنبياء جميعاً قد جاؤوا بدين واحد، فمن كذب واحداً فقد كذبهم جميعاً، ومن هنا جاء الإسلام بما ينبغي به الدين الخاتم: ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]؛ فلا يكون مسلماً مَنْ لا يؤمن بالأنبياء جميعاً^(٢).

لأنَّ تكذيب رسول واحدٍ تكذيبٌ لكلِّ الرسل، ولا يصحَّ إيمانٌ مَنْ يؤمن ببعض الرسل ويكفر ببعضهم الآخر. ومن جحد نبوة واحد من الرسل المذكورين في القرآن الكريم كان كافراً، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً^(٣).

فقوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يُكذِّبوا سوى رسولهم صالح، ولكن صالحاً ليس إلا ممثلاً للرسل جميعاً، فلما كذَّبه قومه قيل: إنَّهم كذَّبوا المرسلين؛ توحيد للرسالة، وللرسول، وللمكذَّبين في كلِّ أعصار التاريخ، وفي كلِّ جوانب الأرض على اختلاف الزمان والمكان والأشخاص والأقوام^(٤).

- قال الإمام الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ في تفسير الآية: (أصحاب الحجر) هم قبيلة ثمود، والحجر واديهم بين المدينة والشام^(٥).

(١) تفسير سورة الحجر، ص ٣٧٢.

(٢) من أنباء القرى، د. أحمد الكبيسي، مؤسسة الرسالة العالمية، ط ١، ٢٠٠٧م، ص ١٨٥.

(٣) رسالة الأنبياء، د. عمر أحمد عمر، دار الجيل للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م (١/ ١٦١).

(٤) في ظلال القرآن (٤/ ٢١٥١).

(٥) تفسير سورة الحجر، ص ٣٧٢.

- وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: الحجر المكان المحجور، أي: الممنوع من الناس بسبب اختصاصهم به، أو اشتق من الحجارة لأنهم كانوا ينحتون بيوتهم من صخر الجبل نحتاً مُحْكَمًا^(١).

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُمُ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر: ٨١].

آية صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت الناقية، ولكن الآيات في هذا الكون كثيرة، والآيات في الأنفس كثيرة، وكلها معروضة للأنظار والأفكار، وليست الخارقة التي جاء بها صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وحدها الآية التي آتاهم الله، وقد أعرضوا عن آيات الله كلها، ولم يفتحوا لها عيناً ولا قلباً^(٢).

ومعنى الآية: آتيناهم الدلائل الدالة على صدق نبي الله صالح الذي أرسل إليهم كالناقية التي خلقها الله تعالى من صخرة بيد صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأعرضوا عنها ولم ينتفعوا بها^(٣).

والآيات تصحّ على ثلاث معان: الرسالة والكتاب والمعجزات المادية كالناقية، والآيات الكونية. والمكذّب مكذّب بها جميعاً^(٤).

- ومعنى ﴿مُعْرِضِينَ﴾؛ أي: مدبرين مشيحين عن الحق، والرسول الداعي إلى الحق، ومتولين عنه ومبتعدين، بسبب الكبر من ناحية، وطول الإلف لما هم عليه من ناحية أخرى، والمصالح من جهة أخرى^(٥)، والحسد والفساد كذلك.

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٣٢).

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢١٥١).

(٣) التفسير الموضوعي (٤/ ٤٠٠).

(٤) تفسير سورة الحجر، ص ٣٧٦.

(٥) المصدر السابق، ص ٣٧٥.

أ- قال المراعي في تفسيره للآية رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: وأريناهم حججنا الدالة على نبوة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، من الناقة وغيرها من الآيات فأعرضوا عنها، ولم يعتبروا بها^(١).

ب- وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ:

جمع الآيات في قوله: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ مراد به الجنس، وهي الناقة. أو أريد أنّها آية تشتمل على آيات كيفية خروجها وحياتها، ورعيها وشربها^(٢).

ج- وقال الدكتور سعد الدين عبد الرحمن الحمدان:

وقد دلّ النظم في هذه الآية الكريمة على عظمة الآيات التي آتاهم الله، وفخامتها واستعظام موقفهم منها وإعراضهم عنها، فالتعبير بالفعل ﴿ءَاتَيْنَا﴾ الذي هو بمعنى الإعطاء الدالّ على الإكرام والمِنَّة^(٣)، مع إسناد الإيتاء إلى نون العظمة، ثم ذكر الضمير العائد عليهم يدلّ على أنّ الله امتنّ عليهم بهذه الآيات العظيمة، لتكون سبباً في هدايتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة، ولإقامة الحجة عليهم، فكان الواجب أن يشكروا الله عَزَّجَلَّ، لا أن يكفروا ويُعرضوا، والتعبير بصيغة الجمع ﴿ءَاتَيْنَا﴾، يدلّ على أنّها آيات متعدّدة وذلك قطعاً لعذرهم. وإضافة الآيات إلى نون العظمة يدلّ على أنّها آيات عظيمة كافية لمن تدبّر لها طالباً للحقّ.

ولكنّ هؤلاء القوم قابلوا هذا الإيتاء وهذه الآيات العظيمة بالإعراض، قال عَزَّجَلَّ مُشْتَعاً عليهم: ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) التحرير والتنوير (٦/٢٣٢).

(٣) النظم القرآني في قصة صالح، ص ١٤١.

- (الفاء)؛ تدلّ على سرعة كُفْرهم، ومبادرتهم إلى الإعراض عن الآيات.
- ﴿فَكَانُوا﴾؛ الفعل الناقص (كان)، ومجيء خبرها اسماً، إذ يدلّ هذا الاستعمال على رسوخ معنى الخبر في اسمها^(١). والاتّصاف بالحدث في الزمن الماضي على وجه الثبوت^(٢). أي: أنّ القوم متّصفين بصفة الإعراض عن آيات الله عَزَّجَلَّ على وجه الثبوت، فهم راسخون في الإعراض، وفي ذلك غاية الذمّ لهم.
- ﴿عَنْهَا﴾؛ تقديم الجار والمجرور على الخبر للاهتمام بشأن الآيات التي أعرضوا عنها، واستعظام إعراضهم، كما أنّ تقديم الجار والمجرور أليقّ بالسياق، لأنّ الآية تتحدّث عن الآيات التي آتاهم الله عَزَّجَلَّ، فأصبحت نُصِب العين، والتفت إليها الخاطر^(٣). فناسب تقديم الجار والمجرور الذي هو الضمير العائد على الآيات. وأيضاً في تأخير (الخبر) تشويق إليه، ومراعاة للفاصلة القرآنيّة^(٤).
- ٣- قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢].
- هذا وصف حال قوم أصحاب الحجر بعد وصف حالهم مع الرسول والرسالة، هذا وصف معيشتهم وسكناهم، فقد آتاهم الله البيّنة وآتاهم الأمن والسكن الفاره المريح.
- أ- ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾:

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) معاني النحو، فاضل السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٩م (١/١٩٤).

(٣) مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م، ص ٢١٥.

(٤) النظم القرآني في قصة صالح، ص ١٤٢.

نحت قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ مدينة من الصخر في جبل، فكانت في ذلك الوقت المبكر من فجر البشرية مثاراً للدهشة والسبق. وأمّا الأنباط العرب -وهم كقوم صالح عرب- والاثنان حفرا ونحتا الجبال بيوتاً فكانت مثاراً للدهشة العالم حتى الآن، وإن كان الأنباط قريبي عهد، لا يتجاوز التاريخ الميلادي، أمّا قوم صالح فأقدم بكثير من هذا فأثارهم باقٍ منها ما يدل عليها.

- (فالنحت): الحفر والقطع مع تصميمات هندسية لتكون بيوتاً ومرافق.

- (من): في قوله ﴿مَنْ الْجِبَالِ﴾؛ إمّا تبعية وإمّا بيانة.

ب- ﴿ءَامِنِينَ﴾:

أي: محصنين ممتنعين على عدوكم، لا يصل إليكم ولا يخاطر باقتحام مساكنكم، والأمن مطلب إنساني رئيس، ومطلب ديني كذلك، ولذا فرض الله الأشهر الحرم ليأمن الناس في عبادة الحج، وامتن على الناس بالأمن، وجعل الأمن ثمرة من ثمرات الإيمان^(١)، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ في قوله ﴿ءَامِنِينَ﴾: من المخاوف مطمئنين في ديارهم، فلو شكروا النعمة، وصدقوا بنبيهم صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ لأدّر الله عليهم الأرزاق، ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل، ولكنهم لما كذبوا وعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا: ﴿وَقَالُوا يَصْلِحْ أَمْرُنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، ﴿فَأَخَذَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣]^(٢).

(١) تفسير سورة الحجر، ص ٣٧٨.

(٢) تفسير السعدي (٢/٢١٣).

٤- قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣].

وهذه اللمحة الخاطفة من الأمن في البيوت الحصينة في صلب الجبال، إلى الصيحة تأخذهم فلا تُبقي لهم ممّا جمعوا وممّا كسبوا وممّا بنوا وممّا نحتوا شيئاً يُغني عنهم، ويدفع الهلاك الخاطف. هذه اللمحة تلمس القلب البشري لمسة عفيفة، فما يأمن قوم على أنفسهم أكثر ممّا يأمن قوم بيوتهم المنحوتة في صلب الصخور، وما يبلغ الاطمئنان بالناس في وقت أشد من قوم صالح، تأخذهم الصيحة مصبحين، وهم في ديارهم الحصينة آمنون، فإذا كلّ شيء ذاهب، وإذا كلّ وقاية ضائعة، وإذا كلّ حصين موهون، فما شيء من هذا كلّه بواقيتهم من الصيحة، وهي فرقة ريح أو صاعقة، تلحقهم فتهلكهم في جوف الصخر المتين^(١).

أ- قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

تقطّعت قلوبهم في أجوافهم، وأصبحوا في دارهم جاثمين هلكى، مع ما يتبع ذلك من الخزي واللعنة المستمرة^(٢).

ب- قال المراغي رَحِمَهُ اللهُ:

فأخذتهم صيحة الهلاك حين كانوا في صحوة اليوم الرابع من اليوم، الذي أوعدوا فيه بالعذاب، كما جاء في قوله ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

ومن الدروس من الآية الكريمة:

- العذاب بانتظار كلّ من أخذ واتخذ التكذيب منهجاً.

(١) في ظلال القرآن (٤/٢١٥٢).

(٢) تفسير السعدي (٢/٣١٣).

- لم تغن قوم صالح حصونهم التي ظنوها حجراً محجوراً.
- يغترّ الناس بقوّتهم وينسون قوّة الله التي لا يقف لها شيء.
- القياس الفاسد سبب لكثير من الخراب، فكثيراً ما يقيس الناس ربّ العالمين على مقاييسهم وخبرتهم وأنفسهم^(١).
- ٥- قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٤].
- من الأموال والزروع والثمار^(٢) والحصون، وكلّ ما كانوا يعملون ويجتهدون فيه سواء، أكانت بيوتهم المحفورة في الجبال، والمنحوتة في الصخر، أم ما صنعوا من وسائل، وما اصطنعوا من أسباب البقاء كأبار حفظ الماء لتستمرّ الحياة، أو ما حفروا بحثاً عن ينابيع، أو غير ذلك من وسائل حفظ البقاء والاستمرار^(٣).
- قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: لأنّ أمر الله إذا جاء لا يردّه كثرة جنود ولا قوّة أنصار، وغزارة أموال^(٤).

من الدروس والعبر في الآية:

- لا يُغني تدبير ولا يُجدي شيء نفعاً أمام عقاب الله إذا حلّ، وعذابه إذا وقع.
- يصطنع الناس أسباب بقائهم، واستمرارهم، ولا بأس، ولكن أن يعملوا لبقائهم الحقيقي، وحياتهم الدائمة أهمّ.

(١) تفسير سورة الحجر، ص ٣٨٣.

(٢) التفسير الموضوعي (٤/ ٤٠٠).

(٣) تفسير سورة الحجر، ص ٣٨٥.

(٤) تفسير السعدي (٢/ ٣١٣).

- يفتن الناس للمهم، ويهملون الأهم، فهم يفتنون للدنيا، ولا ينتبهون للآخرة، وهي الكنز ورأس المال.

٦- مرور النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحجر ديار ثمود:

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِ الْحَجَرِ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ يَصِيْبُكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ»^(١).

وعن ابن عمر: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَزَلَ عَامَ تَبُوكَ بِالْحَجَرِ عِنْدَ بَيْوتِ ثَمُرِ ثَمُودَ فَاسْتَقَى النَّاسُ مِنَ الْآبَارِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا ثَمُودُ، فَنَصَبُوا الْقُدُورَ، وَعَجَنُوا الدَّقِيقَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَكْفُتُوا الْقُدُورَ، وَاعْلَفُوا الْعَجِينَ الْإِبِلَ»، ثُمَّ ارْتَحَلَ حَتَّى نَزَلَ فِي الْمَوْضِعِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهُ النَّاقَةُ، فَقَالَ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ عُذِّبُوا فَيَصِيْبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ»^(٢).

أ- قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يُسْتَفَادُ مِنْهُ: كراهة دخول أمثال تلك المواضع، فإن كان ولا بدَّ من دخولها، فعلى الصفة التي أرشد إليها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الاعتبار والخوف والإسراع، كما أنَّ فيها دليلاً على بعض أهل الفساد، ودمَّ ديارهم وآثارهم^(٣).

(١) البخاري (٨/ ٤٨٥)، رقم (٤٧٠٢).

(٢) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، رقم (٦٢٠٣).

(٣) المفهم لما أشكل من كتاب تلخيص مسلم، القرطبي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م (٧/ ٣٥٤-٣٥٥).

وقال أيضاً: فحقّ المارّ بموضع المُعاقبين أن يُحدّد النظر والاعتبار، ويكثر من الاستغفار في تلك الديار^(١).

ب- قال النووي رَحِمَهُ اللهُ:

فيه الحثّ على المراقبة عند المرور بديار الظالمين، ومواضع العذاب، ومثله الإسراع في وادي مُحسّر؛ لأنّ أصحاب الفيل هلكوا هناك، فينبغي للمارّ في هذه المواضع الخوف والبكاء والاعتبار بهم، وبمصارعهم، وأن يستعيد بالله من ذلك^(٢).

رابعاً: قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الشعراء:

قال الله تعالى: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١١١) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١١٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١١٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿أَتُركُونَ فِي مَا ههْنَأْ آمِنِينَ﴾ (١١٤) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضْبٌ﴾ (١١٥) وَتَنَحُّونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١١٦) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (١١٧) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ (١١٨) قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١١٩) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا تَدْمِينَ ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (١٢٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿[الشعراء: ١٤١-١٥٩].

سورة الشعراء مكيّة، وآياتها سبع وعشرون ومائتان (بين يدي السورة). وقد عالجت أصول الدين من التوحيد والرسالة والبعث، شأنها شأن سائر السور المكيّة،

(١) المصدر السابق (٧/ ٣٥٤).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم، يحيى بن شرف النووي، مؤسسة قرطبة للطباعة والتوزيع والنشر، ٢٠٠٩م (١٥/ ٣٢٤/ ٣٢٥).

التي تهتم بجانب العقيدة وأصول الإيمان. وابتدأت السورة الكريمة بموضوع القرآن العظيم الذي أنزله الله هداية للخلق، وبلسماً شافياً لأمراض الإنسانيّة، وذكرت موقف المشركين منه، فقد كذبوا به مع وضوح آياته، وسطوع براهينه، وطلبوا معجزة أخرى غير القرآن الكريم عناداً واستكباراً.

ثم تحدّثت السورة عن طائفة من الرسل الكرام عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، الذين بعثهم الله تعالى لهداية البشريّة، فبدأت بقصّة الكليم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون الطاغية الجبار، وما جرى من المحاورّة والمداورّة بينهما في شأن الإله جَلَّ وَعَلَا، وما أيد الله تعالى به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الحجّة الدامغة، ومعالم كثيرة من قصّته، وكذلك الأحداث العظيمة التي مرّ بها إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وموقفه من قومه وأبيه في عبادتهم للأوثان والأصنام. وقد أظهر لهم بقوة حجّته ونصاعة بيانه، وبطلان ما هم عليه من عبادة ما لا يسمع ولا ينفع. وأقام لهم الحجّة القاطعة على وحدانيّة الله ربّ العالمين، الذي بيده النفع والضّرّ، والإحياء والإماتة. ثم تحدّثت السورة عن المتّقين والغاوين، والسعداء والأشقياء، ومصير كلّ من الفريقين يوم الدين. وبعد أن تابعت السورة في ذكر قصص الأنبياء؛ نوح وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، على نبينا وعليهم أزكى الصلاة والتسليم، وبيّنت سنّة الله تعالى في معاملة المكذّبين لرسله؛ عادت للتنبؤ به بشأن الكتاب العزيز، تفخيماً لشأنه، وبياناً لمصدره: ﴿وَأَنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

ثم ختمت السورة بالردّ على افتراء المشركين في زعمهم أن القرآن من تنزيل الشيطان، ليتناسق البدء مع الختام، في أروع تناسق والتّمام.

وسميت سورة الشعراء؛ لأن الله تعالى ذكر فيها أخبار الشعراء، وذلك للرد على المشركين في زعمهم أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كان شاعراً، وأن ما جاء به من قبيل الشعر، فرد الله تعالى عليهم ذلك الكذب، والبهتان بقوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦﴾. وبذلك ظهر الحق وبان^(١).

١ - قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٩١) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿١٩٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٩٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿الشعراء: ١٤١-١٤٥﴾.

وإليك تفسير الآيات:

أ- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾:

هذه نهاية المكذبين والمتكبرين - نهاية القصة - يبدأ بها لإبرازها منذ البداية، ثم يأخذ في التفصيل. وقوم صالح لم يكذبوا إلا صالحاً، ولكنه يذكّرهم أنهم كذبوا المرسلين، فالرسالة في أصلها واحدة؛ وهي دعوة إلى توحيد الله، وإخلاص العبودية له، فمن كذب بها فقد كذب بالمرسلين أجمعين، فهذه دعوتهم أجمعين. والقرآن يؤكد هذا المعنى ويُقرّه في مواضع بصيغ متعددة، لأنّه كليّة من كليات العقيدة الإسلامية، التي تختصّ بها الدعوات جميعاً وتقسّم بها البشرية كلّها إلى صفتين، صفت المؤمنين وصف الكافرين، على مدار الرسالات، ومدار القرون. وينظر المسلم فإذا المؤمنون في كلّ دين وكلّ عقيدة من عند الله، هي أمته منذ فجر التاريخ إلى مشرق الإسلام دين التوحيد الأخير، وإذا الصف الآخر هم الكفار

(١) مقاصد القرآن الكريم ومحتوياته، ص ١٨٥.

في كلّ ملة وفي كلّ دين. وإذا بالمؤمن يؤمن بالرسول جميعاً، ويحترم الرسل جميعاً، لأنّهم حملة رسالة واحدة هي رسالة التوحيد^(١)، وأي أمة تكفر برسولها فكأنما كفرت بجميع المرسلين.

إنّ لاستخدام كلمة: ﴿كَذَّبَ﴾ هنا أهميّة خاصّة، وخصوصاً أنّها وردت منذ البداية، فالتكذيب في المجال الروحي يعني عدم التصديق بما جاء في الرسالات السماويّة. والتكذيب قد يُعتبر كمفتاح لصفات أخرى لأي قوم اتصفوا بعدم التصديق، فالإنسان الذي يكذب بكل الرسالات السماويّة جبار في طبعه، قاسٍ في قلبه، مستكبر في تصرفاته، لأنّه لا يمتلك صفة التعقّل، وميزة الحكمة التي تُحجم الإنسان عادة عن عمل السوء.

ويبدو أنّ انحراف القوم، وتوجّههم نحو الشرّ، قد منعهم من رؤية الأمور في منظارها الصحيح، وغرس فيهم روح التحدي الذي قد بلغ ذروته لديهم. ومن هذه الزاوية فقد أتى صالح برسائله السماويّة لإصلاح تلك النفوس الملتوية^(٢).

ب- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾:

صرّح القرآن الكريم في شريعة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنّه الأخ لقومه الكافرين، باعتبار أخوة الإنسانيّة، أي: من أبيهم آدم، وهي أخوة نسب لا أخوة دين.

والأخوة لغة وشرعاً على درجات وطبقات، وأولها الأخوة الإنسانيّة التي وُصف بها الأنبياء مع قومهم وقبائلهم. وتكرّر ذلك في القرآن الكريم والسنة النبويّة، وجاء في حديث الإسراء أنّ الأنبياء إخوة، وكانوا يقولون لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مرحباً بالنبيّ الصالح، والأخ الصالح".

(١) في ظلال القرآن (٢٦٠٧/٥).

(٢) أحسن القصص، د. زاهية الدجاني، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ٢٠٠٨م، ص ٦٦.

وأعلى درجات الأخوة أخوة الإيمان، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المؤمن أخو المؤمن»^(١).

- ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ وتخافون عاقبة ما أنتم فيه؟ وتستشعر قلوبكم خوف الله وخشيته؟

وهذا التوجّه إلى التقوى مطرد في هذه السورة^(٢).

والاستفهام: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٢]، فيه العرض مع الحَضّ: ألا تتقون الله في توحيده وإفراده بالعبادة والطاعة والاستجابة لرسوله.

والتقوى: هي الالتزام بشرع الله، واجتناب نواهيه. وهي الترفع عن الدنيا، وأغراضها، والسعي للحصول على رضى الله تعالى، وتجنّب غضبه، وعذابه^(٣).

ج- ﴿إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ﴾:

لا يخون، ولا يخدع، ولا يغشّ، ولا يزيد شيئاً أو ينقص شيئاً ممّا كُلِّفه من التبليغ.

إِنِّي لكم رسول مبعوث من عند الله، وأمين على رسالة ربّي، أبلغها لكم، كما أتلّوها بالوحي عنه، لا أزيد فيها، ولا أنقص منها. ويترتب على كونه رسول الله، مُبَلِّغاً عن ربّه رسالاته، أنّهم مأمورون من قِبَل الله بطاعته.

د- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾:

(١) سنن أبي داود (٥٧٦/٢)؛ شرعة الأنبياء ص ٩٤.

(٢) في ظلال القرآن (٢٦٠٧/٥).

(٣) أنبياء في القرآن تركوا آثاراً، ص ٥٥.

اتَّقُوا عَذَابَ اللَّهِ، وَأَطِيعُونِي فِيمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، لِأَنْتُمْ إِنْ لَمْ تَطِيعُونِي فِيمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ - وَأَنَا رَسُولُ مَبْلَغٍ عَنِ اللَّهِ - كُنْتُمْ مُسْتَحَقِّينَ لِعِقَابِهِ وَعَذَابِهِ، فَلَيْسَتْ الْقَضِيَّةُ قَضِيَّتَيْنِ وَإِنَّمَا هِيَ قَضِيَّةُ اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ^(١).

هـ- ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾:

لما كان يتبادر لأذهان الأقوام المدعوين إلى مبدأ أو فكرة أو علم أو جماعة لاتهامهم الداعي بأن له مصلحة شخصية، يحصل عليها من جرّاء اتباعهم له. كان من الحكمة أن يعلن الرسول تجرّده من أية مصلحة شخصية، يحصل عليها من قومه الذين يدعوهم إلى دين الله ربّه وربّهم، ومعلوم أن أدنى المصالح وأخفّها مطالبتهم بأجر على ما يقدّمه لهم من تعليم ونصح وإرشاد، والظاهر أن التبرّؤ من أدنى المصالح وأخفّها يستلزم بداهة التبرّؤ ممّا هو أصعب على نفوس القوم وأشدّ، فأبان لهم صالح عَلَيْهِ السَّلَام أنه ما يسألهم على ما يبذل لهم من أجر، مهما كان قليلاً أو خفيفاً، دلّ على ذلك^(٢) قوله تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

و- ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

ليس معنى ذلك أنه لا يطلب أجراً مطلقاً، إنّها مثاليّة خياليّة بالنسبة للبشر، وهو لا يدّعيها، بل هو ضامن أجراً يظفر به عند ربّ العالمين، فقد تكفّل الله عن المدعوين بأجر الدعاة إلى دينه وعبادته، فقال صالح عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٥]؛ فلا رغبة لي في أموالكم أو مساعدتكم أو الحصول على منفعة منكم، أو أيّ مصلحة أطلبها لذاتي، لأنّ أجري على ربّ العالمين.

(١) نوح عَلَيْهِ السَّلَام والطوفان العظيم، ص ٦٤.

(٢) انظر للتوسع: أخلاق الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَام، محمد درويش، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض،

٢- قوله تعالى: ﴿أَتَرْكُونَ فِي مَا هَهُنَّا ءَامِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٤٦، ١٤٧].

كان قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أعرضوا عن عبادة الله تعالى وأنكروا البعث، وغرّهم أئمة كفرهم في ذلك، فجاءهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ رسولاً يذكرهم بنعمة الله عليهم، بما مكّن لهم من خيرات، وسخر لهم من أعمال عظيمة، ونزل حالهم منزلة من يظنّ الخلود، ودوام النعمة، فخطبهم بالاستفهام الإنكاري التوبيخي^(١)، فقال لهم:

أ- ﴿أَتَرْكُونَ فِي مَا هَهُنَّا ءَامِينَ﴾:

هذا سؤال استنكار، معناه: لا تُتركون في هذا النعيم آمينين مطمئنين، بغير تكليف بطاعة المنعم وعبادته، فالله سبحانه العليم الحكيم ما خلقكم لمجرد المتاع واللّهو^(٢).

وقال الشيخ متولّي الشعراوي رَحِمَهُ اللهُ: يُريد أن يوبّخهم: أَتَظُنُّونَ أَنَّكُمْ ستخلّدون في هذا النعيم، وأنتم آمنون، أو تأخذون نعم الله، ثم تُفَرِّونَ من حسابه، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]^(٣).

- ﴿هَهُنَّا﴾؛ إشارة إلى بلادهم، أي: في جميع ما تشاهدونه، وهذا إيجاز بديع.

- ﴿ءَامِينَ﴾؛ وهذا تنبيه على نعمة عظيمة، وهي نعمة الأمن التي من أعظم النعم، ولا يُتَذَوَّقُ طعم النعم الأخرى إلّا بها^(٤).

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٣٩٩).

(٢) التفسير الموضوعي (٦/ ١٧٩).

(٣) تفسير الشعراوي (١٧/ ١٠٦٤٧).

(٤) التحرير والتنوير (٨/ ٣٨٨).

ب- ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٤٧]:

امتداد للآية السابقة، يعني: لا تظنّوا أنّ هذا اليوم يدوم لكم، ﴿جَنَّاتٍ﴾: جمع جنة، وهي المكان المليء بالخيرات وكلّ ما يحتاجه الإنسان، أو هو المكان الذي إن سار فيه الإنسان سترته الأشجار؛ لأنّ جنّ يعني ستر، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦]؛ ستره، ومنه الجنون: يعني ستر العقل، وكذلك الجنة: فهي تستر عن الوجود كلّ، وتغنيك عن الخروج منها إلى غيرها، ففيها كلّ ما تتطلبه نفسك، وكلّ ما تحتاجه في حياتك^(١).

وقوله ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾؛ ينبغي أن يعلّق بـ ﴿ءَامِنِينَ﴾؛ ليكون مجموع ذلك تفصيلاً لإجمال اسم الإشارة، أي: اجتمع لهم الأمن ورفاهية العيش والجنّات: الحوائط التي تشجر بالنخيل والأعناب^(٢).

- ﴿وَعُيُونٍ﴾؛ لأنّ الجنة تحتاج دائماً إلى الماء ليضمن بقاءها^(٣).

فالعيون سبب وجود الجنّات، ولذلك امتنّ الله بها عليهم، وهي جمع عين: والعين ينبوع الماء الذي ينبع من الأرض ويجري، ويدلّ ذلك على أنّ الله سبحانه وتعالى قد رزقهم الماء، بلا كلفة ولا مشقة، فهو ينبوع من الأرض، لا يحتاجون إلى حفر كي يحصلوا عليه^(٤).

(١) تفسير الشعراوي (١٧/١٠٦٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (٨/٣٩٩).

(٣) تفسير الشعراوي (١٧/١٠٦٤٨).

(٤) النظم القرآني في قصّة صالح، ص ١٧٥.

٣- قوله تعالى: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨].

أ- النخل:

وهو من الزروع، ولكن خصّ النخل من باب ذكر الخاص بعد العام. والنخل شَبَّهه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمسلم، ولو تأملت النخلة، لوجدت كلّ شيء فيها نافع، وله مهمّة، ويتنفع الزّراع به، ولا يُلْقَى منها شيء مهما كان بسيطاً.

- فالجذوع تُصنع منها السواري والأعمدة، وتُسقف بها البيوت قبل ظهور الخرسانة.

- ومن الجريد تُصنع الأقفاص، ومن الجزء المفلطح من الجريدة ويسمّى (القحف). والذي لا يصلح للأقفاص كانوا يجعلونه على شكل معين، فيصير (مقشّة) يكنسون بها المنازل.

- ومن الليف يصنعون الحبال، ويجعلونه في تنجيد الكراسي وغيرها، حتّى الأشواك التي تراها في جريد النخل خلقه الله لحكمة وبقدر؛ لأنّها تحمي النخلة من الفئران أثناء إثمارها.

- والليف الذي ينمو بين أصول الجريد جعله الله لحماية النخلة، وهي في طور النمو، وماتزال غضة طرية، إذن: هي شجرة خيرة، كالمسلم، ولذلك عندما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ رَقْعُهَا، وَهِيَ كَالْمُسْلِمِ، حَدَّثُونِي مَا هِيَ؟» فوقع الناس من شجر البادية، قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ووقع في نفسي أنّها النخلة، قال عبد الله: فاستحييت، فقالوا: يا رسول الله أخبرنا بها، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هي النخلة. قال عبد الله: فحدّثت أبي بما وقع في نفسي،

فقال: لأن تكون قلتها أحبَّ إليَّ من أن يكون لي كذا وكذا^(١). والذين يزرعون النخيل يرون فيه آيات وعجائب دالة على قدرة الله تعالى^(٢).

ب- ﴿طَلْعُهَا﴾:

والطلع: وعاء يطلع من النخيل فيه ثمر النخلة في أوَّل أطواره، يخرج كنصل السيف في باطنه شماريخ القنو، ويسمَّى هذا الطلع الكِمَّ بكسر الكاف، وبعد خروجه بأيام ينفلق ذلك الوعاء من الشماريخ، وهي الأغصان التي فيها الثمر كحبِّ صغير، ثمَّ يغلظ ويصير بُسْرًا ثمَّ ثمرًا^(٣).

ج- ﴿هَضِيرٌ﴾:

اللطيف الدقيق^(٤)، وبمعنى: مهضوم، وتُقدِّم لنا الآية معلومةً عن فائدة التمر الغذائيَّة، فهو هضم، أي: هو سريع الهضم، فالمعدة تهضمه، وتمتصه بسرعة، ولا تجد في ذلك معاناة، والدم يحمل ما فيه من سكر وعناصر غذائيَّة للجسم، وما أن يأكل الإنسان حَبَّات من التمر، حتَّى يشعر بالحيويَّة والنشاط، ولهذا من السنَّة للصائم أن يفطر على حَبَّات من التمر، ويَتبعها بشربة ماء، ليعود لجسمه نشاطه وحيويَّته، وذلك لأنَّ هذا التمر هضم، كما قرَّر صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل آلاف السنين^(٥). وقيل معنى ﴿هَضِيرٌ﴾: المنظَّم في وعائه قبل أن يظهر: وأصل الهضم النقض^(٦).

(١) البخاري، كتاب العلم، رقم (١٣١).

(٢) تفسير الشعراوي (١٧/١٠٦٥٠).

(٣) التحرير والتنوير (٨/٣٩٩).

(٤) شريعة الله للأنبياء، ص ١٣١.

(٥) القصص القرآني، الخالدي (١/٢٧٧).

(٦) التدبر والبيان (٢٤/٤١٧)، تفسير القرآن بصحيح السنن.

وقال الشعراوي رَحِمَهُ اللهُ: ﴿هَضِيرٌ﴾؛ أي: يعني غَضٌّ، ورطب طريّ، وهذا يدلّ على خصوبة في الأرض، ومنه هضم الطعام حتّى يصير لِيناً ومستساغاً^(١).

٤ - قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

وقد ذكّرهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بفضل الله عليهم، في تمكينهم من نحت الصخور والجبال^(٢).

- و﴿فَارِهِينَ﴾؛ جمع فاره، وفاره: اسم فاعل من فرّه، والفره هو الأشر والبَطْرُ والحدق والمهارة.

قال ابن فارس: الفره: كلمة تدلّ على أشر وحدق، والفره الحاذق بالشيء، والفره الأشر^(٣). ووصف قوم ثمود بأنّهم كانوا فارهين في نحت بيوتهم في الجبال يُراد به أمران:

الأوّل: وصفهم بالحدق، والمهارة، والإتقان من نحت البيوت. ونحت الصخر يحتاج إلى حدق ومهارة، وما كلّ إنسان يقدر على نحت الصخر، وما كلّ ناحت يكون فارهاً حاذقاً ماهراً في نحته، وهذا في صالحهم، وفيه إشارة إلى تقدّمهم المعماري، وفنّهم الإنشائي الهندسيّ، في نحت الأشكال الهندسيّة الجميلة^(٤).

الثاني: ذمّهم، والإنكار عليهم، لأنّهم كانوا فارهين في نحت الجبال بيوتاً، أي كانوا في ذلك أشّرين بطرين، مترفين مسرفين متكبرين، ولا تناقض بين الأمرين؛

(١) تفسير الشعراوي (١٧/١٠٦٥٠).

(٢) القصص القرآني (١/٢٧٢).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٤/٤٩٦).

(٤) القصص القرآني (١/٢٧٣).

لأن قوم ثمود أحسنوا الاستفادة من مواهبهم وقدراتهم في نحت البيوت في الجبال، وكانوا بذلك حاذقين ماهرين، وهذا يسجل لهم.

ولكنهم أفسدوا هذه المهارة، وأتلفوا هذا الحذق، عندما استخدموا ذلك في الفرّهِ والأشْر، والتكبرّ والبطر، وهذا هو وجه الإنكار عليهم، ولو استغلّوا حذقهم ومهارتهم في تحسين مستواهم العمراني، ولم يستخدموه في البطر والتكبرّ لأجادوا وأحسنوا واستحقّوا الثناء.

وفي ﴿فَرِهَيْنَ﴾ بالألف: بمعنى: حاذقين ماهرين متقنين.

الثانية: قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، ويعقوب، وأبي جعفر: ﴿فَرِهَيْنَ﴾ بدون ألف، بمعنى: أشْرين بطرين، متكبرّين^(١).

إنّ مجموع القراءتين الصحيحتين (فارهين، فرهين) يدلّ على تحقّق واجتماع معنييهما عند قوم ثمود، فقد كانوا في نحت البيوت فارهين حاذقين ماهرين، ثمّ كانوا بعد ذلك فرهين أشْرين بطرين. ولم تقتصر مساكن ثمود على الإقامة في البيوت المنحوتة في الجبال، وإنّما توسّعوا في تقدّمهم العمرانيّ، فأنشأوا القصور الفخمة في السهول^(٢)، وقد مرّ معنا ذلك في سورة الأعراف.

والآيات الكريمة تشير إلى تقدّم حضاري في العمران والبناء والزراعة عند قوم ثمود، حيث شيّدوا القصور وما حولها من الجنان والعيون، وبنوا البيوت في الجبال، ونشأ على إثر ذلك السعة في العيش، وتفاوت مستويات استفادتهم منها، فشكّلوا

(١) إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، أحمد بن محمد البناء، عال الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م (٣١٩/٢).

(٢) القصص القرآني (١/ ٢٧٤).

نظاماً اجتماعياً على أساس طبقتين: طبقة المستكبرين، وطبقة المستضعفين^(١). وقد بيّنّا ذلك في سورة الأعراف، وقد استطاع صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في حديثه لقومه، من خلال الآيات الكريمة السابقة ما أنعم عليهم من التمكين في الأرض، وإعطائهم العلم والقوة والقدرة والمهارة ما جعلهم ينحتون الجبال ببراعة، ونلاحظ من خلال الآيات الثلاثة السابقة أنّها توحى بجمال المكان الذي كان يعيش فيه قوم ثمود؛ سواء كان جمالاً طبيعياً ممّا حباهم الله به من الجنّات والعيون، أم جمالاً مصطنعاً من نحت الجبال والمهارة في ذلك والتفنّن^(٢).

٥- قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٥٠].

ذكرهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ مجدداً بتقوى الله عَزَّجَلَّ، وطاعته، فتقوى الله وطاعته كفيلة أن تُذهب ماضيكم، وتمحو ذنوبكم، بل وتبدّله خيراً وصلاًحاً: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتِ﴾ [هود: ١١٤]. فدعاهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أن يتّقوا عقاب الله بطاعته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيما أمر به ونهاهم عنه. وتكرار الأمر بتقوى الله وطاعته، للتأكيد على ذلك، والاهتمام بشأنهما، والتحذير من عقوبة الله بسلب ما ذُكر من النعم منهم، فقد بذل صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وسعه في نصحتهم، واستنفذ طاقته؛ لردّهم عن غيهم، وأنّه أقام الحجّة عليهم، فلا عذر لهم. وفي تكرار الأمر بالتقوى أيضاً تناسب مع جوّ السورة الذي يغلب عليه التّكذيب والإنذار والعقاب^(٣).

(١) سنن الله في الحضارة الإنسانية، أحمد سريرات، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة،

٢٠١٣م، ص ٣٥.

(٢) النظم القرآني في قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ص ١٧٧.

(٣) المصدر السابق نفسه.

٦- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿[الشعراء: ١٥١، ١٥٢].

تفسير الآيات:

أ- ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾:

لا تطيعوا أمر المسرفين على أنفسهم في تماديهم في معصية الله، واجترائهم على سخطه؛ وهم الرهط التسعة الذين كانوا يفسدون في الأرض، ولا يصلحون من ثمود الذين وصفهم الله جل ثناؤه بقوله: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨]^(١).

والإسراف: الإفراط في الشيء، والمراد به هنا الإسراف المذموم في المال وفي الكفر، وفي الأخلاق^(٢)، وفي الاقتصاد، وفي المجتمع، وفي السياسة، وفي كل مناحي الحياة.

- ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾؛ حيث لم يقل (ولا تسرفوا)، وكأن ربنا عز وجل يريد أن يوقظ غفلتنا ويُنَبِّهنا ويحذّرنا من دعاة الباطل الذين يُزَيِّنون لنا الإسراف في أمور حياتنا، ويهوّنون علينا الحرام، يقولون: لا بأس في هذا، ولا مانع من هذا، وهذا ليس بحرام. ربنا يعطينا المناعة اللازمة ضدّ هؤلاء حتّى لا ننساق لضلالتهم^(٣).

(١) تفسير الطبري (١٩/١٠٢-١٠٣).

(٢) شرعة الله للأنبياء، ص ١٢٠.

(٣) تفسير الشعراوي (١٧/١٠٦٥١).

ب- ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾:

وصفهم المولى تَبَارَكَ وَتَعَالَى، بأنهم: ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، لأنَّ الإسراف منوط بالفساد، والإفساد جعل الشيء خارجاً عما ينبغي أن يكون عليه، وعن كونه منتفعاً به، وهو في الحقيقة إخراج الشيء عن حالة محمودة لا لغرض صحيح. ويكون في الدين، والنفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة، ويأتي الفساد بمعنى العصيان والهلاك والقتل والتخريب والتدمير^(١).

والفساد والإفساد حرامان في التشريع الإلهي، وحذّر منهما الأنبياء والرسل، وجاء القرآن الكريم ليمنعهما ويؤكد تحريمهما، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]. وقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَلَا تَعَثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

وقال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]. ثم قال لهم: ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]. وحرّم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفساد والإفساد في أحاديث كثيرة.

وهذا ما يلتزم به المؤمن الصادق الذي يراقب الله تعالى، ويخشى عقابه في الدنيا والآخرة، وهو ما حرص عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على محاربته ومكافحته، حتّى مع الولاة والأمراء وحاسبهم على أعمالهم، وأبدع أيّما إبداع في هذا المسلك.

(١) تفسير القرطبي (١٦/ ٦٥)؛ موسوعة نضرة (١١/ ٥٢٣٦).

وهذا الإفساد محرّم في جميع القوانين والأنظمة في العالم اليوم، ولكن تطبيقه شحيح وقليل. وظهر الفساد في هذا العصر في جميع أنحاء العالم، وخاصة من الحكّام والوزراء، والمسؤولين. وتعدّ جريمة في الشرق والغرب، وفي إفريقية والبلاد العربيّة، ممّا تحتاج إلى التربية الدينيّة والخوف من الله، والمحاسبة والتحذير، وعدم الاعتزاز بالمال والجاه، والسلطة في الدنيا، وأكد صالح عليه السلام أنّ المعصية تمنع النصر، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣]. والمعصية نوع من الفساد^(١).

فهؤلاء القوم الذين تحدّث عنهم صالح عليه السلام لم يصفهم بالفساد وحسب، إنّما أيضاً هم ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ذلك لأنّ الإنسان قد يُفسد في شيء، ويُصلح في شيء، إنّما هؤلاء دأبهم الفساد، ولا يأتي منهم الإصلاح أبداً^(٢).

وصالح عليه السلام حارب الفساد والمفسدين في قومه، ودعاهم إلى الإصلاح العقائدي، والسلوكي، والاجتماعي، والاقتصادي... إلخ.

والصلاح ضدّ الفساد. وقبول في القرآن تارة بالفساد، وتارة بالسيئة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]. ومن الثاني قوله تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢].

والصلاح: هو سلوك طريق الهدى، وهو استقامة الحال على ما يدعوا إليه العقل. والصلاح: المستقيم الحال في نفسه، والقائم بما عليه من حقوق الله، وحقوق العباد^(٣).

(١) شرعة الأنبياء، ص ١٢١.

(٢) تفسير الشعراوي (١٧/ ١٠٦٥٤).

(٣) صلاح القلوب وفسادها، مها محمد رومي لعنزي، ص ٢٩.

٧- قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣].

اتهموه بأنه من المسحَّرين، فما معنى المسحَّرين؟

قال ابن فارس عن معنى السحر:

السحر يُطلق على أصول ثلاثة متباينة:

الأوّل: السَّحَر: وهو ما لصق بالحلقوم والمريء من أعلى البطن.

والثاني: السَّخَر: وهو إخراج الباطل في صورة الحق، للخداع.

والثالث: السَّحَر: وهو الزمان الذي يكون قبيل الصبح^(١).

ولمّا اتَّهم قوم ثمود صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه من المسحَّرين، لعَلَّهم أرادوا المعنيين

الأوّل والثاني من معاني السحر^(٢). وقد قال الإمام الراغب في (المفردات) عن ذلك:

قوله تعالى: ﴿أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾؛ قيل: أنت ممّا جعل له (سَحَر) تنبيهاً إلى أنّه محتاج إلى الغذاء، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]. ولهذا قالوا بعدها: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤]. وقيل: معناه: أنت ممّن جُعِلَ له، (سَحَر)، يتوصّل بلطفه ودقّته إلى ما يأتي به ويدّعيه^(٣).

(١) مقاييس اللغة باختصار (٣/ ١٣٨).

(٢) القصص القرآني (١/ ٢٨٢).

(٣) المفردات، ص ٤٠٠.

وإن كان الأرجح أنهم أرادوا المعنى الأول، لأن الكلمة (المسحّرين) وردت في سياق إنكارهم نبوته لأنه بشر مثلهم، وليس في سياق اتّهامه بالسحر والكذب والخداع: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿[الشعراء: ١٥٣، ١٥٤]؛ أي: أنت بشر، لك سحر ونحر، وحلقوم ومريء، مثلنا فكيف تكون نبياً؟ وقادهم هذا إلى اتّهامه بالكذب، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ (٣١) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّمَّنَّا وَحِدًا نَنْبِئُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿[القصص: ٢١] أَلْفَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشْتَرُ﴾ (٣٥) سَيَعْلَمُونَ عَدَا مَنِ الْكُذَّابُ الْأَشْتَرُ ﴿[القمر: ٢٣-٢٦].

وفي معنى ﴿الْأَشْتَرُ﴾ [القمر: ٢٦]: نَقَلَ السَّمِينُ الْحَلْبِيُّ، وَالْهَرَوِيُّ:

- قال القُتَيْبِيُّ: ﴿الْأَشْتَرُ﴾ [القمر: ٢٦]: هو الفَرَحُ المتكَبَّرُ.

- وقال الهروي: ﴿الْأَشْتَرُ﴾ [القمر: ٢٦]: هو اللجوج في الكذب^(١).

وقال الشيخ متولّي شعراوي رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]: جمع مسحّر، وهي صيغة مبالغة تدلّ على وقوع السحر عليه أكثر من مرّة. تقول: مسحور يعني مرّة واحدة، ومُسحّر يعني عدّة مرّات، ومن ذلك قوله تعالى عن ملأ فرعون أنّهم قالوا له: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأُبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٣٦) يَا تُؤْكِبُ كُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿[الشعراء: ٣٦، ٣٧]، يريدون أن يخلصوا إلى عدم اتّباعه هو بالذات فهم يريدون تديناً على حسب أهوائهم، يريدون عبادة إله لا تكليف له، ولا منهج كالذي يعبدون وهم سعداء بهذه العبادة، لماذا؟

لأنّ آلتهم لا تأمرهم بشيء، ولا تنهاهم عن شيء، لذلك، فكل الدجالين، ومدّعوا النبوة رأيناهم يخفّفون التكاليف على أتباعهم، فقد يمتدّون عن الناس

(١) عمدة الحفاظ، ص ١٠٢؛ القصص القرآني (١/٢٨٣).

الزكاة، وحديثاً أباحوا لهم الحرام والفساد، وهذه تهم لا تستقيم، لا هو ساحر، ولا هو مسحور، إنه مجرد كذب وافتراء على أنبياء الله، وعلى دعاة الخير في كل زمان ومكان^(١).

٨- قال تعالى: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾
[الشعراء: ١٥٤]:

أي: إنك بشر مثلنا، فكيف أوحى إليك دوننا، وتكون نبياً لنا؟ كما قالوا في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا لَقِيَ الدِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرٌّ ۖ سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشَرِّ﴾
[القمر: ٢٥، ٢٦].

وهذا بمنزلة ما كانوا يذكرون في الأنبياء أنهم لو كانوا صادقين، لكانوا من جنس الملائكة^(٢). فقد كان تصورهم للرسول عجباً، هكذا كانت الأمم الكافرة، وما كانت تدرك حكمة الله في أن يكون الرسول بشراً، وما كانت تدرك كذلك تكريم هذا الجنس البشري باختيار الرسل منه ليكونوا رواد البشرية المتصلين بمصدر الهدى والنور، وكانت الأمم الكافرة تتصور الرسول خلقاً غير البشر، أو هكذا ينبغي أن يكون ما دام يأتي إليها من خبر السماء، وخبر الغيب، وخبر العالم المحجوب عن البشر.

ذلك أنها ما كانت تدرك سر هذا الإنسان الذي كرمه الله به، وهو أنه موهوب القدرة على الاتصال بالملاء الأعلى، وهو على هذه الأرض مقيم، يأكل وينام،

(١) تفسير الشعراوي (١٠٦٥٦/٧)

(٢) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م (١٠/٢٢١).

ويتزوج، ويمشي في الأسواق، ويعالج ما يعالجه سائر البشر من المشاعر والنوازع، وهو متصل بذلك السر العظيم.

وكانت البشرية جيلاً بعد جيل تطلب خارقة ومعجزة من الرسول تدل على أنه حقاً مرسلٌ من الله:

- ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾؛ وهكذا طلبت ثمود تلك الخارقة، فاستجاب الله لعبده صالح، وأعطاه هذه الخارقة في صورة ناقة. ولا نخوض في وصفها، كما خاض بعض المفسرين القدامى، لأنه ليس لدينا سند صحيح يعتمد عليه في هذا الوصف، فنكتفي بأنها كانت آية عجيبة ومعجزة خارقة كما طلبت ثمود^(١).

٩- قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿ [الشعراء: ١٥٥، ١٥٦]:

جاءهم نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بمعجزة الناقة على شرط أن يكون الماء الذي يستقون منه يوماً للناقة، ويوماً لهم، ولا يجورون عليها في يومها، ولا تجور عليهم في يومهم، ولا يختلط شربها بشربهم، كما لا يختلط يومها بيومهم، ولقد حذّره أن ينالوها بسوء على الإطلاق، وإلا أخذهم عذابٌ يومٍ عظيمٍ.

فماذا فعلت الآية الخارقة بالقوم المتعتّتين؟ إنها لم تسكب الإيمان في القلوب الجافة، ولم تبث النور في الأرواح المظلمة، على الرغم من قهرها لهم وتحديهم بها، وإنهم لم يحفظوا عهدهم، ولم يوفوا بشرطهم^(٢).

(١) في ظلال القرآن (٢٦١٢/٥).

(٢) المصدر السابق نفسه.

١٠ - قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧]:

والعقر: النحر. والذين عقروها منهم الذين يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، ولقد حذرهم صالح وأنذرهم فلم يخشوا النذير^(١)، وجاء التعبير: (عقروها) بصيغة الجمع مع أن الذي عقروها واحد منهم: (قدار بن سالف)، ولكن وافقه الجميع على ذلك، وساعده، وارتضوا هذا الفعل، فكأنهم فعلوا جميعاً، لأنه استشارهم فوافقوا^(٢) فكانت الخطيئة على الجميع، وكان الجميع مؤاخذين بهذا الإثم العظيم، ولقد ندم القوم على الفعلة، ولكن بعد فوات الأوان، وتصديق النذير.

- ﴿فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾؛ فقد ندموا وتابوا في غير أوان التوبة، أو أنهم أصبحوا نادمين، لا ندمَ توبة من الذنب، إنما نادمون؛ لأنهم يخافون العذاب الذي هدّهم الله به إن فعلوا^(٣).

قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ، وأصبحوا نادمين لما رأوا أشرار العذاب الذي توعدّهم به صالح، ولذلك لم ينفعهم الندم، لأن العذاب قد حلّ بهم سريعاً، فلذلك عطف بفاء التعقيب على ﴿نَادِمِينَ﴾، ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الشعراء: ١٥٨]^(٤).

ويقول الدكتور وهبة الزحيلي: أي ذبحوا الناقة، ثم ندموا على فعلهم عند معاينة العذاب، أي: حين علموا أن العذاب نازل بهم، فنالهم عذاب الله، وهو أن أرضهم

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) تفسير الشعراوي (١٧/١٠٦٥٨).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) التحرير والتنوير (٨/٤٠١).

زُلْزِلَتْ زَلْزَالًا شَدِيدًا، وَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ عَظِيمَةٌ اقْتَلَعَتْ الْقُلُوبَ مِنْ مَحَالِهَا، وَأَتَاهُمْ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ، وَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ.

وَالَّذِي حَدَّثَ أَنَّ النَّاقَةَ مَكَثَتْ لَدَيْهِمْ حِينًا مِنَ الزَّمَانِ، تَرِدُ الْمَاءَ، وَتَأْكُلُ الْوَرَقَ وَالْمَرْعَى، يَتَنَعَّمُونَ بِلَبْنِهَا، يَحْلِبُونَ مِنْهَا مَا يَكْفِيهِمْ شَرِبًا وَرِيًّا، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ، وَحَضَرَ أَشْقَاؤُهُمْ، تَمَالَّوْا عَلَى قَتْلِهَا وَعَقَرُوهَا. رَوَى أَنَّ مِسْطَعًا أَلْجَأَهَا إِلَى مَضِيقٍ فِي شَعْبٍ، فَرَمَاهَا بِسَهْمٍ، فَأَصَابَ رَجُلَهَا فَسَقَطَتْ، ثُمَّ ضَرَبَهَا قُدَارًا^(١).

١١ - قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٥٨، ١٥٩]:

أ- ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾:

حَلَّ وَنَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ الَّذِي تَوَعَّدَهُمْ بِهِ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمْ يُفْلِتُوا مِنْهُ. وَ(اللام) فِي قَوْلِهِ: ﴿الْعَذَابُ﴾ [الشعراء: ١٥٨]، عَهْدِيَّةٌ، إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦]، فَأَفَادَتْ صَدَقَ صَالِحٌ فِيمَا تَوَعَّدَهُمْ بِهِ^(٢) وَالرَّدَّ عَلَى تَحْدِيثِهِمْ عِنْدَمَا قَالُوا: ﴿فَأَتَتْ بِحَآئِيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤].

ب- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾:

وَهُنَا الْقَصْدُ بِأَنَّ فِي إِهْلَاكِ ثَمُودَ بِمَا فَعَلَتْ مِنْ عَقْرِهَا نَاقَةَ اللَّهِ، وَخِلَافِهَا أَمْرُ نَبِيِّ اللَّهِ صَالِحٍ لَعِبْرَةٌ لِمَنْ اعْتَبَرَ، وَعِظَةٌ لِمَنْ يَتَعِظُ يَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْمِكَ. وَقَدْ دَلَّ نَظْمُ الْآيَةِ عَلَى عَظَمِ شَأْنِ الْقِصَّةِ، فَقَدْ أَكَّدَتِ الْجُمْلَةُ (إِنَّ) وَاللَّامُ لِلتَّنْبِيهِ

(١) تفسير المنير (١٠/٢٢٢).

(٢) النظم القرآني في قصة صالح، ص ٨٤.

على أهمية الخبر الوارد فيها، والتأكيد على أنها عبرة لمن اعتبر، وذلك مناسب لحال كفار قريش الذي ينكرون أن يكون القرآن من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يعتبرون بما فيه من المواعظ والقصص.

كما أن اسم الإشارة: (ذلك) الدال على البعد يفيد عظم شأن القصة المذكورة، وما فيها من التخويف والإنذار وتهويله^(١). وفي تنكير لفظة: ﴿لَايَةً﴾ تعظيم لما في القصة من الاعتبار لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٨]، وفي التعبير بالجملة الإسمية للدلالة على استقرارهم على عدم الإيمان واستمرارهم عليه^(٢).

ج- ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: لن يؤمن أكثرهم في سابق علم الله^(٣).

د- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾:

هنا المعنى: وإن ربك يا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهو العزيز في انتقامه من أعدائه، الرحيم بمن آمن به من خلقه^(٤).

وقد أكدت الجملة بعدة مؤكدات، وهي: (إنّ) و (اللام) وضمير الفصل (هو)، وتعريف المسند باللام، وهما يفيدان القصر، والغرض من التوكيد تقوية مضمون الكلام^(٥) وتعريف الله لنفسه للمؤمنين من خلال صفاته وأسمائه.

(١) المصدر السابق، ص ١٨٥.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) تفسير الطبري (١٩/ ١٠٤).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) النظم القرآني، ص ١٨٦.

وفي إضافة (الرب) إلى ضمير الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله ﴿رَبِّكَ﴾ تكريم وتشريف للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإشارة لعناية الله به عناية خاصة، فهو ربه وهو ناصره. والتعبير بالربوبية في خطاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مناسب للمقام، إذ هو مقام نصره وتأييد وإحسان، وذلك من مقتضيات الربوبية^(١).

واختيار الاسمين الكريمين: (العزیز) و (الرحيم)، لمناسبتهما صفات الغلبة والقهر والانتقام^(٢) وذلك يدل على صفة الرحمة، وذلك مناسب لرحمته لرسله وللمؤمنين وتأييده ونصره لهم^(٣).

وقدّم اسم الله (العزیز) على اسمه (الرحيم) لدلالة السياق عليه^(٤) فإن إهلاك المكذبين يقتضي تقديم: (العزیز). وذكر الزركشي علّة أخرى تتعلق بالأكثرية والأقلية حيث قال: وأمام مناسبة قوله: ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، فإنه تعالى نفى الإيمان على الأكثر فدلّ بالمفهوم على إيمان الأقل، فكانت العزة على من لم يؤمن والرحمة لمن آمن، وهما مرتبتان كترتيب الفريقين^(٥).

وانتهت قصّة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الشعراء بخطاب إلهي كريم من عزيز رحيم، لكيلا نتأمل في اسمه العزيز، واسمه الرحيم.

- ﴿الْعَزِيزُ﴾: اسم الله العزيز: الذي له العزة كلها، عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة، وخضعت لعظمته^(٦)، فبِعَزَّتْهُ أَهْلَكَ ثمود سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) البحر المحيط (٦/١٧٨).

(٣) النظم القرآني، ص ١٨٧.

(٤) البرهان في علوم القرآن، ص ٧٨٩.

(٥) المصدر السابق، ص ٦٣٤.

(٦) تفسير السعدي (٥/٣٠٠-٣٠١).

- ﴿الرَّحِيمُ﴾: اسم الله ﴿الرَّحِيمُ﴾، يذكر مع الرحمن دائماً في كتب أسماء الله الحسنى، وهذان الاسمان الكريمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، وهي الرقة والتعطف، وإنَّ اسم (الرحمن) أشدَّ مبالغة من فعيل، وبناء "فَعْلَان" للسعة والشمول^(١).

إنَّ اقتران اسم العزيز باسمه الرحيم في سورة الشعراء في قصة هود مع قومه، ناسب ختمها بهذين الاسمين الكريمين، وذلك ما حصل للمكذبين من عذاب وهلاك، إنما هو مقتضى عزِّته سبحانه، وقوته وغلبته، وهو موجب اسمه سبحانه (العزيز) وما حصل من إنجاء صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأتباعه، إنما مقتضى رحمته ولطفه، وهو موجب اسمه سبحانه (الرحيم) فرحمته سبحانه ناشئة عن قدرة وقوة وعزة لا من ضعف وعجز. واجتماع الوصفين يدل على جريان عزِّته سبحانه على سنن الرحمة التي تستلزم إفاضة الخير والإحسان^(٢).

خامساً: قصة صالح في سورة النمل:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ٤٥﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعُوا بَنِيكُمْ وَبَيْنَ يَدَيْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ٤٩﴾ وَمَكْرُؤُهُ مَكْرًا وَمَكْرُؤُهُ مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٠﴾ فَانْظُرْ

(١) والله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، ص ١٢٠.

(٢) المصدر السابق نفسه.

كَيْفَ كَانَ عَقِبُهُمْ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبَلَكَ يُؤْتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأُنَجِّينَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ [النمل: ٤٥-٥٣].

عندما تحدّث العلامة الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ عَنْ قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سورة النمل، قال: هذا مثل ثالث ضربه الله لحال المشركين مع المؤمنين، وجعله تسلية لرسوله وحببيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بأنَّ له أسوة بالرسول، والأنبياء من قبله. والانتقال من ذكر مُلْك سليمان، وقصة ملكة سبأ، إلى ذكر ثمود ورسولهم دون ذكر عاد لمناسبة جوار البلاد، لأنَّ ديار ثمود كانت على تخوم مملكة سليمان، وكانت في الطريق السائر من سبأ إلى فلسطين.

ألا ترى أَنَّهُ أعقب ذكر ثمود بذكر قوم لوط، وهم أدنى إلى بلاد فلسطين، فكان سياق هذه القصص مناسباً لسياق السائر من بلاد اليمن إلى فلسطين. ولما كان ما حل بالقوم أهمّ ذكراً في هذا المقام قدّم المجرور على المفعول لأنَّ المجرور هو محل العبرة، وأما المفعول فهو محلّ التسلية، والتسلية غرضٌ تبغي^(١).

وفي هذه السورة لا تذكر قصة ناقة صالح، وإنّما يذكر تبييت الرهط التسعة المفسدين لصالح وأهله، ومكرهم به، فمكر الله بهم وهم لا يشعرون، ودمّرهم وقومهم أجمعين، وترك بيوتهم خاوية آيةً لمن بعدهم. والمشركون في مكة يمرّون بهذه البيوت المدمّرة الخاوية، ورغم ذلك لا يعتبرون^(٢).

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٤٨١).

(٢) أنبياء تركوا آثاراً، ص ١١٢.

تفسير الآيات الكريمة:

١ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥]:

بدأت الآية بالقسم لتأكيد رسالة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وتنبية السامع باهتمام فيما يرد بعده، أو ليؤكد للمخاطبين المترددين فيما تضمنه الخبر، من تكذيب قومه إِيَّاهُ، واستحقاقهم بوعيد ربهم على لسانه، وحلول العذاب بهم، لأنَّ حالهم في عدم العظة بما جرى للماثلين في حالهم، ولمَّا كان ما حلَّ بالقوم مهمًّا في أخذ العبرة، قدَّم المجرور على المفعول به فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾.

أ- ﴿أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ﴾:

لخص رسالة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ هنا في جملة واحدة: ﴿أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ﴾، في أقصر وأبلغ عبارة، ذلك أنَّ الحياة كُلُّهَا تقوم على الإيمان بالله^(١) وتحقيق توحيده، وإفراده بالعبادة، ومحاربة كل أشكال الكفر والشرك.

وهذه هي رسالة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ﴾، فهذه هي القاعدة التي تركز عليها رسالة السماء إلى الأرض في كل جيل، ومع كل رسول^(٢).

ب- ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾:

- العطف بالفاء التي تقتضي التعقيب، لا المهلة، يفيد أن فريقاً منهم بادروا بالتكذيب والخصومة من حين دعوة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم.

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٤٤).

(٢) المصدر السابق نفسه.

- ﴿فَإِذَا﴾ الفجائي تفيد التعجب منهم^(١).

وهنا التعبير بالمضارع مع صيغة التفاعل في قوله: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ يفيد تكرار ذلك التخاصم وتجددّه وأن كل فريق صار خصماً للآخر، يدافع عن دينه يوالي فيه، ويعادي فيه، فثمود انقسمت إلى فريقين منفصلين على أساس العقيدة فقد انبثت وشيحة القومية وشيحة القرابة، لتقوم وشيحة العقيدة وحدها^(٢).

قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في الأضواء: ذكر جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية الكريمة أنّه أرسل نبيّه صالحاً إلى ثمود، فإذا هم فريقان يختصمون، ولم يبيّن هنا خصومة الفريقين، ولكنه بيّن ذلك في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِءُ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦] فهذه خصومتهم، وأعظم أنواع الخصومة في الدين^(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦]:

لما دُعي صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يأتيهم بالعذاب إن كان صادقاً فيما يدّعيه من أنّه رسول من عند الله، وهذا يفهم من السياق، ومن المواضع الأخرى التي وردت فيها القصة في القرآن الكريم، فوعظهم صالح ونبّهم أن طلبهم هذا لا ينبغي، فقال:

(١) النظم القرآني في قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ص ١٩٣.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) أضواء البيان (٤٠٦/٦).

أ- ﴿قَالَ يَقَوْمُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾:

- ﴿يَقَوْمُ﴾؛ فيه تلطف صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بقومه ورفقه بهم، وتودده إليه، واقترابه منهم بنداؤه: ﴿يَقَوْمُ﴾.

- ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾؛ الاستفهام للإنكار عليهم لاستعجالهم العذاب دون الرحمة. وصيغة المضارع في قوله: ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ مع دخول (السين) على الفعل تدلّ على تجدد الطلب منهم، واستمرارهم في الإلحاح عليه، وهذا يشير إلى مدى تكذيبهم لما جاء به صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، واستعبادهم لوقوع العذاب بهم، وإلا لما كانوا استعجلوه^(١).

وقد خاطبهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ تنبيهاً لهم على الخطأ فيما قالوه وتجهيلاً فيما اعتقدوه وأنّ الأولى أنّهم يجعلوا امتداد السلامة أمانة على إمهال الله إياهم، فيتقوا حلول العذاب بالمبادرة إلى التصديق والتوبة والاستغفار لعلّ الله يرحمهم فلا يعذبهم^(٢).

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: السيئة: العقوبة. والحسنة: التوبة، في قوله: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾.

وفي الآية الكريمة التعبير بـ (السيئة) عن العذاب، و(الحسنة) عن رحمة الله بعباده. وفيه إشارة إلى أنّ العذاب يحلّ بمن يستحقه لاقترافه السيئات، وأنّ الله لا يظلم أحداً^(٣).

(١) النظم القرآني في قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ص ١٩٤.

(٢) أنبياء تركوا آثاراً، ص ١١٦.

(٣) النظم القرآني، ص ١٩٤.

ب- ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾:

وبعد أن أنكر عليهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ العذاب قبل الرحمة حضهم على ما فيه درء السيئة عنهم، وهو الإيمان، واستغفار الله مما سبق من الكفر، وناط ذلك بترجي الرحمة، ولم يجزم بأنه يترتب على استغفارهم، وكان في التحقيق تنبيه على الخطأ منهم في استعجال العقاب، وتجهيل لهم في اعتقادهم^(١).

وإن استعمال صيغة المضارع في (تستغفرون)، بعد التحضيض عليه فيه حث على استحداث الاستغفار، وتجديده، وإدامته^(٢).

- ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: هلا استغفرتم ربكم حتى تنالوا رحمته، فالذنوب محرمة وضارة بالجسم والعقل والنظام الاجتماعي، وهي أكثر ما تكون ضرراً مع إصرار فاعلها على ما اقترف من سوء وندم على ما فات وامتنع^(٣) عن الذنوب.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

فكان ردّ ثمود على صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ:

٣- ﴿قَالُوا أَطِئْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طِئْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾

[النمل: ٤٧]:

(١) البحر المحيط (٢٤٩/٨).

(٢) النظم القرآني في قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ص ١٩٥.

(٣) مع الأنبياء في القرآن، عفيف عبد الفتاح طباره، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط ١٥، ١٩٨٥ م، ص ١٠٢.

أ- ﴿قَالُوا أَطِيرَنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ [النمل: ٤٧]:

أي: تشاءمنا^(١).

والتطير: التشاؤم، مأخوذ من عادة الأقوام الجاهلة التي تجري وراء الخرافات والأوهام، لأنها لا تخرج منها إلى نصاعة الإيمان، فقد كان الواحد منهم إذا همّ بأمر لجأ إلى طائر فزجره -أي: أشار إليه مطارداً- فإن مرّ سانحاً عن يمينه إلى يساره استبشر، ومضى في الأمر، وإن مرّ بارحاً عن يساره إلى يمينه تشاءم وتوقع الضر^(٢).

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: فَإِنْ تَحَوَّلَ يَمِينًا تَفَاءَلُوا^(٣)، وسموه السانح، وإن اتّجه يساراً تشاءموا وسموه البارح، وما تدري الطير الغيب، وما تدري حركاتها التلقائية، عن شيء من المجهول ولكن النفس البشرية لا تستطيع أن تعيش بلا مجهول مغيب تكل إليه ما لا تعرفه وما لا تقدر عليه، فإذا لم تكل المجهول المغيب إلى الإيمان بعلام الغيوب ووكلته إلى مثل هذه الأوهام والخرافات التي لا تقف عند حد، ولا تخضع لعقل، ولا تنتهي إلى اطمئنان ويقين بالله، ويستنكفون أن يكلوا الغيب إليه، لأنهم بزعمهم قد انتهوا إلى حد من العلم لا يليق معه أن يركنوا إلى خرافة الدين، هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله، ولا بدينه ولا بغيبه، تراهم يعلقون أهمية ضخمة على رقم (١٣)، وعلى مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم، وعلى إشعال أكثر من لفافتين بعود ثقاب واحد، إلى آخر هذه الخرافات الساذجة. ذلك أنهم يعاندون حقيقة الفطرة، وهي جوعتها إلى الإيمان، وعدم استغنائها عنه،

(١) مجالس النور في تدبر القرآن الكريم وتفسيره، د. محمد عياش الكبيسي، دار نشر جامعة قطر،

٢٠١٩م (١٠٥١/٣).

(٢) في ظلال القرآن (٥/٢٦٤٥).

(٣) الكشاف، الزمخشري (٣/١٤٦).

وركونها إليه في تفسير كثير من حقائق هذا الكون التي لم يصل إليها علم الإنسان، وبعضها لن يصل إليه في يوم من الأيام، لأنه أكبر من الطاقة البشرية، ولأنه خارج عن اختصاص الإنسان، زائد على مطالب خلافته في هذه الأرض، التي زوّد على قدرها بالموهب والطاقات^(١).

ونلاحظ في تخصيص صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَطَيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾، ولم يقولوا: (بكم)، دلالة على مبلغ كفرهم^(٢) وتطاولهم على رسولهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، جرأتهم عليه، فلما قال قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ قولتهم الجاهلة الساذجة العالقة في تيه الوهم والخرافة، ردّهم صالحٌ إلى نور اليقين، وإلى حقيقته الواضحة، البعيدة عن الضباب والظلام^(٣).

ب- ﴿قَالَ طَطِيرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾:

حظُّكم ومستقبلكم عند الله، والله قد سنَّ سنناً، وأمر الناس بأمور، وبين لهم الطريق المستنير، فمن اتَّبَعَ سنة الله، وسار على هداه، فهناك الخير، بدون حاجة إلى زجر الطير، والانحراف عن الفطرة، والحيد عن الهدى، فهناك الشر، بدون حاجة إلى التشاؤم والتطير^(٤).

ج- ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾:

تفتنون بنعمة الله، وتخبرون بما يقع لكم من خير ومن شر، فاليقظة وتدبُّر السنن، وتتبعُ الحوادث والشعور بما وراءها من فتنة وابتلاء هو الكفيل بتحقيق

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٤٥).

(٢) النظم القرآني في قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ص ١٩٦.

(٣) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٤٥).

(٤) المصدر السابق نفسه.

الخير في النهاية، لا التشاؤم والتطير ببعض خلق الله من الطير ومن الناس على حد السواء.

وهكذا تردّ العقيدة الصحيحة الناس إلى الوضوح، والاستقامة في تقدير الأمور، وترد قلوبهم إلى اليقظة والتدبر فيما يقع لهم أو حولهم، وتشعرهم أنّ يد الله وراء هذا كله، وأن ليس شيء مما يقع عبثاً أو مصادفة، وبذلك ترتفع قيمة الحياة، وقيمة الناس، وبذلك يقضي الإنسان رحلته على هذا الكوكب غير مقطوع الصلة بالكون كله من حوله، وبخالق الكون ومدبره، وبالنواميس التي تدير هذا الكون وتحفظه بأمر الخالق المدبر الحكيم. ولكن هذا المنطق المستقيم إنّما تستجيب له القلوب التي لم تفسد، ولم تنحرف الانحراف الذي لا رجعة منه. وكان من قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ من كبرائهم تسعة نفر لم يبق في قلوبهم موضع للإصلاح والإصلاح فراحوا يأتُمرون به، ويدبرون له ولأهله في الظلام^(١).

٤- قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿[النمل: ٤٨، ٤٩]:

أخبر الله عزَّ وجلَّ أن في مدينة قوم صالح -وهي حجر ثمود- تسعة رهط يفسدون في الأرض بالكفر والمعاصي إفساداً عظيماً لا يخالطه إصلاح.

أ- ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾:

- (الرھط): هم العصاة من الناس، عددهم دون العشرة^(١)، وقيل: يقال إلى الأربعين^(٢).

هؤلاء التسعة رھط من المفسدين كانوا يرون الناقة تجوب الحجر، وتدهش المدائن، بتمایل سنامها الضخم في الطرقات، وهي تدبّ دون قائد في اليوم المحدد لشربها ثم تتوقف أمام العين، فتخفض رأسها، وتحني رقبتها العملاقة، لتغبّ من الماء حتى ترتوي، ثم يحلبونها بكميات هائلة تزيد يقين المؤمنين، وشكر الشاكين، وتثير حقّد الوثنيين، فتشعرهم بالهزيمة فيزدادون ضللاً.

ولقد مرّت الأيام، والحقّد يتورّم كسرطان في نفوس الوثنيين، وكان من أشرّهم، تسعة رھط يفسدون في الأرض، هم تسعة أشقياء، يعرفون الحق، ويصرون على محاربتة، فالحقّد ينغص عليهم طعامهم وشرابهم، ويقض مضاجعهم، لهم وشوشة في الطرقات كلما رأوا صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما جاء به.

وقد بدؤوا يعقدون الاجتماعات علّهم يصلون إلى طريقة يتخلّصون بها منه، طمح كيلهم، فعقدوا اجتماعاً أخيراً، تداولوا الأفكار الشريرة^(١).

ب- ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [النمل: ٤٩]:

بعد التداول والتشاور انتهى الاجتماع، وتفرق الأشرار التسعة بعد أن اتفقوا على القضاء على صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأسرته، ثم القسم على إنكار أن لهم يداً في هذه

(١) القصص القرآني (١/ ٢٦٤٥).

(٢) التدبر والبيان (٢٥/ ٩٨).

(١) في ظلال الأنبياء، محمد حمد الصوياني، شركة العبيكان للتعليم، ط ١، ٢٠٢٢م، ص ٣٥.

الجريمة البشعة^(١). وقد سجّل الله سبحانه في كتابه هذا المكر الكبير، وبين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ التصفية الجسدية طريق الطواغيت للتخلص من الدعاة لَأَنْهَا الطريقة التي يلجأ إليها الطواغيت حينما يعجزون عن مقاومة الحجة بالحجة، والفكرة بالفكرة، فيسلكون هذه الوسيلة؛ وسيلة الغدر والغيلة والخيانة^(٢).

- ﴿قَالُوا تَفَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾؛ تأمروا على قتل صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأقسموا بالله على ذلك، وحلفوا الأيمان، وأكدوا ما اتفقوا عليه.

ومعنى ﴿تَفَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾؛ أي: قسموا بالله على التنفيذ بالليل بيّاتاً، وهم نائمون وقتلهم دون أن يشعر بهم أحد^(٣).

قال السمين الحلبي رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى التبييت: والتبييت: تدبير الأمر ليلاً، وأكثر ما يكون ذلك في المكر. قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]. وبَيِّتَ على ذلك: عزم عليه قاصداً له^(٤).

- ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾؛ ومن المبالغة من مكر ولؤم المتآمرين التسعة أنهم اتفقوا على قتل صالح وأهله ليلاً، وإنكار هذا فيما بعد، والتبرؤ من دمه أمام وليّه^(٥)؛ أي: وليّ الدم من عصبته ورحمه.

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) مع الأنبياء في الدعوة إلى الله، د. محمد أبو فارس، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ٢٠١٥م، ص ٤٤٣.

(٣) القصص القرآني (١/ ٢٩٠).

(٤) عمدة الألفاظ (١/ ٢٧٩).

(٥) القصص القرآني (١/ ٢٩٠).

- ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ﴾؛ ما شهدنا مقتل أهله، فمن باب أولى ما شهدنا مقتله، ولا نعرف عنه شيئاً^(١).

- ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾؛ أي: ما شهدنا مهلك أهله، ولا مقتله، وإنّا لصادقون في ذلك، فقد قتلوهم في الظلام فلم يشهدوا هلاكهم، أي: لم يروه بسبب الظلام، وهو احتيال سطحي، وحيلة ساذجة، ولكنهم يطمئنون أنفسهم بها، ويبررون كذبهم الذي اعتموه للتخلص من أولياء دم صالح، وأهله.

إنّه من العجب أن يحرص مثل هؤلاء على أن يكونوا صادقين، ولكن النفس الإنسانية مليئة بالانحرافات والالتواءات، وبخاصة حين لا تهتدي بنور الإيمان الذي يرسم لها الطريق المستقيم، كذلك دبّروا، وكذلك مكروا، ولكن الله كان بالمرصاد يراهم، ولا يرونه، ويعلم تدبيرهم، يطلع على مكرهم، وهم لا يشعرون^(٢).

إنّ بغض أهل الفساد للمصلحين، واستهزاءهم بالناصحين، موجودٌ في كل زمان، لأنّ الناصح المصلح يدكّ معاقل المفسدين بكلماته الطيبة، ويعدّد مصالحهم وشهواتهم بإنكاره للمنكر ونهيه عنه^(٣) ودعوتهم لتوحيد الله وإفراده بالعبادة، ومحاربة الشرك كما فعل نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه.

- قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: وإنّما غلب هؤلاء على أمر ثمود؛ لأنّهم كانوا كبراء فيهم ورؤساءهم. وقوله: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾؛ أي: تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ليلاً غيلة، فكادهم الله، وجعل الدائرة عليهم. قال

(١) تفسير الشعراوي (١٧/١٠٨٠١).

(٢) في ظلال القرآن (٥/٢٦٤٦).

(٣) في قصصهم عبرة، علي حسن العبيدي، كلمات للنشر والتوزيع، ٢٠٢١م، ص ١٨٨.

مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: تقاسموا وتحالفوا على هلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين^(١). قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: وقد تشاءم بعضُ الناس بعدد التسعة بسبب قصة ثمود وهو من التشاؤم المنهي عنه. وهذا الجزء من قصة ثمود لم يذكر في غير هذه السورة، وأحسب سبب ذكره أن نزول هذه السورة كان في وقت تأمر فيه المشركون على الإيقاع بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو التآمر الذي حكاه الله في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأأنفال: ٣٠].

فضرب الله لهم مثلاً بتآمر الرهط من قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ومكرهم وكيف كان عاقبة مكرهم، ولذلك ترى بين الآيتين تشابهاً، وترى تكرير ذكر مكرهم، ومكر الله بهم، وذكر أن في قصتهم آية لقوم يعلمون^(٢).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠، ٥١]:

- وأين مكر من مكر؟ وأين تدبير من تدبير؟ وأين قوة من قوة؟

وكم ذا يخطئ الجبارون، وينخدعون بما يملكون من قوة ومن جهلة، ويغفلون عن العين التي ترى ولا تغفل. والقوة التي تملك الأمر كله، وتباغتهم من حيث لا يشعرون^(٣).

(١) تفسير ابن كثير (٢٠٨/٦).

(٢) التحرير والتنوير (٤٨٨/٨).

(٣) في ظلال القرآن (٢٨٤٦/٥).

- قال الإمام السعدي رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا﴾؛ دَبُّوا أَمْرَهُمْ عَلَى قَتْلِ صَالِحٍ وَأَهْلِهِ عَلَى وَجْهِ الْخَفِيَّةِ حَتَّى مِنْ قَوْمِهِمْ خَوْفًا مِنْ أَوْلِيَائِهِ.

- ﴿وَمَكْرَنَا مَكْرًا﴾؛ بَنَصَرِ نَبِيِّنَا صَالِحٍ وَتَسِيرِ أَمْرِهِ وَإِهْلَاكِ قَوْمِهِ الْمَكْذِبِينَ.

- ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ هَلْ حَصَلَ مَقْصُودُهُمْ؟ وَأَدْرَكُوا بِذَلِكَ الْمَكْرَ مَطْلُوبَهُمْ أَمْ انْتَقَضَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١]؛ أَهْلَكْنَاهُمْ وَاسْتَأْصَلْنَا شَأْفَتَهُمْ فَجَاءَتْهُمْ صِيحَّةُ عَذَابٍ فَأَهْلَكُوا عَنْ آخِرِهِمْ^(١).

- وقال الإمام ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: سَمَّى اللهُ تَأْمِرَهُمْ مَكْرًا بِالْمَفْعُولِ الْمَطْلُوقِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُوَّتِهِ فِي جِنْسِ الْمَكْرِ. وَتَنْوِينُهُ لِلتَّعْظِيمِ^(٢).

وإن المكر هو إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر^(٣). وقال السيوطي: المكر: ما يقصد فاعله في باطنه خلاف ما يقتضيه ظاهره^(٤).

قال الشاعر:

وكم من حافر لأخيه ليلاً
تردى في حفرتة نهراً

٦- قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ

يَعْلَمُونَ ﴿[النمل: ٥٢]:

(١) تفسير السعدي (٢/ ٨٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٤٨٨).

(٣) التعريفات للجرجاني، ص ٢٢٧.

(٤) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، السيوطي، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط ١،

٢٠٠٤م، ص ٢٠٧.

تفسير الآيات الكريمة:

أ- ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾:

- (الفاء) للتعقيب على جملة (بيوتهم) والإشارة (تلك) إلى ديار ثمود المروفة لجميع قريش، وهي في طريقهم إلى الشام، أصبحت بعد إنزال العذاب خاوية على أهلها^(١). أي: خالية من السكان لهلاك جميع أهلها.

وقال بعض العلماء: (خاوية)؛ أي: ساقطاً أعلاها على أسفلها^(٢).

وقد كانوا من قبل ينخدعون بقوتهم ويغفلون عن ربهم ويمكرون برسولهم. وانتصب (خاوية) على الحال، وها هي آثارهم المذمومة، بعد التدمير والهلاك شاهدة على سوء فعلهم.

لقد ترك الله عَزَّجَلَّ بيوتَ ثمود المحفورة في الغالب سليمة خالية بما ظلموا لتكون آية وعبرة لمن يعتبر وعظة لمن يتعظ بها لمن سيأتي بعدهم من الأقوام ولتكون هذه البيوت إنذاراً لمن بعدهم فلا يكفرون مثل كفرهم، وإلا سينالون من العذاب ما نالوا، ولا يزال الناس يرون هذه البيوت المحفورة في الجبال إلى زماننا هذا^(٣).

ب- ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾:

وهنا الباء سببية؛ أي بسبب ظلمهم. وأصل الظلم: وضع الشيء في غير موضعه^(٤). ومعنى الظلم، الشرك، لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ

(١) أنبياء تركوا آثاراً، ص ١٢٩.

(٢) محاضرات الأدباء، الراغب الأصفهاني (١/ ٣٥٥).

(٣) نهاية الأمم، عدنان الطرشة، العبيكان للنشر، ٢٠٠٦م، ص ٤٩.

(٤) أنبياء في القرآن تركوا آثاراً، ص ١١٩.

يُظْلِمُ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿[الأنعام: ٨٢]؛ أي بشرك. وقوله تعالى: ﴿الشِّرْكُ لُظْلُمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. فإن الله تعالى الخالق والرازق المنعم وحده لا شريك له، فإذا أشرك به غيره فذلك أعظم الظلم لأنه جعل النعمة لغير ربّها.

وقد وصف القرآن الكريم أحوالهم وأعمالهم بالظلم؛ لأنّ ظلمهم جامع عدة فظائع: الظلم الذي بينهم وبين ربّهم بما أشركوا معه في العبادة. ثمّ ظلمهم الذي كان بينهم وبين نبيهم والمؤمنين. والظلم الآخر الذي بينهم وبين أنفسهم؛ إذ حرموها من الإيمان بالله وآياته ورسله^(١).

وقد كان العقاب جماعياً، ونزل العذاب على كلّ كفار ومشركي ثمود، وعلى الذي نفذ قتل الناقة، ومن رضي بالقتل والمعصية، وسكتوا عن المنكر، فاستحقوا العقاب؛ لأنّ الأمة متضامنة متكافلة في الخير والشر، وإنّها متى سككت عن منكر، وكان في استطاعتها أن تقف في سبيل صاحبه، عاقبها الله على ذلك السكوت بالعقاب الشامل^(٢).

وعن سيدنا أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنّي سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمّهم الله بعذاب من عنده^(٣).

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) الدروس المستفادة من العقوبات الإلهية، ص ٢٤١.

(٣) رواه أبو داود، كتاب الملاحم، رقم (٤٣٣٨).

ج- ﴿إِتَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾:

في ذكره: ﴿إِتَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾؛ تأكيداً على الاهتمام بالآثار التي بقيت من قوم ثمود. تلك البيوت الخاوية من أهلها، وقد مسها العذاب فيها عبرة للمعتبر، وموعظة لقوم يعلمون. واللام في قوله: ﴿لِقَوْمٍ﴾ أي آية حتى يتحقق لهم العلم، والإيمان، وفيه تعريض للمشركين. والقرآن حين يعرض قصة قوم ثمود، يأخذ من أحداث التاريخ، ووقائعه ما يحقق أهدافه من التهذيب والوعظ والتأثير في القلوب، والتحذير من معصية الله، والبشارة برضوان الله، إلى تثبيت قلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن اتبعه^(١)، ولذلك قال:

٧- قوله تعالى: ﴿وَأُنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣]:

أنجينا المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكانوا يتقون الشرك بالله والمعاصي، ويعملون بطاعته وطاعة رسله^(٢).

- ﴿وَأُنْجَيْنَا﴾: تدل على سرعة النجاة. ولم يقل: (ونجينا) التي تدل على طول زمن النجاة.

- ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ أي: صالحاً والذين آمنوا معه.

- ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾؛ كانوا يطيعون أوامر الله، ويتجنبون نواهيه، ويتقون عذاب الله، وذلك بطاعة الله ورسله، ويتقون عذاب الله، وذلك بطاعة الله ورسله، و (يتقون) جاءت بصيغة المضارع التي تدل على التجدد والتكرار، لأن التقوى تتجدد وتكرر، أما كلمة آمنوا فجاءت بصيغة الماضي؛ لأن الفرد متى آمن لا يرجع

(١) أنبياء في القرآن تركوا آثاراً، ص ١٢٠.

(٢) تفسير السعدي (٢/ ٨٢٣).

عن إيمانه. ومما يلفت الانتباه أنه سبحانه لم يذكر شيئاً عن الناقة في هذه الآيات^(١) مما يدل على تكامل لقطات القصة في السور المختلفة^(٢).

إن الآية الكريمة ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ تبيّن لنا سنة الله في أهل الإيمان والتقوى فبالإيمان والتقوى يحصل:

- الرخاء، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

- وللمؤمن المتقي أجره في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣) وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٦، ٥٧].

- ونصر الله، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١].

- إنجاء المؤمنين، قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾^(٤) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٢، ١٠٣].

- المؤمنون هم الأعلون: قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

- لا سبيل للكافرين على المؤمنين: قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

(١) تفسير القرآن الشري الجامع (٨/ ٢٤٤).

(٢) تفسير الشعراوي (١٧/ ١٠٨٠٤).

- المؤمنون يرثون الأرض: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

- لا يُحرم العامل المؤمن من ثمرة عمله: قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

- بالإيمان والعمل، وهكذا بعد الشهر السابع للعمل الصالح تحصل الحياة الطيبة: قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]^(١).

- شرط الإيمان مع العمل الصالح:

يشترط مع العمل الصالح لإفادته الحياة الطيبة إيمان العامل، وهو صريح في قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: ٩٧] والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت، كالرزق الحلال، والقناعة والعبادة المقبولة، والعمل بالطاعة والانسراح بها. والحياة الطيبة في الدنيا التي يظفر بها عامل الصالحات، وهو مؤمن، فهذه الحياة لا تنقص من أجره في الآخرة، بل إن الله وعد بأن يكون أجره في الآخرة على أحسن عمله في الدنيا، فيما أعظمه من جزاء من رب كريم جواد^(٢).

وأما التقوى فلها ثمرات عظيمة، منها:

- الفرقان للمتقين:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

(١) السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٧م، ص ٢٢٧.

(٢) السنن الإلهية، ص ٢٢٩-٢٣٠.

ومعنى الآية: إن تتقوا الله في كل ما يجب أن يُتقى بمقتضى دينه، وشرعه، وبمقتضى سنته في نظام خلقه، يجعل لكم بمقتضى هذه التقوى، وبسببها ملكة من العلم وهداية ونوراً في قلوبكم تفرّقون به بين الحق والباطل، ونصراً يفرق بين المحقّ والمبطل بإعزاز المؤمنين، وإذلال الكافرين ومخرجاً من الشبهات، ونجاة من الشدائد في الدنيا، ومن العذاب في الآخرة^(١).

- المخارج والأرزاق:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۖ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]؛ أي: من يتق الله بعمل ما أمره به وترك ما نهاه عنه يجعل له مخرجاً من كل شدة ويرزقه من حيث لا يرجو ولا يأمل ويبارك له فيما آتاه، ومن يتوكل على الله؛ أي: من فوّض إليه أمره، كفاه ما أهمّه^(٢).

- معية الله للمتقين:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. فالله تعالى مع المتقين بتأييده، ونصره، ومعونته، وهديه، وهذه معية خاصة للمتقين، كقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهما في الغار كما حكاها الله عنه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ومعنى: ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]؛ أي: تركوا المحرمات، وعملوا الواجبات، فهؤلاء يحفظهم الله، ويؤيدهم، وينصرهم على أعدائهم^(٣).

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢١.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٢٣.

وسبحان الله كيف جاءت الآية الكريمة في قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة النمل: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، فهي دعوة للتأمل والتفكير والتدبر واستخراج سنن الله وقوانينه نواميسه من كتاب الله العظيم الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

سادساً: قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة القمر:

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ٣١﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَحِيدًا نَنبِعُهُمْ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ٣٢﴾ أَتَلْقَى الدِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ٣٣﴾ سَيَعْمُونَ غَدًا مِّنَ الْكُذَّابِ الْأَشِرِّ ٣٤﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ٣٥﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلِّ شَرِبٍ مُّخْتَصَرٌ ٣٦﴾ فَادَّوَّ صَاحِبُهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ٣٧﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ ٣٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ ٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ٤٠﴾ [القمر: ٢٣-٣٢].

سورة القمر مكيّة، وآياتها خمس وخمسون، وقد عالجت أصول العقيدة الإسلامية، وهي من بدئها إلى نهايتها عنيفة مُفَزَّعة على المكذّبين بآيات القرآن. وطابع السورة هو طابع التهديد والوعيد، والإنذار، والإعذار، والإمهال، مع صور شتى من مشاهد العذاب والدمار والخسران.

ولقد ابتدأت السورة بذكر تلك المعجزة الكونية؛ معجزة انشقاق القمر، والتي هي إحدى المعجزات العديدة للإمام ورسول البشر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك حين طلب المشركون منه معجزة جليّة تدلّ على صدقه، وخصّصوا بالذكر أن يشقّ لهم القمر ليشهدوا له بالرسالة، ومع ذلك عاندوا وكابروا، قال تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ ۖ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ ١﴾ وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمَرٌّ ٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ٣﴾ [القمر: ١-٣].

ثم انتقلت للحديث عن أهوال يوم القيامة، وذلك بأسلوب مخيف يهزّ المشاعر هزّاً، ويحرّك في النفوس الرعب والفرع من هول ذلك اليوم العصيب، وبعد الحديث عن كفار مكّة، يأتي الحديث عن مصارع المكذّبين وما نالهم في الدنيا من ضروب العذاب والدمار، بدءاً بقوم نوح، ثمّ الحديث عن الطغاة المتجبرين من الأمم السالفة الذين كذبوا الرسل فأهلكهم الله تعالى إهلاكاً فظيعاً، ودمّرهم عن بكرة أبيهم، وقد تحدّث الآيات عن قوم عاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم فرعون، مع تصوير أنواع العذاب، وبعد عرض هذه المشاهد الأليمة، مشاهد العذاب الذي حلّ بالمكذّبين لرسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ، توجّهت السورة إلى مخاطبة قريش، وحذّرتهم مصرعاً كهذه المصارع، بل ما هو أشدّ وأنكى، ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۖ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذًى وَأَمْرٌ ۖ﴾ [القمر: ٤٥، ٤٦].

وقد ختمت السورة ببيان مآل السعداء المتّقين بعد ذكر مآل الأشقياء المجرمين، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب بأسلوبه العجيب^(١).

ويقول الدكتور فضل عباس حسن رَحِمَهُ اللهُ: "الذي نلاحظه هنا أنّ صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يُذكر اسمه في السورة التي مرّت، بل لا نجد له أيّ حديث هنا، والمتأمّل في الآيات الكريمة يجد أنّ الحديث كلّهُ عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهو متنسق تماماً مع الحديث عن قوم هود، إذ لم نجد له في السورة أيّ كلمة، وهذا بالطبع متناسب مع السورة التي جاءت تبين أنّ المعرضين يكذبون بآيات الله الواضحات أيّاً كان الرسل الذين جاءوا بها، ولهذا نجد الحديث فيها كلّها عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، دون أن يأتي على لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام شيء من ذلك.

(١) كتاب مقاصد القرآن ومحتوياته، عبد الله التليدي، ص ٢٨٣.

وقد بينت السورة الكريمة بأن ثمود كذبوا بالنذر، وأنهم يربؤون بأنفسهم من أن يهديهم بشر منهم، إنهم إذن في ضلال وهلاك، ولماذا خُصَّ بينهم بالرسالة، بل هو كذاب أشِر^(١).

وهنا يتولَّى الله الدفاع بنفسه: ﴿سَيَعْمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ﴾ [القمر: ٢٦]. ثم بين أنه سيرسل الناقة فتنة لهم ليختبرهم، فارتقبهم يا صالح واصطبر ولا تعجل، ونبتهم أن الماء قسمة بينهم وبين الناقة، فلا ينبغي أن يطغى بعض على بعض ﴿كُلُّ شَرِبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨]؛ أي: محصور لهم أو للناقة. وقيل: يحضرون الماء في نوبتهم واللبن في نوبتها، وتحدثنا الآيات أنهم نادوا صاحبهم فكان منه ما كان حينما تعاطى الفعلة الشنيعة وعقر الناقة، فليظروا فما أهون العذاب وما أشد النذر، ويخبر الله بأنه أرسل عليهم صيحة واحدة فكانوا كالهشيم المحتظر^(٢). وكل ما في السورة جديد، والناظر المتأمل يجد ذلك بيِّناً لا يحتاج إلى تفصيل^(٣).

تفسير الآيات الكريمة:

١ - قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣].

يُخبرنا الله عزَّ وجلَّ أن قبيلة ثمود كذبوا بالعقوبات التي أحلها الله عزَّ وجلَّ بقوم نوح وقوم عاد، وكذبوا أيضاً رسولهم الذي أنذرهم وحذَّره من عذاب الله، وهو نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكذبوا بالعذاب الذي أخبرهم به، واستنكروا ما يدعوهم إليه^(٤).

(١) أشِر: بطر متكبر.

(٢) المحتظر: الذي يعمل الحظيرة للدواب ثم تصير الحظيرة هشيماً متحطماً.

(٣) قصص القرآن الكريم، ص ٢٣٣.

(٤) قصص الأنبياء، مصطفى العدوي (١/ ٥١٥).

- ﴿بِالنُّذُرِ﴾؛ جمع نذير، أي: الإنذارات التي أنذرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهَا عَلَى لسان صالح عَلَيْهِ السَّلَام^(١)، ونلاحظ أَنَّ لفظة ﴿بِالنُّذُرِ﴾ مناسبة لسياق السورة وجوَّها المشحون بالتخويف والإهلاك للآمم المكذبة بالرُّسل، وفيها تعريض لكفار قريش الذين كذبوا بالآيات التي جاء بها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها انشقاق القمر المذكور في أول السورة، بأنهم إن لم يؤمنوا فسيصيبهم ما أصاب قوم ثمود^(٢).

وقد قال الشيخ محمد متولي الشعراوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "﴿بِالنُّذُرِ﴾؛ جمع نذير، وهو الرسول، وقد خاطب الله نبيه المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣]، ما أنت إِلَّا نذير، وجاء بصيغة الجمع هذه لأنَّ الذي يكذب برسوله كأنه كذب بجميع الرُّسل، لأنَّ هدفهم واحد، ومنهجهم واحد، ينتهي بعبادة الله وحده لا شريك له.

واقراً قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١].

فالرسول عليه أن يوصي قومه إذا جاءهم رسول جديد بمثل المنهج الذي جاء به يوصي قومه أن يتبعوه، وأن يؤمنوا به وينصروه.

فالعادة، أن القوم يتعصبون لرسولهم، فيعلمهم أنَّ الهدف واحد، والمنهج واحد، فإن جاءكم من هذه صفته فاتبعوه، ولا تصادموه، فكأنَّا نأخذ من مشكاة واحدة^(٣).

(١) النظم القرآني في قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَام، ص ٢٠٩.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) تفسير الشعراوي (٢٤/١٤٧٧٧).

٢- قال تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّمَّنَّا وَحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِدَّا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤]:

في هذه الآية بيان لصيغة التكذيب التي نطق بها القوم: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّمَّنَّا وَحِدًا﴾، وهذا القول شبيهه بقول قريش: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

فثمود تستنكر أن يتبعوا رجلاً واحداً منهم؛ سيدنا صالح وهو بشر، فاعترضوا على كونه بشراً، وعلى كونه رجلاً واحداً^(١)؛ أي: كيف نتبعه وهو بشر منّا واحد ونحن جماعة؟

فالاستفهام في الآية استفهام إنكاريّ تعجّبيّ، وجاءوا بصفة البشريّة بعد همزة الإنكار، لأنّها على الإنكار.

قال الزمخشريّ رَحِمَهُ اللهُ: "فقالوا أبشراً؟ إنكاراً يتبعوا مثلهم في الجنسيّة، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر، وهم الملائكة"^(٢)، فمحلّ الإنكار ليس الاتّباع بل كون الرسول بشراً^(٣)، ثمّ بالغوا في نفي الرسالة عن صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، والتقليل من شأنه بقولهم: ﴿مِمَّنَّا﴾؛ لأنّه إن كان منهم كانت المماثلة أقوى^(٤).

ثمّ قالوا: ﴿وَحِدًا﴾؛ أي: ضعيفاً، فهو واحد وحيد، وليس له جنود، ولا أتباع، ولا نصراء^(٥)، أو واحداً من الأحاد ليس من أشرفهم، وأكابرهم المشهورين^(٦)، ومن ثمّ ذيلوا إنكارهم لأتباعه بقولهم: ﴿إِنَّا إِدَّا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾.

(١) المصدر السابق (٢٤/١٤٧٧٨).

(٢) الكشف عن حقائق التنزيل (٨/٥٣٠).

(٣) البرهان في علوم القرآن، ص ٥١٧.

(٤) الكشف، (٨/٥٣٠).

(٥) النظم القرآني، ص ٢١٠.

(٦) المصدر السابق نفسه.

- و﴿ضَلَّالٍ﴾؛ العدول عن الصراط المستقيم، وبضادّه الهداية^(١).
- و﴿وَسُوءٍ﴾؛ الجنون، وقيل: جمع سعيّر، أي: نيران^(٢)، أي: نيران تتسعر في قلوبنا، وهذا يدلّ على شدّة عتوّهم واستكبارهم^(٣).
- وقد دلّ النظم الكريم في حكاية قولهم ذلك على مدى كُفرهم، وغلوّهم في تكذيب النبي صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ من خلال ما يلي:
- تأكيد مضمون الجملة ﴿إِنَّا﴾، و﴿إِذَا﴾، و﴿الام﴾؛ ليؤكدوا كفرهم واعتقادهم أنّهم باتّباعهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ سيكونون في ضلال وسُوء.
- الاستعارة في حرف الجرّ ﴿فِي﴾ الذي يفيد الظرفيّة، حيث شبّهوا الالتباس بالضلال بالظرفيّة، بجامع التمكن في كلّ، ثم استعيرت الظرفيّة للالتباس^(٤)، ليعبروا على حدّ زعمهم، عن المبالغة في غرقهم في هذا الضلال، وتمكّنه منهم، وإحاطته بهم كما يحيط الظرف بالمظروف^(٥).
- حذف الجارّ والمجرور في قولهم: ﴿لَفِي ضَلَالٍ﴾؛ لأنّ التقدير: لفي ضلال عن الصواب^(٦)، وذلك لنكته المبالغة في تمكّن الضلال منهم وعمومه.
- تنكير لفظتي ﴿ضَلَّالٍ﴾ و﴿وَسُوءٍ﴾ للتضخيم والتهويل، فهو ضلال مطبق، وحنون عظيم.

(١) المفردات في غريب القرآن، ص ٣٠٠.

(٢) تفسير أبي السعود (٨/ ١٧١).

(٣) التفسير الموضوعي (٨/ ٣٦).

(٤) النظم القرآني، ص ٢١٠.

(٥) المصدر السابق نفسه..

(٦) المصدر السابق، ص ٢١١.

- التعكيس، وذلك على تفسير ﴿وَسُعْرٍ﴾ أنها جمع سعير، أي: نيران، فعكسوا على صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ورتّبوا على اتّباعه إيّاه ما رتّبه على ترك اتّباعه^(١)، لأنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ كأنّه قال لهم: إن لم تتّبعوني كنتم في ضلال عن الحقّ وسُعر، فعكسوا عليه بأن قالوا: إن اتّبعناك كنّا إذن كما تقول؛ وذلك لفرط عتوّهم^(٢).

وعلى هذا يكون جمع السعير ﴿وَسُعْرٍ﴾ باعتبار الدركات، أو للمبالغة^(٣).
وتقديم ﴿ضَلَالٍ﴾ على ﴿وَسُعْرٍ﴾ فيه ترقُّ، على تفسير سُعْرٍ بالجنون؛ لأنّ الضلال فيه انتقاص للعقل، أمّا الجنون فهو ذهاب للعقل كلّ^(٤).

وعلى القول بأنّ معنى: ﴿وَسُعْرٍ﴾ نيران، يكون تقديم ﴿ضَلَالٍ﴾ للأسبقية، فالضلال في الدنيا، والسُعر في الآخرة^(٥). أو للسببية، فالضلال سبب لدخول السعير، وقد تقدّم آنفاً أنّ ذلك من باب التعكيس، وإلاّ فهم لا يؤمنون بالآخرة ولا بالنار، وهذا إلى جانب مناسبة ﴿وَسُعْرٍ﴾ للفاصلة القرآنية^(٦).

وقول ثمود لنبيّهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَبَشِّرْنا وَاحِداً نَتَّبِعُكَ إِنّا إِذاً لَفى ضَلالٍ وَسُعْرٍ﴾؛ يدلّ على الكبرياء الجوفاء، التي لا تنظر إلى حقيقة الدعوة وإنّما تنظر إلى شخصيّة الداعية، وماذا في أن يختار الله واحداً من عباده، فالله أعلم حيث يجعل رسالته،

(١) تفسير البضاوي (٢/٤٤٧).

(٢) النظم القرآني، ص ٢١١.

(٣) روح المعاني (٢٧/١١٦).

(٤) النظم القرآني، ص ٢١١.

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) المصدر السابق نفسه.

فيلقي عليه الذكر، أي الوحي، وما يحمله من توجيهات للتذكير والتذكر والتدبر، إنها شبهة واهية لا تقوم إلا في النفوس المنحرفة، النفوس التي لا تريد أن تنظر إلى الدعوة لترى مقدار ما فيها من الحق والصدق، ولكن إلى الداعية فتستكبر عن اتباع فرد من البشر، مخافة أن يكون في اتباعها له إثارة له وتعظيم، وهي تستكبر عن الإذعان والتسليم^(١).

ومن ثم يقولون لأنفسهم: ﴿أَبَشِّرْ مِنَّا وَحِدًا نَتَّبِعُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٌ﴾ أي: لو وقع منا هذا الأمر المستنكر؟ وأعجب شيء أن يصفوا أنفسهم بالضلال لو اتبعوا الهدى، وأن يحسبوا أنفسهم في سُعْرٍ، لا في سَعِيرٍ واحد، إذا هم فاءوا إلى ظلال الإيمان.

ومن ثم يتهمون رسولهم الذي اختاره الله، ليقودهم في طريق الحق والقصد، يتهمونه بالكذاب الأشير^(٢).

٣- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا لَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ [القمر: ٢٥].

قال الطبري: "يعنون بذلك: أنزل الوحي عليه وخص بالنبوة من بيننا وهو واحد منا؟ إنكاراً منهم أن يكون الله عز وجل يرسل رسولا من بني آدم"^(٣).

فلاستفهام إنكارى تعجبي بمعنى النفي^(٤)، وجاؤوا بالنفي عن طريق الاستفهام، لأنه أبلغ من النفي المباشر لما يدعون استحالة ويريدون إنكاره^(٥)، والتعبير بالإلقاء

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٤٣٢).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) تفسير الطبري (٢٢/١٤٠).

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٩/١١٩).

(٥) النظم القرآني، ص ٢١٢.

عن الإنزال من باب الاستعارة، لأنَّ الإلقاء حقيقةً رميَّ من اليد إلى الأرض، وهو هنا مستعار لإنزال الذكر من السماء، والجامع بينهما السرعةُ في الإنزال، والعجلةُ في الفعل^(١). وقد أفادت هذه الاستعارة المبالغة في الإنكار، لأنَّ صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يقول: جاءني الوحيُّ مع الملك في لحظة يسيرة، فكأنَّهم قالوا: الملك جسم، والسماء بعيدة، فكيف ينزل في لحظة؟ فقالوا: أألقي، وما قالوا: أنزل^(٢).

وثمة أمر آخر، وهو التعبير بـ ﴿أَلْقَى﴾ بصيغة من لم يُسمَّ فاعله فقالوا: أألقي؟ ولم يقولوا: أألقي الله الذكرَ عليه؟

وذلك كما يقول الرازي: "للإشارة إلى أنَّ الإلقاء من السماء غيرُ ممكن، فضلاً عن أن يكون من الله تعالى"^(٣).

وتعريف ﴿الذِّكْرِ﴾ في حكاية الله عَزَّجَلَّ عنهم إنكارهم، وهو إشارة إلى أنَّهم قد أنكروا أمراً ظاهراً بيئاً لا ينبغي أن يُنكر، فهو كقول القائل: أنكروا المعلوم، وفي ذلك ذمٌ عظيم لهم على هذا التكذيب والجحود^(٤).

- وقولهم: ﴿عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾؛ إنكارٌ آخر، فقال الرازي: "كأنَّهم قالوا: ما أُلقي ذكرٌ أصلاً. قالوا: إن أُلقي فلا يكون عليه من بيننا وفينا من هو فوقه في الشرف والذكاء"^(٥)، فجعلوا تخصيصَ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بالنبوة من دونهم دليلاً على نفيها

(١) روح المعاني (٢٧/١١٧).

(٢) النظم القرآني، ص ٢١٢.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر السابق نفسه، نقلاً عن التفسير الكبير للرازي.

عنه، وصحة إنكارهم لها، وذلك يدل على سوء أدبهم مع الله واعتراضهم على اختياره وتفضيله لمن يشاء من عباده، وعلى سوء أدبهم مع رسولهم صالح، واستخفافهم به، واحتقارهم له.

ولما أنكروا نزول الوحي على صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك لا يقتضي إلا أنه ليس بنبي، وأضربوا عن ذلك للترقي في الإنكار إلى رمية بفرط الكذب والتكبر، فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرُّ﴾ أي: كثير الكذب والشر.

- ﴿كَذَابٌ﴾؛ على صيغة فعال، وهذه الصيغة تفيد المبالغة، وتقتضي الاستمرار، والتكرار، والإعادة، والتجدد، والمعاناة، والملازمة، ويقصدون أنه كثير الكذب، أو شديد الكذب، يقول ما لا يقبله العقل، فانظر كيف يفترون على نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويتهمونه بذلك كي يصدّوا عن سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

- ﴿أَشَرُّ﴾؛ وهي من صيغ المبالغة، أي: أنه شديد التكبر والبطر. وقصدوا من وصفه بذلك أنه كذاب لا ضرورة وحاجة كما يكذب الضعيف، إنما هو استغنى وبطر وطلب الرياسة عليكم، وأراد أتباعكم له، فكان كل وصف مانعاً من الاتّباع، لأن الكذب لا يلتفت إليه، ولا سيما إذا كان كذبه لا ضرورة. وافترأؤهم هذا على صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ يدل على مبلغ كفرهم وعتوّهم، وأنهم كانوا يصدّون عن سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، بالصاق التّهم برسوله عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويفيد ذلك أيضاً أن صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ قد لقي من قومه أذى عظيماً في سبيل تبليغ رسالة ربّه^(١).

ولقد قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "يعنون بالأشْر: المَرِحَ ذا التجبر والكبرياء"^(٢). وذكر الخالدي رَحِمَهُ اللَّهُ أقوال العلماء في ﴿أَشَرُّ﴾:

(١) المصدر السابق، ص ٢١٣.

(٢) تفسير الطبري (٢٧/١٠٠-١٠١).

- ﴿أَشْرُ﴾؛ هو الفرح المتكبر.

- ﴿أَشْرُ﴾؛ اللّحاح في الكذب^(١).

- ﴿بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرُ﴾؛ أي: كذاب لم يُلقَ عليه الذكر. وأشر: شديد الطمع في اختصاص نفسه بالمكانة، وهو الاتّهام الذي يواجه به كلّ داعية، اتّهامه بأنّه يتّخذ الدعوة ستاراً لتحقيق مآرب ومصالح، وهي دعوة المظموسين الذين لا يدركون دوافع النفوس، ومحركات القلوب. وبينما السياق يجري على أسلوب الحكاية لقصة عبرت في التاريخ، يلتفت فجأة، وكأنّما الأمر حاضر والأحداث جارية، فيتحدّث عمّا سيكون، ويهدّد بهذا الذي سيكون^(٢).

٤- قال تعالى: ﴿سَيَعْمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَابِ الْأَشْرِ﴾ [القمر: ٢٦]:

هذه إحدى طرق العرض القرآنيّة للقصص، وهي طريقة تنفخ روح الحياة الواقعيّة في القصة، وتحيلها من حكاية تُحكى، إلى واقعة تُعرض على الأنظار، يترقب الناظرون أحداثها الآن، ويرقبونها في مقبل الزمان، ﴿سَيَعْمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَابِ الْأَشْرِ﴾.

وسيكشف لهم الغد عن الحقيقة، ولن يكونوا بمنجاة من وقع هذه الحقيقة^(٣). وفي الآية الكريمة؛ مواساة أهل الحقّ وتصبيرهم، والدفاع عنهم^(٤).

(١) القصص القرآني (١/ ٢٨٣).

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٤٣٢).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) قصص الأنبياء، مصطفى العدوي (١/ ٥٣٥).

أ- ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾:

لتقريب مضمون الجملة وتأكيد، فهو واقع لا محالة.

ب- ﴿عَذَابًا﴾:

أي: في الزمن الآتي القريب، لأنَّ كلَّ ما حَقَّقَ إتيانه قريب عند نزول العذاب في الدنيا ويوم القيامة^(١). فالسين، ولفظة ﴿عَذَابًا﴾ دلَّتْنا على قرب مضمون الجملة، وتأكيد، وتحقيق وقوعه. وفي ذلك من الوعيد ما لا يخفى^(٢).

ج- والاستفهام في قوله: ﴿مَنْ الْكَذَّابُ الْأَثِيرُ﴾؛ يُراد به الإلزام؛ لأنَّهم هم المعنيون بـ ﴿الْكَذَّابُ الْأَثِيرُ﴾، ولكن الردَّ عليهم عن طريق الاستفهام الملزم بالتصافهم بذلك، وسوق ذلك على وجه الاتِّهام المنصف للإيماء إلى أنَّه ممَّا لا يكاد يخفى، ويكون الوعيد أحفل بالانتقام، والتهديد أشدَّ أثرًا في النفوس^(٣).

- ﴿مَنْ الْكَذَّابُ الْأَثِيرُ﴾؛ وهذا تهديد لهم وردَّ التهمة عليهم: بل أنتم الكذَّابون وأنتم الأشرون، لأنَّكم كرهتم صالحاً وحسدتموه، لأنَّ ربَّه اختاره للنبوَّة من بينكم، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، فكان ينبغي عليكم أن تصدِّقوه لا أن تصادموه^(٤).

٥- قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧].

(١) النظم القرآني، ص ٢١٤.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) تفسير الشعراوي (٢٤/ ١٤٧٧٩).

ويقف القارئ يترقب ما سيقع، عندما يرسل الله الناقة لهم، وامتحاناً مميّزاً لحقيقتهم، ويقف الرسول، رسولهم عَلَيْهِ السَّلَامُ، مرتقباً ما سيقع، مؤتمراً بأمر ربّه في الاصطبار عليهم حتّى تقع الفتنة ويتمّ الامتحان^(١).

أ- ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً﴾:

أي: إنّنا مخرجو الناقة التي سألوها من الصخرة اختباراً لهم، فانتظر يا صالح ما هم صانعون بها^(٢).

وقد أكّد مضمون الجملة بـ ﴿إِنَّا﴾، ومجيء الخبر جملة اسميّة، وذلك لأهمّيته وغرابته، فإنّ إخراج الناقة من الصخرة الصمّاء أمر خارق للعادة، ومعجزة لصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما أنّ مجيء الخبر على صيغة اسم الفاعل مع إضافة ﴿النَّاقَةِ﴾ إليه؛ فيه تحقيق الأمر وتقديره كأنّه وقع وكان، بخلاف لو قيل: (إنّا نرسل الناقة)، والإسناد إلى ضمير العظيمة فيه تعظيم وتفخيم لأمر هذه الآية التي هي الناقة، وأنّها معجزة عظيمة حقيق بمن رآها أن يؤمن بها^(٣).

ب- ﴿فِتْنَةً لَهُمْ﴾:

التعبير بالمصدر فيه إنجاز بليغ، مع توسّع في المعنى، لأنّه يحتمل أن يكون مفعولاً له^(٤)، لبيان العلّة من إرسال الناقة، فيكون المعنى: إنّنا مرسلو الناقة اختباراً وابتلاء لهم، ويحتمل أن يكون حالاً^(٥)، أي: فتنة لهم، فالتعبير بالمصدر أدّى معنيين

(١) النظم القرآني، ص ٢١٥.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) اللباب في علوم القرآن، أبو حفص الدمشقي (١٨ / ٢٦٤).

(٥) النظم القرآني، ص ٢١٥.

في آن واحد^(١). وهذا التوسّع في المعنى لم يكن ليظهر لو قيل: (لنفتنهم) بحرف الجر، لأنّ ذلك لا يفيد إلاّ العلة فقط^(٢).

ج- ﴿فَارْتَقَبْهُمْ﴾:

انتظر ما يحصل لهم من الفتنة بالناقة وما يصنعون بها^(٣)، أو انتظر نزول العذاب بهم. قال الرازي: "قال فارتقبهم بالعذاب، ولم يقل: فارتقب العذاب، إشارة إلى حسن الأدب، والاجتناب عن طلب الشر"^(٤).

- ﴿فَارْتَقَبْهُمْ﴾: انظر ماذا يكون ردّ فعلهم^(٥).

وارتقب: على وزن (افتعل)، وهو من صيغ المبالغة، وأبلغ من (ارتقب) لزيادة المبنى فيه^(٦)، ويدلّ على نزول العذاب بهم، لأنّ الانتظار يكون عند قرب حصول الشيء المنتظر^(٧).

ومع أنّ صيغة المبالغة تتناسب مع تعدّد الأمور المرتقبة، فهو يحتمل ارتقاب فتنهم بالناقة، وارتقاب ما يصنعون بها، وارتقاب العذاب الذي سيحلّ بهم^(٨).

د- ﴿وَأَصْطَبِرْ﴾:

(١) معاني النحو (٢/ ٢٠١).

(٢) النظم القرآني، ص ٢١٥.

(٣) تفسير الطبري (٢٢/ ١٤٢).

(٤) النظم القرآني، ص ٢١٦.

(٥) تفسير الشعراوي (٢٤/ ١٤٧٨٠).

(٦) النظم القرآني، ص ٢١٦.

(٧) المصدر السابق نفسه.

(٨) المصدر السابق نفسه.

فيه معنى المبالغة أيضاً، وهو أقوى من (اصبر)، قال البقاعي: "ودل بصيغة الافتعال على أنه يكون له منهم أذى بالغ قبل انفصال النزاع"^(١).

- ﴿وَأَصْطَبِرْ﴾؛ اصبر على عنادهم، واصبر على أذاهم وتكذيبهم، واستمر في دعوتهم مع مكابدة الصبر.

٦- قوله تعالى: ﴿وَيَنْتَهُرُ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّخْتَصِرٌ﴾ [القمر: ٢٨].

ومعنى الآية: أخبرهم يا صالح أن الماء مقسوم بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم، تحضر في يوم شربها ويحضرون في يوم شربهم، ولأهمية هذا الخبر وعظيم شأنه، ولما سترتب عليه من الأمور العظام إذا اعتدوا على الناقة من نزول العذاب بهم عبر عنه بـ (النبأ)، فقال سبحانه: ﴿وَيَنْتَهُرُ﴾ أي: أخبرهم إخباراً عظيماً بأمر عظيم^(٢).

أ- ﴿الْمَاءُ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾:

ما دام أنها معجزة، فلها وضع خاص في طعامها، وشرابها، وقد أوضح لهم أن الماء الذي يشربون منه قسمة بينها وبينهم^(٣).

قال الشنقيطي رحمه الله: وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آية أخرى، وهي قوله تعالى في الشعراء: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَّهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، وشرب الناقة هو الذي حذرهم منه صالح لئلا يتعرضوا له في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣]^(٤).

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق، ص ٢١٧.

(٣) تفسير الشعراوي (٢٤/ ١٤٧٨٠).

(٤) أضواء البيان (٧/ ٧٢٢-٧٢٣).

قال الجصاص رحمه الله: "قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ الآية، يدل على جواز المهايأة^(١) على الماء، لأنهم جعلوا شرب الماء يوماً للناقة ويوماً لهم، ويدل أيضاً على أن المهايأة قسمة المنافع؛ لأن الله تعالى قد سمى ذلك قسمة. واحتج محمد بن الحسن بذلك على جواز المهايأة على الماء على هذا الوجه، وهذا يدل من قوله على أنه كان يرى شرائع من كان قبلنا من الأنبياء ثابتة ما لم يثبت نسخها"^(٢).

ب- ﴿كُلُّ شَرْبٍ مُتَحَضِّرٌ﴾:

فيوم لها، ويوم لهم، تحضر يومها، ويحضرون يومهم، وتنال شربها، وينالون شربهم^(٣).

فكل منهما يحضر مشربه، ويلتزم بدوره، فهم يشربون في يومهم، ولا يقربون الماء في يوم شربها، ثم يوم لا يشربون من الماء تُعطيه الناقة من لبنها ما يكفيهم، ويغنيهم عن الماء في هذا اليوم^(٤).

٧- قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩].

ثم يعود السياق إلى أسلوب الحكاية، فيقص ما كان بعد ذلك منهم.

أ- ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾:

(١) المهايأة: الأمر المهايأ عليه، أي: أمر يتهائأ عليه القوم فيتراضون به، وهي في اصطلاح الفقهاء: قسمة المنافع على التعاقب والتناوب.

(٢) أحكام القرآن، الجصاص، مطبعة الأوقاف الإسلامية، ٢٠١٦م (٣/٤١٤).

(٣) في ظلال القرآن (٦/٣٤٣٣).

(٤) تفسير الشعراوي (٢٤/٣٤٣٢).

فنادت ثمود صاحبهم عاقراً الناقة (قُدار بن سالف) ليعقر الناقة حصاً منهم له على ذلك^(١). وصاحبهم هو أحد الرهط المفسدين في المدينة الذين قال عنهم في سورة النمل: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨]، وهو الذي قال عنه في سورة الشمس: ﴿إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢].

ب- ﴿فَتَعَاطَى فَقَرَ﴾:

وقيل: إنه تعاطى الخمر فسكر ليصير جريئاً على الفعلة التي هو مقدم عليها، وهي عقر الناقة التي أرسلها الله آية لهم، وحذّرهم رسولهم أن يمسوها فيأخذهم عذاب أليم^(٢).

قال الشنقيطي رحمه الله: "قوله: ﴿فَتَعَاطَى﴾: قال أبو حيان في البحر: ﴿فَتَعَاطَى﴾ هو مطاوع (عاطى)، وكأن هذه الفعلة تدافعها الناس وعاطاها بعضهم بعضاً، فتعاطاها (قدار) وتناول العقر بيده"^(٣).

والعرب تقول: تعاطى كذا: إذا فعله أو تناوله، وعاطاه: إذا تناوله، ومنه قول حسان رضي الله عنه:

كلتاها حَلْبُ العَصِيرِ فعاطني بزجاجة أرخاها للمفصل

- وقوله ﴿فَتَعَاطَى﴾؛ أي: تعاطى عقر الناقة فعقرها، وعبر عن عاقراً الناقة هنا بأنه صاحبهم، وعبر عنه في الشمس بأنه أشقاهم، وذلك في قوله: ﴿إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢].

(١) تفسير الطبري (٢٧/١٠٢).

(٢) التدبر والبيان (٣٣/٢٩٨).

(٣) أضواء البيان (٧/٧٢٣).

وهذه الآية الكريمة تشير إلى إزالة إشكال معروف في الآية، وإيضاح ذلك أن الله تعالى فيها نسب العقر لواحد لا لجماعة، لأنه قال: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَقْعَرٌ﴾: بالافراد مع أنه أسند عقر الناقة في آيات أخر إلى ثمود كلهم، كقوله في سورة الأعراف: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧].

- وقوله تعالى في هود: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥].

- وقوله في الشعراء: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧].

- وقوله في الشمس: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤].

وجه إشارة الآية إلى إزالة هذا الإشكال هو أن قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَقْعَرٌ﴾، يدل على أن ثمود اتفقوا كلهم على عقر الناقة، فنادوا واحدا منهم لينفذ ما اتفقوا عليه، أصالة عن نفسه، ونياية عن غيره. ومعلوم أن المتمالئين على العقر كلهم عاقرون، وصحت نسبة العقر إلى المنفذ المباشر للعقر، وصحت نسبته أيضا إلى الجميع؛ لأنهم متمالئون، كما دل عليه ترتيب تعاطى العقر بـ (الفاء) في قوله: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَقْعَرٌ﴾ على ندائهم صاحبهم، لينوب عنهم في مباشرة العقر في قوله تعالى: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَقْعَرٌ﴾ أي: نادوه ليعقرها.

وجمع بعض العلماء بين هذه الآيات بوجه آخر، وهو: أن إطلاق المجموع مراداً به بعضه أسلوب عربي مشهور، وهو كثير في القرآن في كلام العرب^(١).

٨- قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ [القمر: ٣٠].

(١) أضواء البيان (٧/ ٧٢٣-٧٢٤).

وهو سؤال التعجّب والتهويل قبل ذكر ما حلّ بهم من العذاب بعد النذير^(١). والاستفهام يدلّ على التعظيم والتعجّب؛ لبيان هول ما حلّ بهم من العذاب بسبب عقر الناقة، فقد كان على وجه عظيم يُتساءل عنه^(٢)، وعلى كيفة هائلة لا يحيط بها وصف^(٣).

وفي الاستفهام عن العذاب قبل ذكره تشويق النفس إلى معرفته، وحثّ على التدبّر والتفكّر في كفيّته، ليقع فيها أبلغ موقع، وينتج من ذلك الخوف من عذاب الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، والإيمان بقدرته، وعظمته، وقوّته. ومجيء **﴿الْعَذَابِ﴾** مفرداً، و**﴿وَنَذِرٌ﴾** بصيغة الجمع يدلّ على قيام الحجّة عليهم بكثرة الإنذارات التي بلغتهم قبل نزول العذاب، وفي ذلك أيضاً إشارة إلى غلبة رحمة الله **عَزَّوَجَلَّ** لغضبه^(٤).

قال الرازي **رَحِمَهُ اللَّهُ**: "لأنّ الإنذار إشفافٌ ورحمة، فقال: الإنذارات التي هي نعم ورحمة تواترت، فلمّا لم تنفع وقع العذاب دفعة واحدة، فكانت النعم كثيرة والنقمة واحدة"^(٥).

٩- قوله تعالى: **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْمُحْتَظِرِ﴾** [القمر: ٣١].

ولمّا أجمل العذاب في الآية السابقة، وأشار الله **عَزَّوَجَلَّ** إلى عظمته وهوله بما يستفاد من الاستفهام المذكور، فتهيأت النفوس إلى معرفته، وأقبلت الأذهان

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٤٣٣).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٩/ ١٢٢).

(٣) تفسير أبي السعود (٨/ ١٧٠)؛ روح المعاني (٢٧/ ١١٠).

(٤) النظم القرآني، ص ٢١٩.

(٥) تفسير الرازي (٢٩/ ٢٨).

متدبرة ومتفكرة فيه؛ بيّن الله ذلك العذاب، وقد دلّ النظم الكريم في هذه الآية أيضاً على هول العذاب الذي أصابهم نتيجة كفرهم واعتدائهم على ناقة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فنلاحظ في نظم الآية ما يلي:

أ- تصدير الآية بحرف التوكيد مع ضمير العظمة في قوله: ﴿إِنَّا﴾، وذلك لعظمة وأهمية ما سيُقال بعدها.

ب- التعبير بالإرسال وإسناده إلى ضمير لعظمة، وتقديم الجار والمجرور في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَرْسَلْنَا﴾، وذلك يدلّ على أنّ الصيحة كانت عظيمة ومرسلة من السماء إليهم خاصة لإهلاكهم، وأنهم مقصودون بها، كما أنّ في تقديم الجار والمجرور تشويقاً لما سيذكر بعده.

ج- تنكير ﴿صِيْحَةٍ﴾، وذلك يفيد التعظيم، وأنّها صيحة هائلة قويّة.

د- تقييد الصيحة ﴿وَحْدَةً﴾، وفي ذلك تحقير لشأن قوم ثمود، فهي صيحة واحدة فقط، أهلكتهم عن بكرة أبيهم، ولم يكن لهم بها طاقة، كما يدلّ التقييد على عظم الصيحة وهولها، فقد أهلكتهم جميعهم مباشرة مرّة واحدة، وأنّ هذا الأمر المهوّل العظيم سهل يسير على الله عَزَّوَجَلَّ، يفعل ويمضي الأمر فيه بصيحة واحدة، ولا يحتاج فيه إلى طول مدّة، ولا كلفة أو مشقّة، فجيء بذكر: ﴿وَحْدَةً﴾، لتأكيد الإعلام بأنّ ذلك هيّن وسهل على عظمه^(١).

ولا يفصل القرآن هذه الصيحة، وإن كانت في موضع آخر في سورة (فصلت) توصف بأنّها صاعقة: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، وقد تكون كلمة صاعقة وصفاً للصيحة، فهي صيحة صاعقة،

(١) النظم القرآني، ص ٢٢٠.

وقد تكون تعبيراً عن حقيقتها، فتكون الصيحة والصاعقة شيئاً واحداً، وقد تكون الصيحة هي صوت الصاعقة، أو تكون الصاعقة أثراً من آثار الصيحة، وعلى أية حال فقد أرسل الله على القوم صيحة واحدة ففعلت بهم ما فعلت، ممّا جعلهم:

- ﴿كَهَشِيرِ الْمُحْتَظِرِ﴾؛ والمحتظر: صانع الحظيرة، وهو يصنعها من أعواد جافة، فهم صاروا كالأعواد الجافة حين تيسر وتتحطم وتصبح هشيماً، أو أنّ المحتظر يجمع لماشيته هشماً تأكله من الأعواد الجافة والعشب الناشف، وقد صار القوم كهذا الهشيم بعد الصيحة الواحدة، وهو مشهد مفعج مفرع، يعرض ردّاً على التعالي والتكبر، فإذا المتعالون المتكبرون هشيم، وهشيم مهين كهشيم المحتظر^(١).

فقد بينت هذه الصورة مدى هوان هؤلاء الكفار وذلهم وخزيهم، يقول الدكتور محمد محمد أبو موسى: "وكان يمكن أن تؤدّي العبارة معنى فنائهم وتحطيمهم لو قال: فكانوا كالهشيم، ولكنه أراد أن يؤدّي معنى آخر بهذا القيد، وهو الازدراء، وأنهم لا كرامة ولا آدمية لهم، وإنّما هم كهذا الهشيم الموطوء بالدوابّ تبول وتروث عليه، وفيه من الإهانة وضياع الحرّمات ما ترى"^(٢).

وأمام هذا المشهد العنيف المخيف: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْمُحْتَظِرِ﴾، يردّ قلوبهم إلى القرآن ليتذكروا ويتدبروا، وهو ميسر للتذكر والتدبر^(٣).

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٤٣٣).

(٢) النظم القرآني، ص ٢٢١؛ التصوير البياني، محمد أبو موسى، ص ٤٥.

(٣) في ظلال القرآن (٦/٣٤٣٣).

١٠ - قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ٣٢]:

ويُسَدِّل الستار على الهشيم المهين وفي العين منه مشهد، وفي القلب منه أثر، والقرآن يدعو من يذكر ويتفكر^(١).

أ- قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "يقول تعالى ذكره: ولقد هوّنّا القرآن بيناه **﴿لِلذِّكْرِ﴾**؛ يقول لمن أراد أن يتذكر به فيتعظ، **﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾**؛ يقول: فهل من متعظ به ومعتبر فيعتبر به، فيرتدع عما يكرهه الله منه"^(٢).

ب- قال صديق خان رَحِمَهُ اللَّهُ: "فائدة تكرّر هذه الآية أن يجدوا عند استماع كلّ نبأ من أنباء الأولين اذكّاراً واتعاضاً، وأن يستأنفوا تيقظاً وانتباهاً إذا سمعوا، والحثّ على ذلك والبعث إليه، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها، لتكون تلك العبرة حاضرة للقلوب، مصوّرة للأذهان، مذكورة غير منسية في كلّ أوان"^(٣).

سابعاً: قصّة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الشمس:

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا ۖ إِذْ أُنْبِئَتْ أَشَقَّهَا ۖ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۖ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسَّوْهَا ۖ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۖ﴾ [الشمس: ١١-١٥].

تتحدّث سورة الشمس عن وضوح الحقّ، وظهور طريق الخير، والإيمان، وأنّه لا لبس فيه، ولا خفاء، فإنّ الله عَزَّجَلَّ قد خلق النفوس، وبيّن لها طريق الفجور، وطريق التقوى، وترك لها حرّية الاختيار، وجعل الفلاح والفوز لمن زكّى نفسه،

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) جامع البيان (٢٧/١٠٤).

(٣) فتح البيان (١٣/٣٠٢).

والخيبة والخسار لمن دَسَّاهَا؛ فمن ضَلَّ فإنَّما يضلُّ بإرادته واختياره، وتنكبه طريق الهدى بعد أن عرفه، ثمَّ ضرب الله سبحانه مثلاً لهذا القسم يقوم ثمود الذين كذَّبوا رسول الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعقروا الناقة فأهلكهم الله بسبب طغيانهم، بعد أن عرفوا الحقَّ والهدى، فلم يؤمنوا به.

وقد افتتحت سورة الشمس بأحد عشر قِسْماً إلهياً من أعظم الأقسام الدالة على عظمَة المقسَم به والمقسَم عليه، وهو حكم تقرير مصير الإنسان في الحياة الدنيا والآخرة، فقد أقسم الله سبحانه بالشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جَلَّاهَا، والليل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها، والنفس وما سوَّاهَا، والراجحُ أَنَّ ﴿وَمَا﴾ [الشمس: ٧] هنا موصولة، أي: والذي بناها وطحاها وسوَّاهَا، هو الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى^(١).

ولَمَّا أقسم الله بالنفس، ذكر الله أَنَّهُ قد ألهم النفوس، فبيَّن لهما ما ينبغي لها أن تأتي أو تذر من خير أو شرٍّ، وطاعة أو معصية، فقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨]، ثمَّ بيَّن عاقبة مَنْ زكَّى نفسه وأصلحها، وعاقبة مَنْ أغواها وأفسدها، فالأولى إلى الفلاح، والثانية إلى الخيبة والخسار^(٢)، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وخُصَّ قوم ثمود بالذكر لأنَّ قريشاً وسائر العرب يعرفونهم لما يرون من آثارهم، ويتناقلون من أخبارهم^(٣).

(١) النظم القرآني، ص ٢٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٣.

(٣) المصدر السابق نفسه.

يقول الدكتور فضل حسن عباس رَحِمَهُ اللهُ: "فقد خُصَّتْ سورة الشمس، بالحديث عن ثمود دون عاد، ولعل ذلك يتناسب تماماً مع موضوع السورة الكريمة، فهي تتحدّث عن وضوح الحق كالشمس وضحاها، أي حينما تكون شاباً في رابعة النهار، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها، وفي أثناء ذلك كله يأتي الليل، ثم يأتي الحديث عن النفس وتسويتها خلقاً وإبداعاً، وعن فلاح من يزكيها"^(١).

وبعد ذلك يعرض القرآن الكريم نموذجاً من نماذج الخيبة التي تنتهي إليها من يدسّي نفسه، فيحجبها عن الهدى ويدنسها، ممثلاً هذا النموذج فيما أصاب ثمود من غضب ونكال وهلاك^(٢).

تفسير الآيات الكريمة:

١ - قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطُغْيَاهَا﴾ [الشمس: ١١]:

أي: بطغيانها، فالحامل لهم على تكذيب نبيهم صالح طغيان الشر على نفوسهم، حتّى دساها وغمرها وغلب عليها^(٣).

فكذّبت ثمود نبيها صالحاً عليه السلام بسبب طغيانها. وحُذف مفعول ﴿كَذَّبَتْ﴾ للعلم به^(٤)، وقد يدلّ الحذف أيضاً على التعميم، وذلك بوصف ثمود بالتكذيب المطلق، وأنهم كذبوا صالحاً عليه السلام، وكذبوا بالآية التي جاء بها، وكلّ ما يجب عليهم الإيمان به، فالحذف أبلغ في ذمهم وبيان عظيم تكذيبهم. ونجد في الحذف

(١) قصص القرآن، ص ٢٣١.

(٢) في ظلال القرآن (٦/٣٩١٨).

(٣) التفسير الموضوعي (٨/٥٠٨).

(٤) النظم القرآني، ص ٢٢٤.

أيضاً صرفاً للذهن إلى سبب التكذيب الذي هو طغيان ثمود بعدما تبين لهم الهدى والحق، فقد كانوا على بَيِّنَةٍ من أمرهم^(١) في تجاوزهم لحدود الله بسبب طغيانهم.

٢- قال تعالى: ﴿إِذْ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢]:

قال الراغب: "أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه، يقال بعثته فانبعث^(٢)، فيكون المعنى: إذ بعثوا أشقاهم فانبعث وانتدب لذلك"^(٣).

فلفظة ﴿أَنْبَعَتْ﴾ دلّت على أمرين:

الأول: أن قوم ثمود هم الذين أغروهم وهيجوه وأثاروه لفعل هذه الجريمة الشنيعة، فهم مشاركون له فيها بسبب تشجيعهم عليها، وبذلك استحقّوا العذاب جميعهم.

الثاني: أن أشقاهم قد خرج لعقر الناقة بنشاط وحرص ورغبة في هذه الفعلة^(٤).

ووصف العاقر بأنّه ﴿أَشْقَاهَا﴾ بصيغة أفعَل التفضيل؛ لأنّ مَنْ تولّى العقر وباشره كانت شقاوته أظهر وأبلغ^(٥).

- ﴿إِذْ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا﴾؛ أي: حين قتل الناقة المعجزة أشقى رجل في ثمود، وأكثرها طغياناً وإجراماً وشرّاً^(٦).

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المفردات في غريب القرآن، ص ٦٣.

(٣) النظم القرآني، ص ٢٢٤.

(٤) البحر المحيط (١٠/٤٩٠).

(٥) تفسير البضاوي (٢/٦٠٠).

(٦) التفسير الموضوعي (٨/٥٠٨).

وفي الحديث الشريف: أَنَّ عبد الله بن زمعة سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطبُ، وذكر الناقة والذي عقرها، فقال: «إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا، أَنْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ^(١)، عَارِمٌ^(٢)، مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ، مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ»^(٣)، وفي الحديث بيان وكشف لصفة عاقر الناقة، وَأَنَّه رَجُلٌ شَرِيفٌ فِي قَوْمِهِ، عَزِيزٌ فِيهِمْ، رَئِيسٌ مَطَاعٌ^(٤).

ولقد ذكر ابن حجر في (الفتح): "أَنَّ عَاقِرَ النَّاقَةِ يُقَالُ: اسْمُهُ قُدَارُ بْنُ سَالَفٍ"^(٥). وقدار هذا عاقر الناقة، هو أحيمر ثمود، كما جاء وصفه بذلك الحديث، فعن عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَلِّي بْنُ أَبِي طَالِبٍ: «أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِأَشَقَى النَّاسِ؟ رَجُلَيْنِ: أَحْيِمِرٌ^(٦) ثَمُودُ الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ، وَالَّذِي يَضْرِبُكَ يَا عَلِيُّ عَلَى هَذِهِ - يَعْنِي قَرْنَهُ -، حَتَّى يَبْلُغَ مِنْهَا هَذِهِ - يَعْنِي الدَّمَ عَلَى لَحْيَتِهِ -»^(٧).

وهذا ما حصل سنة أربعين للهجرة، حيث أقدم أشقى المسلمين (عبد الله بن عمرو) المعروف بعبد الرحمن بن ملجم المرادي على قتل عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمير المؤمنين، في الكوفة، وكان ذلك قبل صلاة فجر يوم الجمعة، السابع عشر من شهر رمضان، سنة أربعين للهجرة، وتوفي أمير المؤمنين عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد الضربة بيومين^(٨).

(١) عزيز: قليل المثل.

(٢) عارم: صعب على من يرومه، كثير الشهامة والشر.

(٣) البخاري، رقم (٤٩٤).

(٤) التدبر والبيان (٣٧/ ٤٢٤).

(٥) فتح الباري (٦/ ٤٦٨).

(٦) أحيمر: تصغير أحمر.

(٧) مسند أحمد (٤/ ٢٦٣).

(٨) القصص القرآني (١/ ٢٨٨).

٣- قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣]:

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "يعني صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾؛ أي: احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء، ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ أي: لا تعتدوا عليها في سقياها، فإن لها شرب يوم، ولكم شرب يوم معلوم".

وقد عبر عن صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ لبيان عظيم مكانته ومنزلته، والإيذان بوجوب طاعته؛ لأن ما قاله كان من عند الله وبأمره، فتعظيمه من تعظيم مرسله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي تكذيبه ومخالفة أمره بيان لغاية عتو قوم ثمود، وتماديهم في الطغيان، كما أن وظيفة الرسول الإبلاغ والتحذير، وذلك مناسب للمقام^(١).

وقد دلّ النظم الكريم في هذه الآية أن صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ قد بالغ في نصحتهم وتحذيرهم وتخويفهم من عذاب الله عَزَّ وَجَلَّ، نلتمس ذلك مما يلي:

أولاً: تقديم الجار والمجرور: ﴿لَهُمْ﴾، للاهتمام بشأنهم وتخصيصهم بالتحذير، وأنه توجه لهم بالنصح إشفافاً عليهم.

ثانياً: حذف فعل التحذير والتقدير: ذروا أو احذروا ناقة الله^(٢)، وذلك أبلغ هنا، لأن الحذف فيه إشارة إلى ضيق الحال عن ذكر المحذوف لعظيم الهول، وسرعة التعذيب عند مسّها بالأذى^(٣).

(١) النظم القرآني، ص ٢٢٥.

(٢) تفسير الطبري (٤٤٩/٢٤).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨٢/٢٢).

وفيه أيضاً: دلالة على أن صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كان يحذّرهم حالاً بعد حال من عذاب ينزل بهم إن أقدموا على ذلك، وكانت متصوّرة في نفوسهم فاقصر على أن قال لهم: ﴿نَاقَةُ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾؛ لأنّ هذه الإشارة كافية مع الأمور المتقدّمة^(١).

ثالثاً: إضافة الناقة إلى لفظ الجلالة، لإثارة المهابة في نفوسهم بزيادة تعظيمها لعلّهم يخافون، ويرتدعون عن التعرّض لها^(٢).

٤- قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤]:

كذبوا صالحاً فيما حذّرهم، وتوعّدهم به، إن هم تعرّضوا للناقة بسوء^(٣)، ولكنهم تجرّأوا على الناقة نفسها، فعقروها بصيغة الجمع، فهل اشتركت كل القبيلة في عقرها؟

لا بل عقرها واحد منهم هو قدار بن سالف، لكن وافقه الجميع على ذلك وساعدوه وارتضوا هذا الفعل، فكأنّهم فعلوا جميعاً، لأنّهم استشاروا فوافقوا، واجتمع رأيهم على هذا، فعن رضا جميعهم قتلها قاتلها، وعقرها عاقرها، ونحرها ناحرّها.

والعقر هو ضرب قوائم الناقة؛ بحيث تقع على الأرض ثمّ ينحرها، ولا يفعله إلاّ متمرّس على هذا، لذلك قال: ﴿فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]^(٤).

(١) تفسير الرازي نقلاً عن النظم القرآني، ص ٢٢٥.

(٢) النظم القرآني، ص ٢٢٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٢٦.

(٤) تفسير الشعراوي (٢٧/ ١٧٠٥٧).

أ- ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾:

أهلكهم، وأطبَق عليهم العذاب، وحقيقة الدمدمة تضعيف العذاب، وترديده، والدمدمة؛ إهلاك باستتصال. ودمدم أي: غضب. ودمدم: إذا عَذَّب عذاباً تاماً.

و﴿فَدَمَدَمَ﴾ لها عدّة معان، هي: غضب أطبق عليهم، وعذاب أهلكه وطحطحه، وحكاية صوت الهزة؛ وهذه الكلمة تشمل على كل هذه المعاني السابقة. ولا منافاة بين تلك المعاني، فثمود قد غضب الله عليهم غضباً شديداً، وثمود قد أطبق الله عليهم العذاب، وثمود قد أزعجهم الله وأهلكهم بالصيحة، وثمود قد ألزقهم الله بالأرض، وطحطحهم، لأنّ هذا نتيجة طبيعيّة لهلاكهم، وثمود أهلكهم الله بصاعقة لها هزة شديدة، وصوت قويّ مدوّي، فلا مناقضة إذن بين تلك الدلالات. وكلّها تنسجم مع السياق العام للقصة في أي موضع حكى الله فيه عذابهم، فبان بأنّ في هذه الفريدة ﴿فَدَمَدَمَ﴾ إيجازاً وإعجازاً، حيث حملت معاني كثيرة، ودلالاتٍ غزيرة لا يمكن غيرها أن تقوم مقامها. وتلك سمة جليّة من الفرائد القرآنيّة، حيث تُعبّر لفظاً واحدة عن معان كثيرة، فإيا لدقّة هذا القرآن، وروعة لفظه، وجمال نظمه، وإحكام تراكيبه.

وفي تركيب هذه اللفظة الفريدة من أربعة أحرف لطيفة قرآنيّة دقيقة لا تصدر إلّا من الخبير العليم سبحانه، لأنّها تومئ إلى أنّ ثمود قد عَذَّبها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بخلاف من سبقها من الأمم، بأربعة أشياء مجمّعة: (الرجفة، والصيحة، والصاعقة، والطاغية)، كما هو مذكور في أكثر من آية، وهي مسمّيات شتى لشيء واحد، اختصّهم الله بذلك دون غيرهم من الأمم، وهذا ينسجم مع حروف ﴿فَدَمَدَمَ﴾ الأربعة، وكأنّ كلّ حرف يشير إلى نوع من العذاب، أو صفة من صفاته، أي:

دمدم الله عليهم بالصيحة، والرجفة، والصاعقة، والطاغية، ففي دمدم اختصار لهذه الأربعة^(١).

- ﴿رَبُّهُمْ﴾؛ وفي التعبير بالربوبية التي تدلّ على التربية والرعاية والإحسان في مقام الإهلاك والعذاب، دلالة على شدة غضب الله عزَّجَلَّ عليهم الذي أحسن إليهم، فغَرَّهم إحسانه فقطعه عنهم، فعادوا كأمس الدابر^(٢)، وفي ذلك غاية الذلّ لهم^(٣).

- ﴿بَذَنِيهِمْ﴾؛ لبيان أنّ ما أصابهم كان بسبب ذنوبهم، وفيه إنذار عظيم بعاقبة الذنب، فعلى كلّ مذنّب أن يعتبر ويحذّر^(٤).

ب- ﴿فَسَوَّلَهَا﴾:

أي: فسوّى الدمدمة عليهم وعمّمهم بها صغيرهم وكبيرهم، فسوّى بهم العذاب^(٥)، فلم يفلت بهم أحد، لا قوي ولا ضعيف، ولا كبير ولا صغير، لأنّهم استووا في الظلم والكفر بسبب عقر الناقة، بعضهم بالفعل وبعضهم بالرضا والحثّ، فاستحقّوا أن يُستأصلوا جميعهم^(٦)، فقد كان عذاب دمدم مزلزل صاعق، جعل كلّ إنسان منهم يموت على حاله التي هو فيها، إنّ عذاب طاغ أوقف قلوبهم على الفور وشلّ أركانهم، لذلك قال: ﴿جَشِيمِينَ﴾^(٧).

(١) الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية، ص ٦٦.

(٢) النظم القرآني، ص ٢٢٦.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) الكشف، الزمخشري، ص ١٢٠٦.

(٦) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨٣/٢٢).

(٧) تفسير الشعراوي (١٧٠٥٨/٢٧).

ج- ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾:

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.. ومن ذا يخاف؟ وماذا يخاف؟ وأنّى يخاف؟ وإنّما يراد من هذا التعبير لازمه المفهوم منه، فالذي لا يخاف عاقبة ما يفعل، يبلغ غاية البطش حين يبطش، وكذلك بطش الله كان: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]؛ فهو إيقاع يراد إيحاؤه وظلّه في النفوس ومضت سنة الله في أخذ المكذّبين والطغاة، في حدود التقدير الحكيم الذي يجعل لكلّ شيء أجلاً، ولكلّ حادث موعداً، ولكلّ أمر غاية، ولكلّ قدر حكمة وهو ربّ العالمين^(١).

ثامناً: السُور التي فيها إشارات سريعة لقصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ثمود:

١- سورة الإسراء: قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوْفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

تفسير الآية الكريمة:

أ- ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾:

- ﴿وَمَا مَنَعَنَا﴾: يقول الله تعالى عن ذاته العلية سبحانه أنّه ما منعه عن الإرسال الآيات، ولا يمنع الله مانعاً، ولا يحول دون نفاذ أمره حائل، لكنّه رحمةً بهم منع نزول الآيات الماديّة عنهم ليبقيهم ولا يستأصلهم^(٢).

- ﴿أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾: الآيات جمع آية، وهي الأمر العجيب الذي يلفت النظر، ويسترعي الانتباه، وهذه الآيات إمّا أن تكون آياتٍ كونيّة تستدلّ بها على

(١) في ظلال القرآن (٤/٢٢٣٧).

(٢) تفسير سورة الإسراء، د. أحمد نوفل، ص ٣٥٤.

قدرة المدبر الأعلى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مثل المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقد تكون الآيات بمعنى المعجزة التي تُثبت صدق الرسول أو النبي عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في البلاغ عن ربّه تعالى، وقد تكون الآيات بمعنى آيات القرآن الكريم، والتي يسمونها حاملة الأحكام^(١).

فالآيات ثلاثة: كونيّة، ومعجزات، وآيات قرآن، فالمقصود في الآيات: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾؛ المعجزات والخوارق التي يسوقها الله على يد الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لتكون دليلهم لأقوامهم على حجية دعواهم، وحجية رسالتهم^(٢).

وقد جاءت معجزة كلّ نبي على حسب نبوغ قومه، فجاءت معجزة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من نوع السحر الذي نبغ فيه بنو إسرائيل، وكذلك معجزة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ممّا نبغ فيه قومه من الطلب، وجاءت معجزة محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الفصاحة والبلاغة والبيان؛ لأنّ العرب لم يُظهروا نبوغاً في غير هذا المجال، فتحدّاهم بما يعرفونه، ويجيدونه، ليكون أبلغ في الحجة عليهم^(٣).

فالمقصود بالآيات التي منعها الله عنهم، هو ما طلبوه من معجزات أخرى جاءت في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبٍ فَتَفْجِرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۖ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا يَقْرَأُوهٗ ۖ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

(١) تفسير الشعراوي (١٤/٨٦٣٥).

(٢) تفسير سورة الإسراء، ص ٣٤٥.

(٣) تفسير الشعراوي (١٤/٨٦٣٦).

والمتمثل في كل هذه الاقتراحات من كُفَّار مكة يجدها بعيدة كل البعد عن مجال المعجزة التي يُراد بها في هذا المقام الأوّل تثبيتُ الرسول، وبيانُ صدق رسالته، وتبليغُه عن الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه لا تكون إلّا في أمرٍ نبغ فيه قومه، ولهم به إمام ومعرفة، وهم أمة فصاحة وبلاغة، وهل لهم إمام بتفجير الينابيع في الأرض؟ وهل إسقاط السماء عليهم كسفاً يقوم دليلاً على صدق الرسول؟ أم إنّ الجدل العقيم والاستكبار عن قبول الحق؟

وهكذا، جلس كفّار مكة يقترحون الآيات، ويطلبون المعجزات، والحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُنْزِلُ من المعجزات ما يشاء، وليس لأحد أن يقترح على الله أو يُجبره على شيء، فالحقّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَادِرٌ على أن يُنْزِلَ عليهم ما اقترحوه من الآيات، فهو سبحانه لا يُعجزه شيء، ولا يتعاضمه شيء، ولكن للبشر قبل ذلك سابقة مع المعجزات^(١).

ب- ﴿إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾:

هذا الذي منعنا، أنّ الأولين مع أننا سُقْنَا لهم الآيات المادية، فلم تغيّر شيئاً في موقفهم من أنبيائهم، ورسالة هؤلاء الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ^(٢).

ج- ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصَرَةً﴾:

خصّ من بين الآيات المادية آية صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي الناقة، ومعنى مُبْصَرَةٌ: أي آية واضحة؛ يبصر ما وراءها من رآها^(٣).

(١) المصدر السابق (١٤ / ٨٦٣٧).

(٢) تفسير سورة الإسراء، ص ٣٤٥.

(٣) المصدر السابق نفسه.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: في قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾؛ أي: بيّنة تجعلهم يُبصرون الحقّ واضحاً لا لبس فيه^(١).

د- ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾:

لم يبيّن ظلمهم بها هاهنا، ولكنه أوضحه بمواضع أخرى.

- كقوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧].

- وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤].

- وقوله: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]. وإلى غير ذلك من الآيات^(٢).

هـ- ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾:

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: فيه خمسة أقوال:

الأوّل: العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، من دلائل الإنذار تخويفاً للمكذّبين.

الثاني: أنّها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي.

الثالث: أنّها تقلّب الأحوال من صغر إلى شباب ثمّ تكهّل، ثمّ إلى مشيب، لتعتبر بتقلّب أحوالك فتخاف تقلّب أمرك، وهذا قول أحمد بن حنبل.

الرابع: القرآن.

الخامس: الموت الذريع، قاله الحسن^(٣).

(١) أضواء البيان (٣/ ١٦٤-١٦٥).

(٢) المصدر السابق (٣/ ١٦٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٨٣).

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: يذكر الله تعالى رحمته بعدم إنزاله الآيات التي اقترحها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوفاً من تكذيبهم لها، فإن كذبوا بها عاجلهم العقاب، وحلّ بهم من غير تأخير، كما فعل بالأولين الذين كذبوا بها^(١).

ولقد طلب قومُ ثمودَ معجزةً بعينها، فأجابهم الله، وأنزلها لهم، فما كان منهم إلا أن استكبروا عن الإيمان، وكفروا بالآية التي طلبوها، بل وأكثر من ذلك ظلموا بها، أي: جاروا على الناقة نفسها، وتجروا ففعلوها، وهذه السابقة مع ثمود هي منعنا عن إجابة أهل مكة فيما اقترحوه من الآيات، وليس عجزاً منا عن الإتيان بها^(٢).

وقد خصّ بالذكر ثمود، وآيتها لشهرة أمرهم بين العرب، ولأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من أهل مكة يُبصرها صادرهم وواردهم في رحلاتهم بين مكة والشام^(٣).

- ﴿وَمَا نُزِّلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوُّفًا﴾؛ هذا بيان لحكمة أخرى في ترك إرسال الآيات إلى قريش، تشير إلى أن الله تعالى أراد الإبقاء عليهم، ليدخل منهم في الإسلام، ويكون نشر الإسلام على يد كثير منهم، وأعطاهم تلك الآيات كما سألوا مع أن جبلتهم العناد، فأصروا على الكفر، فحقّت عليهم سنة الله التي قد خلت في عباده. وكان الاستئصال عقب إظهار الآيات، لأن إظهار الآيات تخويف من العذاب، والله أراد الإبقاء على هذه الأمة، قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وبالتالي، عوضنا تخويفهم بدلاً عن إرسال الآيات التي اقترحوها^(٤).

(١) تفسير السعدي تقياً عن التدبر والبيان (١٩/ ٢٩٧).

(٢) تفسير الشعراوي (١٤/ ٨٦٣٨).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ٥٢٧).

(٤) المصدر السابق (٦/ ٥٢٨).

٢- سورة فصلت: قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: ١٧، ١٨]:

أ- ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾:

هم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الحِجْر وحواليه، الذين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد ربهم، وينهاهم عن الشرك، وآتاهم الله الناقة آية عظيمة، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، يشربون لبنها يوماً، ويشربون من الماء يوماً، وليسوا ينفقون عليها بل تأكل من أرض الله^(١).

ب- ﴿فَهَدَيْنَهُمْ﴾:

هدى الدلالة والبيان والإرشاد، لا هدى التوفيق والاصطفاء^(٢)، وإنما نص عليهم: ﴿فَهَدَيْنَهُمْ﴾، وإن كان جميع الأمم المهلكة قد قامت عليهم الحجة، وحصل لهم البيان، لأن آية ثمود آية باهرة، قد رآها صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وكانت آية مبصرة، فلهذا خصهم بزيادة البيان والهدى ولكنهم من ظلمهم وشرهم، استحبوا العمى على الهدى، كما ذكر تعالى:

ج- ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾:

اختاروا الكفر والضلال والجهل على الإيمان والهدى والعلم^(٣).

(١) تفسير السعدي، ص ١٠٠٤.

(٢) أضواء البيان (٧/ ١٢٥).

(٣) تفسير السعدي، ص ١٠٠٤.

د- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾:

الفاء في قوله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾؛ سببية.

أي: فاستحبوا العمى على الهدى، وبسبب ذلك أخذتهم صاعقة العذاب الهون^(١).

والصاعقة: هي كل ما يدمر، سواء كان بالريح أو النار، أو الصيحة المدمرة.

والعذاب الهون: أي: المصحوب بالخزي، والإهانة.

هـ- ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ وقع لهم بسبب ما كسبوا وما اقترفته أيديهم، يعني: جزاء وفاقاً، لا ظلماً ولا عدواناً^(٢).

هـ- ﴿وَجِئْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾:

أي: آمنوا بالله ووحدوه، وأفردوه بالعبادة من العذاب الذي نزل على قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ. والإيمان يحتاج إلى تفكير في خالق السماوات والأرض، ويحتاج إلى الطاعة، ويحتاج إلى معرفة أمر الله تعالى، ويحتاج إلى حضور مجالس العلم، ويحتاج إلى ملازمة الذكر، ويحتاج إلى الأعمال الصالحة^(٣).

و- ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾:

كانوا يخافون الله تعالى أن يحلّ بهم من العقوبة على كفرهم لو كفروا، ما حلّ بالذين هلكوا منهم، فآمنوا إتقاء الله، وخوف عيده، وصدقوا رسوله، وخلعوا الآلهة، والأنداد^(٤).

(١) أضواء البيان (٧/ ١٢٥).

(٢) تفسير الشعراوي (٢٢/ ١٣٥٣١).

(٣) تفسير النابلسي (١١/ ٣١٦).

(٤) تفسير الطبري (٢٤/ ١٠٥-١٠٦).

أي: كانت سنتهم اتقاء الله، والنظر فيما يُنجي من غضبه، وعقابه، وهو أبلغ في الوصف من أن يُقال المتقين^(١). فطريق النجاة والفوز في الدنيا والآخرة هو طريق الإيمان والتقوى في كل مكان وزمان.

٣- سورة الفجر: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ [الفجر: ٦-١٤].

صيغة الاستفهام في مثل هذا السياق أشدُّ إثارةً لليقظة والالتفات، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ابتداءً، ثم هو لكل من تتأتى منه الرؤية أو التبصر في مصارع أولئك الأقوام، وكلها مما كان المخاطبون بالقرآن أول مرة يعرفونه، ومما تشهد به الآثار والقصص الباقية في الأجيال المتعاقبة^(٢).

أ- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾:

ألم تر يا محمد ما حدث لهؤلاء، وهم أعلام لهم تاريخ معروف في ركب الحضارات، وكانت لهم صولة وامتداد عمراني وحضاري ملأ الدنيا، ولكن لم تعصمهم هذه الحضارة من عذاب الله، فأخذهم الله فأصبحوا أثراً بعد عين.

ومعنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ يعني هذا أمر معروف للنبي وللمعاصرين لنزول هذه الآيات، وتاريخهم متداول تسير به الركبان؛ لذلك خاطبهم الله هذا الخطاب: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، ولو كان خبراً مطموراً لا يعرفه أحد لقالوا لم نعرف ما فعل بهم ولا علم لنا به. فما

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٨٢٥).

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٠٣).

حدث لهم من الإهلاك أمر معروف، لأنّه وقع بالفعل، ويمكن الاستدلال عليه بما بقي من آثارهم.

- ﴿الْمُرْتَضَى﴾: أنّ العلماء فسّروها بمعنى: ألم تعلم، ويعلق الشعراوي رَحِمَهُ اللهُ فيقول: لكن إذا كانت بمعنى ألم تعلم فلماذا عدل عنها السياق إلى ﴿الْمُرْتَضَى﴾؟

والحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يريد أن يؤكّد لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأخبار، ويلفت نظره وأنظّرنا أنّ الحقّ إذا أخبرك بشيء فاعلم أنّ يقينك به يجب أن يكون يقين المستقبل لما رأى لا يقين المستقبل لما سمع، وأن يكون أخبار الله لك أوثق ممّا تراه عينك، لأن رؤية العين قد تخدعك، إنّما ربّك لا يخدعك، لذلك كلّ أمر من الأمور يريد الحقّ سبحانه أن يؤكّده يقول: ﴿الْمُرْتَضَى﴾، كما في قوله تعالى: ﴿الْمُرْتَضَى تَرَأَتْهُ اللهُ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحج: ١٨].

ياربّ لم نر هذا السجود، لكن إخبارك به أوثق لنا من رؤيتنا بأعيننا، إذن إخبار الله عن أمر غيبيّ يجب أن يرتقي لمستوى ما تراه عينك^(١).

ب- هنا يقول الحقّ سبحانه: ﴿الْمُرْتَضَى فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ إِرْمَ دَاتِ الْعِمَادِ ۖ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾:

أعطانا صورة حضاريّة لما وصلت إليه عادٌ من تمكين وحضارة، وعمارة، لا مثل لها في عالم ذلك الزمان، يعني كانت الدولة الأولى في العالم كلّها^(٢).

- قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ عن عاد: "وهؤلاء كانوا متمرّدين عتاة جبارين، خارجين عن طاعته، ومكذّبين لرسله، وجاحدين لكتبه، فذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كيف أهلكهم،

(١) تفسير الشعراوي (٢٧/١٧٠١٩).

(٢) المصدر السابق نفسه.

ودمّرهم، وجعلهم أحاديثٍ وعِبْرًا، وهؤلاء هم عاد الأولى، وهم أولاد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، قال ابن إسحاق: وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكذبوه وخالفوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم، ومن آمن معه منهم، وأهلكهم بريح صرصر عاتية، وقد ذكر الله قصّتهم في القرآن في غير موضع، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون^(١).

- ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾: فما هي إرم؟ وما معنى ذات العمداء؟ وكيف لم يُخلق مثلها في البلاد؟ هناك كثير في الأسرَائِيلِيَّاتِ والخرافات والأساطير عن مدينة أسطوريّة خياليّة، سمّوها مدينة (إرم).

ومدينة (إرم ذات العمداء) قالوا عنها: إنّها مبنية من قصور وأعمدة، من ذهب وورخام، وإنّها متنقّلة في البلدان. وهذا كلّ أساطير وخرافات، فليست هناك مدينة اسمها (إرم ذات العمداء).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "ومن زعم أنّ (إرم) مدينة تدور في الأرض، فتارةً في الشام، وتارةً في اليمن، وتارةً في الحجاز، وتارةً في غيرها، فقد أبعد النّجعة، وقال ما لا دليل عليه، ولا برهان يعوّل عليه، ولا مستند يُركن إليه"^(٢).

وإنّ كلمة (إرم) في سورة الفجر ليست اسم مدينة كانت تسكنها عاد، وإنّما هي بدل من عاد، أو عطف بيان لعاد، وعاد هي عاد إرم. و(إرم) اسم أحد أجداد (عاد)، وسمّيت قبيلة عاد باسمه، وكان يُقال لها: عاد إرم. و(إرم) في اللغة هي الحجارة

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٧٤).

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٨٨.

المرفوعة، إذ قال ابن فارس في (مقاييس اللغة): "والإرم: العَلَم. وهي حجارة مجتمعة، كأنّها رجل قائم"^(١).

ومعنى: ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾:

- (إرم) في الآية بدل من عاد: (بعاد) ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾؛ مجرورة بالفتحة بدل الكسرة لأنها ممنوعة من الصرف، للعلميّة والتّأنيث^(٢).

- ﴿ذَاتِ﴾: صفة لعاد - أو إرم - مجرورة. وهي مضاف، و﴿الْعِمَادِ﴾، هو مضاف إليه^(٣).

- ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾.

- ﴿الَّتِي﴾: اسم موصول مبني، في محل جر صفة لعاد، والتّقدير: غير مخلوق مثلها في البلاد.

إنّ الآيات الكريمة، تتحدّث عن عاد، والتي هي عاد إرم، وعاد إرم هذه ذات العِمَاد، فكانت تسكن في بيوت من الشعر، وأعمدتها مرتفعة، وتبني قصوراً ضخمة على قمم الجبال، وبدخلها أعمدة مرفوعة، فهي بهذا الاعتبار: عاد ذات العِمَاد.

وعاد هذه أعطاه الله قوّة، فلم يَخْلُقْ مثلها في البلاد قبيلةً في قوّتها وسلطانها. فالآيات لا تتكلم عن مدينة (إرم) ذات العِمَاد، التي لم يُخْلَقْ ولم يُبْنَ مثلها

(١) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، دار الفكر، ١٩٧٩م (١/ ٨٥).

(٢) القصص القرآني (١/ ٢٣١).

(٣) المصدر السابق نفسه.

في البلاد، ولم تماثلها أية مدينة في البلاد. وإنما تتحدث عن عاد إرم، وهي عاد ذات العماد، وهي عاد التي لم يخلق الله في البلاد مثلها في القوة والسلطان^(١).

ج- ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾:

وادي القرى؛ نحتوا بقوتهم الصخور، فاتخذوها مساكن. وقد قال الخازن رحمه الله: قوله عز وجل: ﴿وَتَمُودَ﴾؛ أي: وفعل بشمود مثل ما فعل بعاد.

- ﴿الَّذِينَ جَابُوا﴾؛ أي: قطعوا.

- ﴿الصَّخْرَ﴾؛ أي: الحجر.

- ﴿بِالْوَادِ﴾؛ بوادي القرى، وكانت ثمود أول من قطع الصخر، ونحته، واتخذوا مساكن في الجبال وبيوتاً^(٢).

د- ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾:

وهم الجنود الذين ثبتوا ملكه، كما تثبت الأوتاد ما يراد إمساكه بها^(٣).

وهناك من قال أن الأرجح الأهرامات التي تشبه الأوتاد الثابتة في الأرض المتينة البنيان، وفرعون المشار إليه هنا هو فرعون موسى الطاغية الجبار^(٤).

هـ- ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ ۝ فَكَثُرُوا فِيهَا الْفَسَادَ:

فلم يعب عليهم التشييد، والحضارة التي لا مثيل لها، وإنما عاب عليهم طغيانهم، وغرورهم بالتفوق المادي في الحياة، ولم يعب عليهم الرقي المادي، ولم يعب الحركة في ذاتها، وإنما عاب عليهم طغيان الحركة.

(١) المصدر السابق (١/ ٢٣٢).

(٢) تفسير السعدي، ص ١٢٥٤؛ لباب التأويل، الخازن (٤/ ٣٧٦).

(٣) تفسير السعدي، ص ١٢٥٤.

(٤) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٠٤).

وها هو الكون أمامك خذ بأسباب الرقي والتقدم ما تشاء، واستنبط من أسرار الوجود ما يجعلك في رخاء، ونعمة، ورفاهية في حدود ما أحل الله لك، ولكن احذر أن تُطغيك النعمة، أو الجاه، أو المال أو غيره؛ لأن الطغيان لا بد أن ينشأ عنه الفساد، والله لا يرضى بالفساد، ولا بد أن يضع له حداً حتى لا يستشري في الكون، فيأخذه الله أخذ عزيز مقتدر^(١).

فهؤلاء هم ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿.

وليس وراء الطغيان إلا الفساد، فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذي يقع عليهم الطغيان سواء، كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة، ويحول عن خطها السليم المعمّر الباني، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال.

وإنه يجعل الطاغية أسير هواه، لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفسد هو أول من يفسد؛ ويتخذ له مكاناً في الأرض غير مكان العبد المستخلف.

والطغيان يعطل ملكات الابتكار المتحررة، والتي لا تنمو في غير جو الحرية، والنفس التي تستدلّ تأسن، وتتعفن، وتصبح مرتعاً لديدان الشهوات الهابطة، والغرائز المريضة، وميداناً للانحرافات مع انطماس البصيرة، والإدراك، وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع، وهو فساد أي فساد.

ومن ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصوّرات المستقيمة، لأنها خطر على الطغاة والطغيان، فلا بد من تزييف للقيم وتزوير في الموازين، وتحريف للتصوّرات،

(١) تفسير الشعراوي (٢٧/١٧٠٢٠).

كما تقبل صورة البغي البشعة وتراها مقبولة مستساغة، وهو فساد أيّ فساد، فلمّا أكثرُوا في الأرض الفساد، كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد.

و- ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوِّطَ عَذَابٍ﴾:

أنزل بهم الله تعالى عذابه، وأحلّ بهم نقمته، بما أفسدوا بالبلاد وطمغوا على الله فيها، فكانت نقماً تنزل بهم، إمّا ريحاً تُدمّرهم، وإمّا رجفاً يدمدم عليهم، وإمّا غرقاً يهلكهم من غير ضرب ولا عصا، لأنّه كان من أليم عذاب القوم الذين خوطبوا بهذا القرآن، الجلد بالسياط، فكثرت استعمال القوم الخبر عن شدّة العذاب الذي يُعذّب الرجل منهم أن يقولوا: ضُرب فلان حتّى بالسياط، إلى أن صار ذلك مثلاً فاستعملوه في كلّ معدّب بنوع من العذاب شديد، وقالوا: صبّ عليه سوط عذاب^(١).

وقد قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: "والصبّ حقيقته: إفراغ ما في الظرف، وهو هنا مستعار لحلول العذاب دفعة، وإحاطته بهم، كما يُصبّ الماء على المغتسل، أو يُصبّ المطر على الأرض، فوجه الشبه مركّب من السرعة والكثرة، ونظيره استعارة الإفراغ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة: ٢٥٠].

ونظير الصبّ قولهم: شنّ عليهم الغارة: وكان العذاب الذي أصاب هؤلاء عذاباً مفاجئاً قاضياً، فأما عاد فرأوا عارض الريح، فحسبوه عارض مطر، فما لبثوا حتّى أطارتهم الريح كلّ مطير، وأما ثمود فقد أخذتهم الصيحة، وأما فرعون فحسبوا الريح منحسراً، فما راعهم إلّا وقد أحاط بهم.

- (والسوط): آلة ضرب تُتخذ من جلود مصفورة، تُضرب بها الخيل للتأديب وليحملها على مزيد من الجري، وعن الفراء: أنّ كلمة ﴿سَوِّطَ عَذَابٍ﴾ يقولها العرب

(١) جامع البيان (٣٠/ ١٨٠).

لكلّ عذاب يدخل فيه السوط، أي: يقع بالسوط، يريد أن حقيقتها كذلك ولا يريد أنها في هذه الآية كذلك" (١).

- ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوِّطَ عَذَابٍ﴾: هو تعبير يُوحى بلذع العذاب، حين يذكر السوط، وبفيضه، وغمره حين يذكر الصبّ، حيث يجتمع الألم اللاذع، والغمرة الطاغية على الطغاة الذين طعوا في البلاد، فأكثرُوا فيها الفساد (٢).

ز- ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾:

- (المرصاد): الطريق، وقيل: موضع الرصد، وأصل الرصد: مراقبة الشيء (٣).

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾؛ تعني: أنه تعالى يعلم تحرّكاتكم، ويرصدها، ومادام يرصد تحرّكاتكم فلن يترككم تخالفون منهجه، وكل حركة منكم مقدّرة ومحسوبة، إن شاء عجل العقوبة في الدنيا كما فعل بمصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم وتحديث عنهم هذه الآيات (٤)، وإن شاء أخرها إلى الآخرة (٥).

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾: بالمرصاد للطغيان والشرّ والفساد، يرى ويحسب ويحاسب ويُجازي، وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولا يظلم ولا يأخذ بظواهر الأمور لكن بحقائق الأشياء (٦).

(١) التحرير والتنوير (١٢/٦٤٤).

(٢) في ظلال القرآن (٦/٣٩٠٤).

(٣) التدبّر والبيان (٣٧/٣١٩).

(٤) في ظلال القرآن (٦/٣٩٠٤)؛ تفسير الشعراوي (٢٧/١٧٠٢٢).

(٥) تفسير الشعراوي (٢٧/١٧٠٢٢).

(٦) في ظلال القرآن (٦/٣٩٠٥).

٤- سورة الذاريات: قال تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ۖ﴾ ٤٣ ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۖ﴾ ٤٤ ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ۖ﴾ [الذاريات: ٤٣-٤٥].

أ- ﴿وَفِي ثَمُودَ ۖ﴾؛

أيضاً لهم عبرة ومنتعظ.

ب- ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ۖ﴾؛ أي: عيشوا متمتعين بالدنيا.

- ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ۖ﴾؛ أي: إلى وقت الهلاك وهو ثلاثة أيام، كما قال تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ﴾ [هود: ٦٥]. وقيل: معنى ﴿تَمَتَّعُوا﴾؛ أي: أسلموا وتمتعوا إلى وقت فراغ آجالكم.

ج- ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ۖ﴾؛ أي: خالفوا أمر الله، وكذبوا رسله وعاندوه، وبعث الله لهم الناقة آية مبصرة، فلم يزداهم ذلك إلا عتواً ونفوراً، وعقروا الناقة^(١).

د- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۖ﴾؛

- الصاعقة الموت، وقيل: هي كل عذاب مهلك، وقد قال الحسين بن واقد: كل صاعقة في القرآن فهو العذاب^(٢).

- ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۖ﴾؛ إلى عقوبتهم بأعينهم نهاراً.

هـ- ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ ۖ﴾؛ أي: من هرب ولا نهوض^(٣).

(١) التدبر والبيان (٣٢/ ٥٦٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٧/ ٣٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٠٠).

و- ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾؛ أي: ممتنعين من العذاب حين أهلكوا، أي: ما كان لهم ناصر^(١).

قال ابن عباس: ذهبت أجسامهم، وبقيت أرواحهم في العذاب^(٢).

تاسعاً: ذكر ثمود مع الأمم الهالكة في القرآن الكريم:

جاء ذكر قوم ثمود مع الأمم الهالكة في القرآن الكريم من باب الاعتبار، والوقوف على الدروس والعبر، واستخلاصها، والاتعاظ بها، ومن هذه الآيات:

١- قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

يقول الله تعالى محذراً للذين يسиров في طريق الهلكى، ويتخطون هؤلاء: ﴿الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مَن ساروا في نفس الطريق؟

قوم نوح، وقد غمرهم الطوفان، وطواهم اليم في تيار الفناء المرهوب وأصبحوا في عالم البرزخ حيث العذاب إلى يوم القيامة، وعاد وقد أهلكوا بريح صرصر عاتية، وثمود وقد أخذتهم الصيحة، وقوم إبراهيم وقد أهلك طاعتهم المتجبر وأنجى إبراهيم، وأصحاب مدين وقد أصابتهم الرجفة وخنقتهم الظلة.

و ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قرى قوم لوط، وقد قطع الله دابرهم^(٣).

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٣٥).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) في ظلال القرآن مع التصريف (٣/ ١٦٧٤).

وقلب الله بيوم قوم لوط لَمَّا دَمَّرَهَا قَلْبًا، فجعل عاليها سافلها فصارت (مؤتفكات) أي: مصروفات مقلوبات.

جاء عذاب قوم لوط، بما يتناسب مع جرائمهم، وشذوذهم، والعذاب والعقاب والجزاء من جنس العمل، لقد ترك أولئك الشاذون النساء إلى الرجال، وقضوا شهواتهم عند أمثالهم من نفس الجنس، وبذلك قلبوا الحقائق والقيم، وقلبوا الفطرة والمنطق، وحولوا الرجل الذكر الذي خلقه الله ليطلب النساء ويكون فاعلاً في امرأته وفق شرع الله عَزَّوَجَلَّ، وجعلوه مطلوباً من قِبَل الرجال الشاذين، مفعولاً فيه مركوباً لهم، وهذا هو الإفك بعينه، وهذا هو قلب الحقائق، وهذا هو الصرف عن الفطرة إلى الشذوذ، ولذلك ناسب أن يقلب الله بيوتهم بعد أن قلبوا فطرتهم، ورُجولتهم، فجعل عاليها سافلها، لأنهم كانوا يركبون الرجال من العالمين، والأصل أن يكون هؤلاء الرجال راكبين طالبيين^(١) للنساء وفق سنة الله في الزواج بين الذكر والأنثى وعقود النكاح الشرعية.

ولقد تحدّث الله تعالى في الآية الكريمة على أمم ظلمت نفسها، ومضت فيها سنة الله: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾؛ إذ وقع بهم من عقوبته ما أوضح، ﴿وَلَا كُنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث تجرّؤا على معاصيه، وعصّوا رسله، واتّبعا أمر كل جبار عنيد^(٢).

٢- في قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿الَّذِينَ يَأْتِكُم نَبُوءُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ

(١) القصص القرآني (١/٥٢١).

(٢) تفسير السعدي، ص ٤٢٩.

يَا بَلَيْتَ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ [إبراهيم: ٩].

والمعنى: ألم يأتكم يا معشر قريش، يا أهل الشرك ويا أيها الناس عموماً خبر الأمم المكذبة من قبلكم التي حلّ بها من أمر الله ما حلّ، ونزل بهم من بلائه ما نزل، وهم قوم نوح إذ أتاهم الطوفان فأغرقهم إلّا من آمن، وقوم عاد إذ أخذوا بريح صرصر عاتية، وقوم ثمود إذ أخذتهم الصيحة الطاغية الشديدة التي أهلكتهم، وكذا أمم من بعدهم لا يعلمهم إلّا الله، أفناهم الله وأهلكهم وأبادهم، فهؤلاء جميعاً أرسل الله إليهم رسلاً منهم، وأيد هؤلاء الرسل بالحجج الواضحات، والدلالات الظاهرات على وحدانيته عَزَّجَلَّ، ما قبلوا من الرسل ذلك؛ بل كذبوهم وعاندوهم وردّوا أيديهم في أفواههم عندما أخبرتهم الرسل بوحدانية الله وبأوامره ونواهيهِ.

ولأهل العلم أقوال في قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٩] منها: أنّ أهل الكفر وضعوا أيديهم في أفواههم تغيطاً على الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَٰلِيكُمْ الْأَتَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

ومنها: أنّهم وضعوا أيديهم على أفواههم ساخرين مستهزئين، كالذي يضحك ساخراً ويضع يده على فمه. ومنها: أنّ المراد أنّهم ردّوا على الرسل قولهم، ورفضوا ما جاءتهم به رسلهم. ومنها: أنّهم وضعوا أيديهم على أفواه الرسل يمنعونهم من الكلام^(١).

٣- في قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ۖ وَقَوْمٌ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۖ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ

فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَتْ نَكِيرٌ ﴿٤٦﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴿٤٧﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٨﴾ [الحج: ٤٦-٤٨].

يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وإن يكذبك هؤلاء المشركون فلست بأول رسول كُذِّبَ وليسوا أول أمة كُذِّبَ رسولها ﴿٤٦﴾ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٧﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٨﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ﴿٤٩﴾، أي: قوم شعيب، ﴿وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ المكذبين، فلم أعاجلهم بالعقوبة بل أمهلتهم.

- ﴿فَكَيْفَ كَانَتْ نَكِيرٌ﴾؛ أي: إنكاري عليهم كفرهم وتكذيبهم كيف حاله؟!

كان أشدَّ العقوبات، وأقطع المثالات، فمنهم من أغرقهم، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أهلك بالريح العقيم، ومنهم من خُسفت به الأرض، ومنهم من أرسل عليه عذاب يوم الظلة، فليعتبر بهم هؤلاء المكذَّبون أن يصيبهم ما أصابهم، فإنَّهم ليسوا خيراً منهم، ولا من كُتِبَ لهم براءة في الكتب المنزلة من الله، وكم من المعذِّبين المهلكين من أمثال هؤلاء.

- ولهذا قال: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾؛ أي: وكم من قرية.

- ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾؛ بالعذاب الشديد والخزي الدنيوي.

- ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾؛ بكفرها بالله وتكذيبها لرسوله، لم تكن عقوبتنا لهم ظلماً.

- ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾؛ أي: فديارهم متهدمة قصورها، وجدرانها قد سقطت على عروشها، فأصبحت خراباً بعد أن كانت عامرة، وموحشة بعد أن كانت أهلة بأهلها آنسة.

- ﴿وَبَنٍ مُّعْتَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾؛ أي: وكم من بئر قد كان يزدحم عليه الخلق لشربهم وشرب مواشيهم، ففقد أهله وعُدم منه الوارد والصادر، وكم من قصر تعب عليه أهله فشددوه ورفعوه وحصّنه وزخرفوه، فحين جاءهم أمر الله لم يغن عنهم شيئاً، وأصبح خالياً من أهله، قد صاروا عبرة لمن اعتبر، ومثالاً لمن تفكّر ونظر^(١).

- ولهذا دعا الله عباده إلى السير في الأرض؛ لينظروا ويعتبروا، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانهم وقلوبهم.

- ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ آيات الله، ويتأملون بها مواقع عبره.

- ﴿أَوْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أخبار الأمم الماضية، وأبناء القرون المعذبين، وإلا فمجرد نظر العين وسماع الأذن الخالي من التفكير والاعتبار غير مفيد ولا موصل إلى المطلوب.

ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾؛ أي: هذا العمى الضارّ في الدين عمى القلب عن الحقّ حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى المريّات، وأمّا عمى البصر فغايبته بلغة ومنفعة دنيويّة^(٢).

(١) تفسير السعدي، ص ٧١١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

٤- في قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ۝٣٥ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ۝٣٦ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَعْرَفْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣٧ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ۖ﴾ [الفرقان: ٣٥-٣٩].

تحدثت هذه الآيات الكريمة إلى هذه القصص، وقد بسطها في آيات أخر، يحذر المخاطبين من استمرارهم على تكذيب رسولهم فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم الذين كانوا قريباً منهم، ويعرفون قصصهم بما استفاض واشتهر عنهم، ومنهم من يرون آثارهم عياناً، وأخبرهم عن الأقوام التي مضت فيهم سنة الله، ومن بينهم عاد وثمود.

٥- قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٣٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ۝٣٧ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ ۖ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨ وَقُرُونٍ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ۝٣٩ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنْبِهِ ۖ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَفْنَا ۖ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۖ﴾ [العنكبوت: ٣٦-٤٠].

أ- ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ﴾:

وأرسلنا إلى مدين القبيلة المعروفة المشهورة.

- ﴿سُعَيْبًا﴾: فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث ورجائه والعمل له، ونهاهم عن الإفساد في الأرض ببخس المكاييل والموازين والسعي بقطع الطرق.

- ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: فأخذهم عذاب الله.

- ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِمِينَ﴾ أي: في محلّهم ومسكنهم أمواتاً خامدين موتى قد هلكوا^(١).

ب- ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْأَلِهِمْ﴾:

كذلك ما فعلنا بعاد وثمود وقد علمت قصصهم، وتبيّن لكم بشيء تشهدونه بأبصاركم من مساكنهم وآثارهم التي باتوا عنها، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات المفيدة للبصيرة، فكذبوهم وجادلوهم^(٢).

ج- ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾:

وزيّّن لهم الشيطان عملهم حتى ظنّوا أنّه أفضل ممّا جاءتهم به الرسل^(٣).

- ﴿فَصَدَّهُمْ﴾: الشيطان.

- ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾: عن طريق الهدى^(٤).

د- ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾:

(١) موسوعة التفسير المأثور (١٧/٣٢٣).

(٢) تفسير السعدي، ص ٨٤٢.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) موسوعة التفسير المأثور (١٧/٣٢٣).

في ضلالتهم، معجبين بها، يحسبون أنهم على دين حق في عبادتهم للأوثان.
هـ- ﴿وَقُرُونٌ وَفَرْعَوْنَ وَهَمَانٌ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِينَ ۖ﴾:

كذلك قارون وفرعون وهامان، حين بعث الله إليهم موسى بن عمران بالآيات
البيّنات والبراهين الساطعات، فلم ينقادوا، واستكبروا في الأرض على عباد الله
فأذلّوهم، وعلى الحقّ فردّوه، فلم يقدرُوا على النجاة حين نزلت بهم العقوبة.

- ﴿وَمَا كَانُوا سَاقِينَ ۖ﴾: الله، ولا فائتين، سلّموا واستسلموا^(١).

- ﴿وَمَا كَانُوا سَاقِينَ ۖ﴾: ما كانوا سابقي الله بأعمالهم الخبيثة؛ فيفتوته هرباً.

أي: ما كانوا يسبقوننا حتّى لا نقدر عليهم فنعذبهم^(٢).

و- ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ۖ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ
الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ۖ﴾:

- ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ۖ﴾: من هؤلاء الأمم المكذّبة على قدره وبعقوبة
مناسبة له.

- ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ۖ﴾: عذاباً يحصبهم، كقوم عاد حين أرسل الله
﴿عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] و﴿سَحَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ

(١) تفسير السعدي، ص ٨٤٢.

(٢) موسوعة التفسير المأثور (١٧/٣٢٦).

فِيهَا صَرَعَى كَانَهُمْ أَجْأَزُ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿[الحاقة: ٧]﴾^(١)، وكذلك قوم لوط رموا بالحجارة^(٢) من كان خارجاً من مدينتهم، وأهل السفر منهم، وخسف بمدينتهم^(٣).

- ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾: كشمود قوم صالح، وقوم شعيب^(٤).

- ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كقارون^(٥).

- ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَقْنَا﴾: كفرعون وهامان وجنودهما، وقوم نوح^(٦).

ز- ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾:

أي: ما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله، وغناه التام عن جميع الخلق.

ح- ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾:

منعوا حقها التي هي بصدده، فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده؛ فهو لاء وضعوها في غير موضعها، وشغلوها بالشهوات والمعاصي، فضرروها غاية الضرر من حيث ظنوا أنهم ينفعونها^(٧).

(١) تفسير السعدي، ص ٨٤٢.

(٢) موسوعة التفسير المأثور (١٧/ ٣٢٦).

(٣) المصدر السابق (١٧/ ٣٢٧).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) تفسير السعدي، ص ٨٤٢.

(٦) موسوعة التفسير المأثور (١٧/ ٣٢٩).

(٧) تفسير السعدي، ص ٨٤٢.

٦- قوله تعالى في سورة ص: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٣﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَخْرَابُ ﴿١٤﴾ إِنَّ كُلَّ إِيَّاهُمْ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٥﴾﴾ [سورة ص: ١٢-١٤].

حذر الله أهل مكة والناس أن يفعل بهم ما فعل بالأمم من قبلهم، الذين كانوا أعظم قوة منهم وتحزباً على الباطل.

أ- ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾:

ذو الأوتاد أي: الجنود العظيمة، والقوة الهائلة.

ب- ﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ﴾:

- ﴿وَتَمُودُ﴾: قوم صالح.

- ﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ﴾ والأليكة أي: الأشجار والبساتين الملتفة، وهم قوم شعيب.

- ﴿وَأُولَئِكَ الْأَخْرَابُ﴾: الذين اجتمعوا بقوتهم، وعددهم، وعددهم على ردّ الحق، فلم تغن عنهم شيئاً.

- ﴿إِنَّ كُلَّ﴾ من هؤلاء.

- ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [سورة ص: ١٤] أي: فحق عليهم.

- ﴿عِقَابِ﴾ الله (١).

٧- قوله تعالى في سورة غافر: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَخْرَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر: ٣٠، ٣١].

كان في دعوة مؤمن آل فرعون تذكيره لقومه بالأمم السابقة، وما حلّ بهم من عذاب وعقاب وهلاك عندما ابتعدوا عن التوحيد ومنهج الله، وإفراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالعبادة، وقد استخدم حقائق التاريخ في دعوة فرعون وقومه.

أ- ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ [غافر: ٣٠]:

أي: إنني أخاف أن ينزل بكم مثلما نزل بالأمم المكذبة.

ب- ﴿مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]:

وهم الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حلّ بهم بأس الله وما رده عنهم رادّ، ولا صده عنهم صادّ^(١).

لقد لمس الرجل المؤمن قلوب قومه لمسة تاريخية، حيث ذكرهم بمن كان قبلهم من الأحزاب والأقوام الكافرة، ودعاهم إلى التفكير بما جرى لهم، فلعلّ ذلك يدعوهم إلى تغيير موقفهم، إنّه يصارحهم بخوفه عليهم من أن يعذبهم الله، كما عذب قوم نوح وعاد والذين من بعدهم، وما عليهم إلّا أن يؤمنوا بالله لئلا يصيبهم ما أصابهم^(٢).

وقد استخدم مؤمن آل فرعون علم التاريخ، ومعرفته بتاريخ النبوات في تحذيره ونصحه لقومه، وبيّن لهم ما حلّ بالأمم التي رفضت البيّنات، وأنّ الله أغرق قوم نوح، وأهلك عاداً بريح صرصر، وأهلك ثمود بالطاغية، وأنّ قوم فرعون لهم ثقافة

(١) موسى كليم الله، علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠٢٢م، ص ٦٨٨.

(٢) القصص القرآني، الخالدي (٢/٤٩٦).

دينيّة فذكّرهم بها، ثمّ إنّ العلم بدأب قوم نوح وعاد ثمود والذين من بعدهم هو الذي يفتح باب قلوبهم للآية الجليلة^(١).

- ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١] وأنّهم كانوا ظالمين لما رفضوا الآيات، وظلموا الناس الذين حالوا بينهم وبين الآيات، وظلموا أنفسهم^(٢).

لقد بيّن الله عزّ وجلّ على لسان مؤمن آل فرعون أنّما أهلكهم الله بذنوبهم وتكذيبهم رسله، وخالفتم أمره، فأنفذ فيهم قدره^(٣).

والآية فيها إشارة إلى سنّة من سنن الله الثابتة، وإلى عدله المطلق: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١] أي: لا يعذبهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جرم أسلفوه^(٤)، وهذا يعني أنّ تدميرهم كان عدلاً، لأنّهم استحقّوه بأعمالهم، وسنّة الله مطّردة في هلاك الأمم الظالمة عدلاً منه^(٥).

٨- قوله تعالى في سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ [سورة ق: ١٢-١٤].

أي: كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الكرام وأنبياءهم العظام، كنوح كذّبه قومه، وأصحاب الرسّ كذبوا نبيهم، وعاداً كذبوا هوداً، وإخوان لوط كذبوا لوطاً، وأصحاب الأيكة كذبوا شعيباً، وقوم تُبَّع،

(١) موسى كليم الله، ص ٦٨٩.

(٢) من حديث يوسف وموسى، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ٢٠١٠م، ص ٤٨٣.

(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ١٣٢).

(٤) مؤمن آل فرعون، بشير الخياط، رسالة دكتوراة، جامعة درمان، السودان، ٢٠١١م، ص ٢١١.

(٥) مؤمن آل فرعون، بشير الخياط، ص ٢١٢.

- ﴿تُبْع﴾: كُلُّ مَلِكٍ يَمُنُّ فِي الزَّمَانِ السَّابِقِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، فَقَوْمُ تُبْعَ كَذَّبُوا الرَّسُولَ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يُخْبِرْنَا اللَّهُ مِنْ هُوَ ذَلِكَ الرَّسُولُ، وَأَيُّ تَبْعِ التَّبَاعَةِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، كَانَ مَشْهُورًا عِنْدَ الْعَرَبِ الْعَرَبَاءِ الَّذِينَ لَا تَخْفَى مَا جَرِيَاتِهِمْ عَلَى الْعَرَبِ، خُصُوصًا مِثْلَ هَذِهِ الْحَادِثَةِ، فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ كَذَّبُوا الرِّسَالَ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، فَحَقَّقَ عَلَيْهِمْ وَعِيدَ اللَّهِ وَعَقُوبَتَهُ، وَلَسْتُمْ أَهْلُهَا الْمَكْذُوبُونَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرًا مِنْهُمْ، وَلَا رَسَلَهُمْ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْ رُسُولِكُمْ؛ فَاحْذَرُوا جُرْمَهُمْ؛ لئَلَّا يَصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ^(١).

- ﴿الرَّسِّ﴾: يُطْلَقُ لَفْظُ الرَّسِّ عَلَى الشَّقِّ فِي الْأَرْضِ، وَالْبُئْرِ الْقَدِيمَةِ، وَالْبُئْرِ كَثِيرَةِ الْمَاءِ، وَالْبُئْرِ الْمَطْوِيَّةِ وَغَيْرِ الْمَطْوِيَّةِ، وَالْقَبْرِ وَالْوَادِ، كَمَا يُطْلَقُ عَلَى نَهْرِ الرَّسِّ بَيْنَ أَذْرِبَيْجَانَ وَأَرْمِينِيَا، وَلَعَلَّهُمْ يَقْصِدُونَ نَهْرَ (أَرَس) أَوْ (الرَّان)، وَيُطْلَقُ عَلَى وَادٍ بَنَجْدٍ^(٢).

وذكر القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أَنَّ مِنْ مَعَانِي الرَّسِّ: الثَّلْجُ الْمَتْرَاكُمُ فِي الْجِبَالِ"^(٣).

وأصحاب الرس هم من بَقِيَّةِ ثَمُودَ فِي قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٤).

وهناك من العلماء من يرى: أَنَّ الرَّسَّ دِيَارٌ وَاسِعَةٌ سَكَنَهَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ تَمَامًا كَدِيَارِ الْأَقْوَامِ الَّتِي وَرَدَ تَرْكِيبُ (أَصْحَابِ الرَّسِّ) مُصَاحِبًا لَذِكْرِهِمْ فِي الْقُرْآنِ، وَهُمْ قَوْمُ عَادَ وَثَمُودَ وَقَوْمُ نُوحٍ وَقَوْمُ تَبْعَ، وَلَعَلَّ مَكَانَهُمْ كَانَ وَاسِعًا مُمْتَدًّا بَيْنَ الْيَمَامَةِ وَحَضْرَمَوْتِ، فَذَكَرَ مِنْ رَأْيٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُمْ بِالْيَمَنِ الْجُزْءِ الْجَنُوبِيِّ مِنْ دِيَارِهِمْ،

(١) تفسير السعدي، ص ٨٠٥.

(٢) معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر ودار بيروت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م (١/١٦٤).

(٣) تفسير القرطبي (١٣/٢٤).

(٤) أعلام المكان في القرآن الكريم، ص ٥٨.

وذكر من رأى أنّهم باليمامة والقصيم الجزء الشمالي من هذه الديار، ويؤيد ذلك وجود (وادي سر) في حضرموت، ووجود مدينة الرس الواقعة في القصيم من أرض نجد، كما يؤيده ذكر الرس والرئيس في الشعر، وذهاب الشارحين والجغرافيين إلى أنّ هذين الاسمين علما لأودية في هذه المنطقة، ويؤيده ما روي عن ابن عباس: أنّ أصحاب الرس قوم من بقة ثمود التي سكنت الأحقاف ثم انتقلت إلى وادي القرى شمالاً، كما تبين من دراسة لفظ الحجر، فلفظ (الرس) في الأصل يدل على حفرة، أو أخدود، أو بئر، أو واد، ولا يستبعد أن تسمى القرية باسم بئر فيها، ولا أن تسمى الديار باسم الوادي أو الرس فيها^(١).

وقد ذكر علماء التفسير أقولاً كثيرة في تفسير (أصحاب الرس) منها: "أن الرس: بئر قُتل فيها صاحب ياسين، ومنهم من قال: أنّهم قوم رسوا نبيهم في بئر، ومن قال: كانوا بحجر، بناحية اليمامة، على آبار"^(٢).

٩- قوله تعالى في سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۖ وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥٠، ٥١].

تفسير الآيات الكريمة:

أ- ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾:

يُذَكِّرُ اللهُ عَزَّجَلَّ بآنّه وحده لا شريك له هو الذي أهلك قبيلة عاد الأولى، ويعنى تعالى ذكره بعاد الأولى: عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، وهم الذين

(١) المصدر السابق، ص ٦١.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، الإمام السيوطي، الناشر محمد أمين دمج، بيروت، لبنان (٢٠/٤٦٨).

أهلكهم الله بريح صرصر عاتية، وإياهم عنى بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ [الفجر: ٦، ٧].

ثم قال: وإنما قيل لعاد بن إرم: عاد الأولى؛ لأن بني لقيم بن هزال بن هزيل بن عبيد بن ضد بن عاد الأكبر؛ عاشوا أيام أرسل الله على عاد الأكبر عذابه سكاناً بمكة مع إخوانهم من العمالقة، وكَدَ عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، ولم يكونوا مع قومهم من عاد بأرضهم، فلم يصبهم من العذاب ما أصاب قومهم، وهم عاد الثانية، ثم هلكوا بعد ذلك هذا، ولقد ذهب بعض العلماء إلى أنه أطلق على عاد (عاد الأولى) لكونها من أوائل الأمم، والله أعلم^(١).

يقول الدكتور صلاح الخالدي رَحِمَهُ اللَّهُ: ذهب بعض المؤرخين والمفسرين إلى وجود قبيلتين، كل واحدة حملت اسم عاد، فهناك عاد الأولى، وهناك عاد الثانية. وقالوا: عاد الأولى: هي التي وُجدت بعد قوم نوح مباشرة، وبعث الله لها هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ نبياً، وقصص علينا قصته في القرآن، وهؤلاء أهلكهم الله بالصيحة.

وعاد الثانية: وهي قبيلة ناشئة من عاد الأولى، وبينهما عشرات السنين، وكانت هذه القبيلة بعد إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونبیهم رجل آخر غير (هود)، لم يذكر القرآن اسمه، فلما كذّبوه أهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، التي سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً^(٢).

واستدل هؤلاء على قولهم بدليلين من القرآن:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥﴾ وَثَمُودًا ﴿٦﴾ فَمَا أَتَّبَعِي﴾.

(١) قصص الأنبياء، مصطفى العدوي (١/ ٤٣١).

(٢) قصص الأنبياء، الإمام ابن كثير مع هذا الرأي، ص ٩٩-١٠٢.

وهي عاد التي كانت تسكن في (الأحقاف) والتي نبّئها هود عليه السلام.

الثاني: إخبار القرآن عن عذابين وقعا لعاد: عذاب الصّيحة، وعذاب بالريّح الصّرصر العاتية.

فعاد الأولى: أهلكها الله بالصّيحة، ولهذا قال عن هذا الإهلاك في سورة المؤمنون: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَدِيمِينَ ۖ﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِلسَّعِيرِ ﴿[المؤمنون: ٤٠، ٤١].

وعاد الثانية: أهلكها الله بالريّح، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاهْتَكُوا بَرِيحَ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ مُنْقَلَبَةٌ ۖ﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

ولكنّا نرى أنّها (عاد) واحدة، وهي التي خلقها الله بعد نوح، وكانت تسكن (الأحقاف)، وجعلها أقوى قبيلة في البلاد، وبعث لها هوداً نبياً، فلمّا كفرت به أهلكها الله بالصّيحة التي كانت مقدّمها الصّيحة.

إنّ قوله: ﴿أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ لا يلزم منه وجود عاد الثانية وكلمة ﴿الْأُولَى﴾ في الآية لا يراد بها الأوّلية العددية التاريخية الزمانية، حيث جاء بعدها في التاريخ الثانية والثالثة.

إنّ ﴿الْأُولَى﴾ في الآية تعني: الأوّلية في الدرجة والمنزلة والمستوى والمرتبة، أوّلية بجانبها ما هو أقلّ منها في المستوى والمرتبة.

أي: أنّها الأولى في القوّة والسلطان، في الزمن الذي وجدت فيه، فلم توجد قبيلة أخرى تماثلها أو تساويها في القوّة.

ثم هي عاد الأولى في الوجود في المرحلة الثانية من تاريخ البشرية، هذه المرحلة التي بدأت بعد الطوفان، فهي أول قبيلة كافرة بعد الطوفان أخبر عنها القرآن. وأيضاً هي الأولى في الإهلاك، فهي أول قبيلة أهلكها بعد الطوفان. هذه الأوليّة لعاد بهذا الاعتبار، لا يستلزم منها وجود عاد أخرى ثانية بعدها، والله أعلم.

أمّا الهلاك، فنرى أنّ كلّ الآيات في قصة هود أهلكهم الله بالصيحة، وبالريح الصرصر العاتية.

وكان هلاك عاد على مرحلتين:

المرحلة الأولى: الصيحة التي فوجئوا بها.

والمرحلة الثانية: الريح الصرصر التي سخرها الله عليهم فأبادهم^(١).

ب- ﴿وَتَمُودًا فَمَا أَبْقَى﴾ ٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى ٥٢ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ٥٣ فَغَشَّيَهَا مَا غَشَّى ٥٤ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ٥٥﴾ [النجم: ٥١-٥٥].

- ﴿وَتَمُودًا﴾: قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ أرسله الله إلى ثمود، فكذبوه، فبعث الله إليهم الناقة آية، فعقروها، وكذبوه، فأهلكهم الله تعالى.

- ﴿وَتَمُودًا فَمَا أَبْقَى﴾: منهم أحداً، بل أبادهم عن آخرهم.

- ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى﴾: من هؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم.

(١) القصص القرآني (١/٢٣٥).

- ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾: هم قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١).

- ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾: ويبدو أنّ مادّة (أفك) تعني: السقوط، والقلب، والتغيير، في كثير من اللّغات السامية كالعبريّة، والأكاديّة، والآراميّة، وغيرها.

وهي في اللّغة العربيّة ذات أصل دلاليّ واحد هو: قلب الشيء وصرفه عن وجهه الذي ينبغي أن يكون عليه^(٢).

وقد وردت مادّة (أفك) في القرآن في صيغ اسميّة وفعليّة مختلفة، وكلّها توحى بالشرّ، والقلب، والكذب، وأمّا لفظ ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ فقد ورد في موضع واحد في سورة مكيّة في هذه الآية: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾، وعمّم بعض المفسّرين الدلالة، لتشمل كلّ ما انقلبت مساكنه، ودثرت أماكنه، وخصّصها جمهورهم بديار قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ التي كانت عدّة قرى.

وحكى ابن عطية اتفاق المفسرين على أنّ المؤتفكة: قرية قوم لوط^(٣)، ورأى بعضهم أنّ المؤتفكة: هي سدوم التي كانت أمّ قراهم^(٤).

والسياق يوحي بصحّة ما ذهب إليه الجمهور، إذ عرض القرآن قصص أقوام عاد وثمود وقوم نوح، قبل ذكر المؤتفكة؛ ممّا يدلّ على أنّها مكان غير أماكن هؤلاء الأقوام، وهذا المكان خسفه الله عَزَّوَجَلَّ، وزلزل بأهله الأرض^(٥).

(١) تفسر السعدي، ص ٨٢٢.

(٢) أعلام المكان في القرآن الكريم، يوسف أحمد أبو ريذة، رسالة ماجستير/ جامعة الخليل، ٢٠٠٧م، ص ٣٢.

(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، الإمام السيوطي، الناشر محمد أمين دمج، بيروت، لبنان (١٧٢/٦).

(٤) أعلام المكان في القرآن الكريم، ص ٣٣.

(٥) المصدر السابق نفسه.

هذه الجولة في مصارع الغابرين بعدما جاءتهم النذر، فكذبوا بها منا يكذب المشركون، وهي جولة للتأمل والتفكير والتدبر في قدرة الله ومشيبته وآثارها في الأمم الغابرة.

إنّها جولة سريعة تتألف من وقفة صغيرة على مصرع كلّ أمة ولمسة عنيفة تخزّ الشعور وخزاً، وعاد وثمرود وقوم نوح، يعرفهم قارئ القرآن في مواضع شتى.

والمؤتمكة هي أمة لوط من الإفك والبهتان والضلال، وقد أهواها في الغاشية وخسف بها ﴿فَعَشَّهَا مَا غَشَّى﴾ بهذا التجهيل والتضخيم والتهويل، الذي تتراءى من خلاله سور الدمار والخسف والتنكيل، الذي يشمل كلّ شيء، ويغشاه فلا يُبين.

- ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾؟ فلقد كانت إذن تلك المصارع آلاء الله وأفضالاً: ألم يهلك الشر؟ ألم يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق؟

ألم يترك فيها آيات لمن يتدبر ويعي؟

أليست هذه كلّها آلاء؟

فبأيّ آلاء ربك تتماري؟

الخطاب لكلّ أحد، ولكلّ قلب، ولكلّ من يتدبر صنع الله فيرى النعمة في البلوى^(١).

١٠ - ثمود في سورة الحاقة: قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۚ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۚ﴾ [الحاقة: ٤، ٥].

(١) المصدر السابق نفسه.

جاءت قصّة هود في سورة الحاقة، والحاقة من أسماء يوم القيامة، لأنها تحقُّ وتنزل بالخلق، وتظهر فيها حقائق الأمور ومخبات الصدور، فعظم تعالى شأنها وفخمه بما كرّر من قوله: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٣]، فإنّ لها شأنًا عظيمًا، وهولاً جسيماً، ومن عظمتها أنّ الله أهلك الأمم المكذّبة بها بالعذاب الآجل.

ثمّ ذكر نموذجاً من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو ما أحلّها من العقوبات البليغة بالأمم العاتية، وذكر قوم ثمود وعاد، فقال:

أ- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾:

- ﴿ثَمُودُ﴾؛ وهم القبيلة المشهورة، سكّان الحجر، الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ينهاهم عمّا هم عليه من الشرك، ويأمرهم بالتوحيد، فردّوا دعوته، وكذبوه، وكذبوا ما أخبر به من يوم القيامة، وهي القارعة التي تفرع الخلق بأهوالها، وكذلك عاد الأولى سكّان حضرموت، حين بعث الله إليهم رسوله هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فكذبوه، وأنكروا ما أخبر به من البعث، فأهلك الله الطائفتين بالهلاك العاجل.

ب- ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَهَلَكَوْا بِالطَّاغِيَةِ﴾:

هي الصيحة العظيمة الفظيعة، التي قطّعت قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم؛ فأصبحوا موتى لا يرى إلّا مساكنهم وجثثهم^(١).

وفي هذه الآية ذكر وصف الصيحة دون لفظها: ﴿بِالطَّاغِيَةِ﴾، لأنّ هذا الوصف يفيض بالهول المناسب لجوّ هذه السورة، ولأنّ إيقاع اللفظ يقف مع إيقاف

(١) تفسير السعدي، ص ١١٩٧.

الفاصلة، ويكتفي بهذه الآية الواحدة تطوي ثمود طياً، وتغمرهم غمراً، وتعصف بهم عصفاً، وتطغى عليهم فلا تُبقي لهم ظلاً^(١).

١١ - ثمود في سورة البروج: قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۖ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۚ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۚ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ۚ﴾ [البروج: ١٧-٢٠]:

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّمَا خَصَّ فرعون و ثمود، لأنَّ ثمود في بلاد العرب، وقصَّتْهم عندهم مشهورة، وإن كانوا من المتقدمين، وأمر فرعون كان مشهوراً عند أهل الكتاب وغيرهم، وكان من المتأخرين من الهلاك، فدلَّ بهما على أمثالهما من الهلاك، والله أعلم^(٢).

وقد جمع الله تعالى ثمود مع فرعون لما كان منهم من مظاهر القوَّة والطغيان، فقد جاء في سورة الفجر قوله تعالى: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۖ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۚ﴾ [الفجر: ٩، ١٠]؛ هكذا جمعهما هنا فرعون و ثمود^(٣).

- ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۖ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۚ﴾؛ هي إشارة إلى قصتين طويلتين، ارتكبا إلى المعلوم في أمرهما للمخاطبين، بعدما ورد ذكرهما كثيراً في القرآن الكريم، ويسمِّيهم الجنود، إشارة إلى قوتهم واستعدادهم.

- هل أتاك حديثهم؟

- كيف فعل ربك بهم ما يريد؟

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٦٧٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٩/١٩٦).

(٣) التدبر والبيان (٣٧/١٩٨).

وهما حديثان مختلفان في طبيعتهما، وفي نتائجهما، فأما حديث فرعون: فقد أهلكه الله وجنده ونجّى بني إسرائيل، ومكّن لهم في الأرض فترة، ليحقّق بهم قدرا من قدره، وإرادة من إرادته، وأما حديث ثمود: فقد أهلكه الله بكرة أبيهم، وأنجى صالحاً والقلة معه، حيث لم يكن لهم بعد ذلك ملك، ولا تمكين، إنّما هي مجرد النجاة من القوم الفاسقين.

وهما نموذجان لفعل الإرادة، وتوجّه المشيئة، وصورتان من صور الدعوة إلى الله واحتمالاتها المتوقّعة إلى جانب الاحتمال الثالث الذي وقع في حادث الأخدود، وكلّها يعرضها القرآن للقلة المؤمنة في مكّة، ولكلّ جيل من أجيال المؤمنين، وفي الختام يجيء إيقاعان قويّان جازمان، وفي كلّ منهما تقرير، وكلمة فصل حكم أخير.

- ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾؛ فشأن الكفّار وحقيقة حالهم أنّهم في تكذيب يُمَسُّون به ويصبحون^(١).

وفي تنكير لفظ (تكذيب) يقول الألوسي رَحِمَهُ اللهُ: من الدلالة على تعظيمه وتهويله، فكأنّه قيل ليسوا مثلكم، بل هم أشدّ منهم، فإنّهم غرقى مغمورون في تكذيب عظيم للقرآن الكريم، فهم أولى منهم في استحقاق العذاب. أو كأنّه قيل: ليست جنائهم مجرد عدم التذكّر والاتعاظ بما سمعوا من حديثهم، بل هم في تكذيب عظيم للقرآن الناطق بذلك، وكونه قرآناً من عند الله تعالى، مع وضوح أمره وظهور حاله بالبيانات الباهرة^(٢).

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٨٧٦).

(٢) روح المعاني (٣٠/٩٣).

- ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾؛ يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ أَعْدَائِهِ بِأَنَّهُمْ مُكَذِّبُونَ بِتَوْحِيدِهِ، وَرِسَالَاتِهِ، مَعَ كَوْنِهِمْ فِي قَبْضَتِهِ وَهُوَ مُحِيطٌ بِهِمْ، وَلَا أَسْوَأَ حَالاً مِمَّنْ عَادَى مِنْ هُوَ فِي قَبْضَتِهِ، وَمَنْ هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَبِكُلِّ اعْتِبَارٍ فَقَالَ: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۖ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾؛ فهذا أعجب عجب مِمَّنْ كَفَرَ، بَلْ هُوَ مُحِيطٌ بِهِ وَآخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ^(١).



(١) التدبر والبيان (٣٧/١٩٩).



المبحث الثالث: أسباب هلاك قوم ثمود

أولاً: الكفر بالله عَزَّوَجَلَّ	الحادي عشر: الطغيان
ثانياً: الشرك بالله	الثاني عشر: بَطْر النعمة
ثالثاً: التكذيب	الثالث عشر: الخطايا والذنوب
رابعاً: الظلم	الرابع عشر: انتهاك حُرَمَاتِ الله
خامساً: استعجال العذاب	الخامس عشر: سُنَّةُ الإِمْلَاء والاستدراج
سادساً: الإسراف والتَّرف	السادس عشر: الاشتغال بالدنيا عن الآخرة
سابعاً: الاستكبار	السابع عشر: الاستبدال
ثامناً: الإجرام	الثامن عشر: سُنَّةُ الأَجَلِ الجماعيِّ
تاسعاً: المكر	التاسع عشر: سُنَّةُ الهلاك
عاشراً: الفساد	العشرون: سُنَّةُ الخسران
	الحادي والعشرون: الغفلة عن أسباب الهلاك

إِنَّ صَالِحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء بعد هود عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وبعد أن انحرفت الإنسانية عن توحيد الله عَزَّجَلَّ وإفراده بالعبادة، وبعد أن تطوّر البشر في حياتهم المادية وضعفوا وأخطأوا السبيل في قيمهم الروحية، ومعرفتهم بخالقهم العظيم، فأرسل الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ فأقام على الكافرين والمشركين والظالمين حجة الله عليهم ومضت سنت الله في زوالهم واستئصالهم، ومن أسباب عقاب الله تعالى لقوم ثمود أسباب عديدة منها:

أولاً: الكفر بالله عَزَّجَلَّ:

إِنَّ من أهم أسباب العقاب الإلهي، وهلاك الحضارة التي أنشأتها قبيلة ثمود، الكفر بالله وأصل الكفر في اللغة: الستر والتغطية، وقد يسمّى الكافر كافراً لآثمه غطى بالكفر ما يجب أن يكون عليه من الإيمان، والكفر ضد الإيمان، الذي هو التصديق والاعتقاد والإقرار بوحدانية الله، وبربوبيته وألوهيته، والإيمان بالملائكة وشريعة الله ورسالة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، واليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره من الله تعالى.

وقد رفض قوم ثمود دعوة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ للتوحيد ورسالات الله، وكفروا بها وحاربوها، ووصفهم الله بالكفر كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿[هود: ٦٨].

إِنَّ وصف قوم ثمود عاد بالكفر يعني أنّهم في تلك الحقبة التاريخية كانوا منفصلين عن الدين وبعيدين عن تكاليف الشريعة، ومنهج الله عَزَّجَلَّ وهذا يفضي إلى الاستكبار والظلم والانحلال الأخلاقي، فقوم ثمود مضت فيهم سنة الله، بأسباب عديدة منها: الكفر بالله عَزَّجَلَّ فوق عليهم عذابه بالصيحة، والرجفة والصاعقة والطاغية.

ثانياً: الشرك بالله:

أسباب هلاك الأمم السابقة متعددة ومتنوعة، إلا أن أخطرها وأعظمها على الإطلاق هو الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا، وبسببه ورد كثير من الأمم موارد الهلاك، واستحقوا العقوبة في العاجلة قبل الآخرة، وصاروا عبرة وعظة لمن بعدهم.

وهناك آيات كثيرة تتحدث بالتفصيل عن هذه الآفة الخطيرة لدى الأمم الهالكة، وكيف أشربت في قلوبهم، وعاندوا وكابروا من أجلها، وكذبوا الرسل والأنبياء في سبيل التمسك بها، والبقاء عليها من الألفاظ العامة التي يندرج تحتها الشرك وغيره من الذنوب؛ كالظلم والكفر والإجرام ونحوها. وهناك آيات أخرى تتحدث عن أمة بعينها، أو عن أمة تفضل شركهم وإصرارهم عليه، ودعوة رسلهم إلى نبذ واجتنابه، وتذكر هذه الآيات ضمن الأسباب التي من أجلها أهلك تلك الأمم المعينة، أو الأمم المحددة، وكل ذلك بالتصريح بلفظ الشرك أو بما يدل عليه^(١)، ومن بين تلك الأمم: ثمود، فقد كانت أمة مشركة تعبد الأصنام، وتجدد تفرّد الله سُبْحَانَهُ وَعَالَىٰ عِبَادَتِهِ، شأنها في ذلك شأن من كان قبلها من الأمم كقوم نوح، وقوم هود، فكان خلاصة دعوة صالح عَلَيْهِ السَّلَام دعوتهم إلى عبادة الله وحده، وقد ورد ذلك في عدة مواضع في القرآن الكريم، وقد ورد عن شركهم وعبادتهم للأصنام قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّ لَنَا فِي شِكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ [هود: ٦٢]؛ فقد قالوا للصالح عَلَيْهِ السَّلَام مظهرين التحسر وخيبة الرجاء ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾؛ أي كنا نرجو أن تكون فينا

(١) أسباب هلاك الأمم السالفة كما وردت في القرآن، سعيد محمد بابا سيلا، دار ابن الجوزي،

سيِّداً، لما كنّا نرى منك من دلائل السداد ومخايل الرشاد^(١)، قيل هذا القول العجيب الذي جئت به، أفأنت تدعوننا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي توارثنا عبادتها أباً عن جد، ثمّ يبنوا موقفهم من الدعوة إلى التوحيد بأسلوب المتهكّم في صورة المنصف للحق، المشفق على صالح، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَغِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾؛ قال الفخر الرازي: والشكّ: هو أن يبقى الإنسان متوقفاً بين النفي والإثبات، و(المريب) هو الذي يظنّ به السوء، فقال: ﴿وَإِنَّا لَغِي شَكِّ﴾؛ يعني أنّه لم يترجّح في اعتقادهم صحّة قوله. ﴿مُرِيبٌ﴾؛ يعني أنّه ترجّح في اعتقادهم فساد قوله، وهذا مبالغة في تزييف كلامه^(٢).

وفي النهاية قضى الله تعالى بهلاك أولئك المشركين، وهي سنّة فيمن أشرك به، وحادّ عن منهج رُسله، وانهدمت أركان شرك قوم ثمود بالرجفة والصيحة والصاعقة (كما بينا).

ثالثاً: التكذيب:

أخبر الله سبحانه وتعالى عن هلاك المكذّبين من الأمم السابقة في آيات كثيرة، وقد دلّ بعض تلك الآيات على مطلق التكذيب الذي كان سبب هلاكهم، كقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]. وكقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ﴾ [الملك: ١٨].

(١) تفسير أبي مسعود (٣/ ٢٦٣).

(٢) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ١٣٦.

ففي هذه الآيات ونظائرها أبهم التكذيب، فلم يُذكر ما تعلّق به تكذيبهم، غير أنّ آيات أخرى كثيرة وضّحت ما أبهم في هذه الآيات وفصّلت ما أجمل^(١) فيها وتتبع تلك الآيات تبين أنّ تكذيب الهالكين ذكر مقروناً إمّا بالرسل أو بالآيات، أو بالبعث والنشور^(٢).

أ- (تكذيب الرسل):

ركّز القرآن الكريم في حديثه عن قصص الأمم الهالكة على هذا الجانب من الصراع بين أهل الحقّ وأهل الباطل، وقد وردت آيات كثيرة تدلّ على أنّ تكذيب الرسل كان سبباً في هلاك الأمم السالفة، وهذه الآيات واضحة الدلالة، وصريحة في العلاقة بين تكذيب الرسل وبين ما حاق بهم من الهلاك والدمار^(٣).

وهناك آيات ورد فيها تسمية أمم بأعينها، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ۖ وَقَوْمٌ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۚ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۚ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝﴾ [الحج: ٤٢-٤٤].

وهذه الآيات ونظائرها واردة في سياق تسليّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمّا يلاقه من قومه من التكذيب والإعراض، فالله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يَقصّ على نبيه قصص المكذّبين من الأمم السالفة وما واجهوا به رسلهم من التكذيب وما صار إليه أمرهم من الهلاك، وفي ذلك تخفيف عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمّا يجد في نفسه من الألم والأسى بسبب تكذيب هؤلاء الكفرة، فهو ليس بدعاً من الرسل في التكذيب، بل كُذّب

(١) المصدر السابق، ص ١٨٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٠.

(٣) المصدر السابق، ص ١٩٢.

قبله رسل، وفيه إنذار وتحذير للمكذّبين من قومه، من أن يكون مصيرهم كمصير أسلافهم الذين كذبوا رسله فأخذهم الله بعاجل العذاب^(١)، فقد جعل الله تعالى علّة هلاكهم هو تكذيبهم بالرسل^(٢).

وقد استهلّ القرآن الكريم قصّة ثمود ببيان تكذيبهم نبيّهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في عدّة مواضع:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسِلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ [الشمس: ١١].

وختمت قصّتهم بسورة الشمس: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤].

ومضت سنة الله في المكذّبين لصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ب- (التكذيب بالآيات):

التكذيب بالآيات من أبرز أسباب هلاك الأمم، وأكثرها ذكراً في ثنايا قصص السالفين، فقلّما ترد قصّة فيها ذكر أمة إلا ويذكر التكذيب بالآيات ضمن الشنائع التي ارتكبوها، واستحقوا؛ بسببها الهلاك والدمار، والآيات التي ورد فيها ذكر التكذيب بالآيات واضحة وصريحة في السببيّة، ولا تحتاج إلى استنباط عميق

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

أو استنتاج دقيق لمعرفة تعلق الهلاك بها، وإن كان بعض هذه الآيات أوضح من بعض من حيث الدلالة على السببية^(١).

يقول سُبحَانَهُ وَتَعَالَى في قوم ثمود، في بيان موقفهم من الآيات التي جاءهم بها صالح ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ۝ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝﴾ [الحجر: ٨٠، ٨١]؛ أي: وأريناهم أدلتنا وحججنا على حقيقة ما بعثنا به إليهم رسولنا صالحاً^(٢).

ج- (التكذيب بالبعث والنشور):

والبعث بعد الموت، وما يعقبه من الحساب بعد من مسائل الأصول التي نازع فيها المكذبون رسلهم، فقد استبعدوا، وأحالوا أن يحيي الله الأموات بعد تحللها، ومصيرها تراباً وعظاماً، وترتب على استبعادهم للبعث والنشور إنكارهم لما بعده من الحساب والجزاء، والنعيم والعذاب، والإيمان بهذه الأمور من أعظم البواعث على امتثال أوامر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، واجتناب نواهيه^(٣).

وقد ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ تكذيب ثمود (بالقارعة)، أي: يوم القيامة: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝﴾ [الحاقة: ٤، ٥].

وسمى يوم القيامة (بالقارعة)، لأنها تفرع الخلق يوم القيامة بأهوالها.

رابعاً: الظلم:

يُعدّ الظلم من أكبر أسباب سقوط الحضارات، وله مفهوم شامل عريض يؤدي إلى فقدان التوازن في كافة مجالات الحياة، وعلاقة الإنسان مع نفسه ومع الله

(١) المصدر السابق، ص ٢٦٤.

(٢) تفسير الطبري نقلاً عن أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ٢٧٥.

(٣) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ٣٠١.

ومع غيره، وعن هذا تنبثق ظواهر نفسية واجتماعية واقتصادية مرضية، وتصورات فاسدة عن الوجود كله، فيعم الفساد الحياة الإنسانية بأسرها^(١).

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿وكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾

[هود: ١٠٢].

إن قوم ثمود استفحل فيهم الظلم، وأصبح ظاهراً على مستوى المجتمع، وارتكبه بكل أنواعه، واستمروا على ذلك، وقد وصفهم الله تعالى بالظلم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾

[الإسراء: ٥٩].

لقد نزل العقاب الرباني بقوم ثمود بسبب الظلم، وتحقق فيهم قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْلِكَ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١].

إن الإهلاك بسبب الظلم من سنن الله في القرى، والمجتمعات، والشعوب، والأمم، والدول، والحضارات.

(١) سنن الله في قيام الحضارات، محمد هيثور، دار الوفاء، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ -

لقد وقع قوم ثمود في الظلم، فأشركوا بالله، إذ يقتضي العدل معرفة توحيده، وأحكامه وإفراده بالعبادة، والإشراك بالله والكفر به من أعلى أنواع الظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]^(١).

خامساً: استعجال العذاب:

ومن أسباب العقاب الإلهي للأمم - ومنهم قوم ثمود - استعجالهم العذاب، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ٧٠. قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَظْبٌ ۖ أُنَجِّدُ لَوْنِي فِي سَمَاءٍ سَمَّيْتُهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۖ فَاتَّظَرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠، ٧١].

وقال تعالى: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ١٥٤. قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۖ ١٥٥. فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ۖ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤-١٥٨].

سادساً: الإسراف والترف:

ومن أسباب العقاب الإلهي: الإسراف، فقد نهى صالح عَلَيْهِ السَّلَام قومه عن طاعة المسرفين الذين اشتهروا بالفساد في الأرض، والابتعاد عن الإصلاح، ولكنهم لم يستجيبوا له، وخالفوا أمره، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۖ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ١٥٦. قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥١-١٥٣].

(١) أسباب هلاك الأمم، عادل الشوربجي، ص ٢٧.

وإن السرف في اللغة ضد الاعتدال، والإسراف في النفقة هو التبذير. فتجاوز الاعتدال في النفقة أو في الشهوة، أو في المتاع، يقع الإنسان في الفساد، ويتعد عن الإصلاح، ويكون ذلك سبباً في العقاب، وكانت حياتهم في ترف من العيش فبنوا البيوت في الجبال، والقصور في السهول، وأكثروا من النبات والزروع، ولم يلتزموا بشرع الله، وكذبوا رسوله، قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ١١٧، ١١٦. ووقعت سنة الله في المسرفين والمترفين والمجرمين والظالمين. قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] (١).

سابعاً: الاستكبار:

من أسباب هلاك قوم ثمود الاستكبار، فقد بطروا الحق، واحتقروا الذين آمنوا، وطلبوا الكبر من غير استحقاق، واستكبروا على الله سبحانه وتعالى بالترفع عن عبادته، وعن الإذعان لأوامره ونواهيه، وتكبروا على صالح عليه السلام، فكان الاستكبار بأنواعه سبباً في هلاكهم، وقد ورد وصفهم بالاستكبار في عدة آيات منها، آية بلفظ الاستكبار في وصف الملائكة منهم، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ [الأعراف: ٧٥]، فنزل عليهم عقاب الله وعذابه، ومضت فيهم سنته في المستكبرين.

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، شريف الخطيب، مكتبة الرشد، الدار العثمانية، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م (٢/ ٣٣٢).

إنَّ الاستكبار والتعالي من أبرز أسباب سقوط الحضارات التي ذكرت في القرآن، حين وصل أهلها إلى درجة عالية من اليقين بتفوقهم، وتمييزهم على من عداهم من البشر، وبأنَّ ما يفعلونه من أشياء تجافي الدين والمنطق أو الفطرة أو العقل، أو محاولة فهم ما يطرح عليهم من أشياء جديدة تدعو إلى عبادة الله عَزَّوَجَلَّ. وهذا الأمر يُعرِّض الحضارات للضعف والتحلُّل أو الهلاك والتدمير، إذ إنَّها حينذاك لا تسمح لنفسها بإعادة تصويب المسار والرجوع إلى الحق^(١).

فالاستكبار منع قوم ثمود من الانقياد لدعوة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وهدايات الله التي جاء بها، فكانت العقوبات ماحقة وعظيمة وجسيمة، وإنَّ الاستكبار من الجرائم التي عاقب الله عليها قوم ثمود.

ثامناً: الإِجرام:

هو شبيه بالظلم، وهو يعمُّ الشرك، وغيره من المعاصي، والشرك أبشع أنواع الإِجرام وأشنعها، فالمشرك أجرم بحقِّ ربِّه لأنَّه جعل من لا يستحقُّ العبادة معبوداً مع من لا يستحقُّ العبادة أحد سواه، وأجرم في حقِّ نفسه فأذلَّها لغير الله، وأوردها موارد الردى في الدنيا، وأحلَّها دار البوار في الأخرى، وقد ذكر الفيروز آبادي ستّة معان في الجرم فجعل الشرك أولها ما نصَّه في كلامه على معان الجرم: الأوّل: الجرم بمعنى الشرك، والمجرم: المشرك^(٢).

(١) التداول الحضاري في القرآن الكريم، فرج علام، دار روابط للنشر وتقنية المعلومات ودار الشقري للنشر، ٢٠١٨م، ص ١٤٢.

(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٦م (٢/٢٥٥).

وقال تعالى في هلاك مَنْ هلك من الأمم الغابرة: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

فتلك العاقبة السيئة لم يصيروا إليها إلا بسبب انصافهم بصفة الإجرام ومن أشنع أنواعه الشرك بالله عزَّجَل^(١).

ومن جرائم قوم ثمود -بعد الشرك بالله- إنكارهم نبوة صالح عَلَيْهِ السَّلَام. ومن جرائمهم تطيّرهم بنبي الله، وبمن آمن معه. ومن جرائمهم استحبابهم الضلال على الهداية، ومن جرائمهم محاولتهم صدّ المؤمنين عن إيمانهم، وتهديدهم. ومن جرائمهم أنهم لا يحبّون الناصحين. ومن جرائمهم قتلهم الناقة التي أرسلها كآية على رسالة صالح عَلَيْهِ السَّلَام. وغير ذلك من الجرائم التي استحقّوا عليها عقوبة الله بالمجرمين.

تاسعاً: المكر:

إنّ ما تعرّض له صالح عَلَيْهِ السَّلَام أمر عظيم من مكر الكافرين به، وقد قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكْرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]. وقد كان المكر صفة بارزة في قوم ثمود، واستخدموا كافّة وسائل المكر وأساليبه لصدّ الناس عن دعوة التوحيد والاستجابة لعبادة الله، وآثروا الشبهات والاتهامات الباطلة، ووضعوا العوائق والعراقيل أمام دعوته، وقد بيّنا ذلك في الصفحات السابقة.

(١) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ١١٤.

لقد دَبَّرُوا الحِيلَ، وَنَصَبُوا الحَبَائِلَ، لِيَمَكُرُوا بِصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَبْطَلَهَا اللهُ، وَجَعَلَهَا سَبِيلًا لِهَلاَكِهِمْ، وَأَخَذَ المَاكِرِينَ بِعِقَابِ اللهِ سَنَةً إِلَهِيَّةً ثَابِتَةً مَطْرَدَةً إِلَى أَنْ يَرِثَ اللهُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا^(١).

إِذْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمَكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمَكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

ولقد بَيَّنَّ في آية أخرى مَصِيرَ هؤلاء الكافرين الماكرين، حيث قال تعالى: ﴿مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

وإنَّ سَنَةَ اللهِ ماضية في الماكرين، لا تتغير وتبَدَّل. ﴿وَمَكَرَ السَّيِّئُ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، وهو حصيلة لاجتماع تدبير العقل البشري المخادع والخفي مع حقيقة الصراع الإنساني المتأصل، وهدفه إيقاع الضرر بالآخرين، بمختلف الوسائل المتاحة، دون رادع أخلاقي أو قانوني. وقد تحدثت الآيات القرآنية على المكر السيِّء، وحذرت منه، مؤكدة على أنَّ الأمم والمجتمعات والدول لا يمكن أن تزدهر وتُبنى معتمدةً على المكر السيِّء^(٢).

- قال تعالى: ﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكَرَ السَّيِّئُ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

- وقال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢].

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (٢/ ٣٣٢).

(٢) علم القرآن التنموي، جمال حسن الحمصي، جمعية لحفظ القرآن الكريم، ٢٠١٩م، ص ٨٣.

- ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].
- ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].
- ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

عاشراً: الفساد:

إن قوم ثمود وصفهم الله بالفساد في سياق ذكر قوم عاد وفرعون، قال تعالى: ﴿لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ٦-١٤].

ولقد ذكر الله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾ [الفجر: ١١، ١٢]؛ فذكر الله الأقوام الذين اشتهروا بالفساد العقدي والأخلاقي والاجتماعي والسياسي والديني، وتمثل ذلك الفساد في (الملأ) وفي عموم الشعب، وإن كانت القيادة للملأ التي قادت تلك الأقوام للفساد، فمضت فيهم سنة الله في نزول العذاب والعقاب الإلهي.

وإن الفساد في الأرض لا يتحقق إلا بسبب أفعال البشر، وسلوكياتهم على ظهرها، ولا يقع البلاء والشدة إلا بسبب تلك المفاسد، ومهما اختلفت الأمم في الزمان أو المكان أو البيئة إلا أنها تشترك في عدد من السمات العامة^(١).

إن الأمم الفاسدة تلتقي في أحوالها نعوت واحدة؛ قسوة لا ترق لضعف، وجحود لا يكثرث بوعظ، وعكوف على الدنيا لا يهتم لما بعدها، ونسيان لله

(١) التداول الحضاري في القرآن، ص ١٣٤.

لا يبالي بحقه، وبقاء الأمم بهذه المثابة بلاءٌ على العالم، وعلى العمران، وعلى المثل العليا، وضربات القدر القاصمة عندما تنزل بها تكون كحكم الإعدام عندما ينفذ في مجرم أثيم^(١).

إنَّ قصّة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم بيّنت لنا مظاهر الفساد التي وقع فيها قومه، ومنها:

- عدم تقوى الله، وعدم طاعة نبيّ الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في تعاليمه.
- الخضوع لممارسات الأغنياء المرففين، وتقليدهم في أساليب حياتهم.
- عدم التفات قوم ثمود لمن سبقهم من الأمم، والاستفادة من الدروس والعبر.
- تجاوزهم الحدّ المقبول في ممارسة الفساد: ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ؛ (تعتوا): من عاث، وهو أشدّ الفساد، فقليل لهم لا يتمادوا في الفساد حال فسادكم، لأنّهم كانوا متمادين فيه^(٢).
- ولقد ارتكبت ثمود صورا عديدة من الفساد العقائدي والأخلاقي والاجتماعي، والتعبدي... إلخ، فمضت سنة الله فيهم. فالفساد تغلغل في الملاء المترفين، وتابعتهم العامة، فنزل عليهم العذاب الربّاني^(٣)، وزالت تلك الحضارة الماديّة المحصّنة البعيدة عن توحيد الله وإفراده بالعبادة، والقيم الأخلاقيّة والروحيّة.

(١) نظرات في القرآن، محمد الغزالي، نهضة مصر، ٢٠٠٥م، ص ٨٩.

(٢) الفساد في الأرض وموقف الإسلام منه، أسامة كباره، دار النهضة العربية، ٢٠٠٩م، ص ٨٣.

(٣) قصص القرآن قراءة قرآنية، عمرو الشاعر، ص ١٤٤.

الحادي عشر: الطغيان:

إِنَّ سُنَّةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الطَّغَاةِ أَنْزَالَ الْعِقَابَ فِيهِمْ فِي الدُّنْيَا، فَهِيَ سُنَّةٌ مَاضِيَةٌ لَا تَتَخَلَّفُ، جَرَتْ عَلَى الطَّغَاةِ السَّابِقِينَ، وَتَسْتَجِرِي عَلَى الْحَاضِرِينَ وَالْقَادِمِينَ، فَلَنْ يَفْلِتَ أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، كَمَا لَا يَفْلِتُ أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنْ عِقَابِ الْآخِرَةِ^(١).

إِنَّ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةَ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي سُورَةِ الْفَجْرِ وَضَّحَتْ أَنَّ ثَمُودَ مِنْ ضَمَنِ مَنْ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ مَعَ عَادَ وَفِرْعَوْنَ، فَقَدْ جَاءَ فِيهَا: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۖ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ۖ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۖ﴾ [الفجر: ١١-١٣]، وَفِي تَفْسِيرِ الطَّبْرِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ ۖ﴾ [الفجر: ١٤]؛ أَيِ يَرْصُدُ عَمَلَ كُلِّ إِنْسَانٍ حَتَّى يُجَازِيَهُ بِهِ^(٢).

لَقَدْ كَانَ طَغْيَانُ ثَمُودَ نَاجِماً عَنْ سَبَبٍ جَوْهَرِيٍّ؛ وَهُوَ وَقُوعُهُمْ فِي الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ وَالظُّلْمِ وَالْإِجْرَامِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۖ﴾ [الشمس: ١١]؛ أَيِ: بِطَغْيَانِهَا، فَالْحَامِلُ لَهُمْ عَلَى تَكْذِيبِ نَبِيِّهِمْ صَالِحِ طَغْيَانُ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ وَالْإِجْرَامِ عَلَى نَفْسِهِمْ فَأَوْقَعَهُمْ ذَلِكَ فِي ظُلُمَاتِ الشُّرُورِ الْمُتَنَوِّعَةِ الَّتِي كَانَتْ مِنْ أَسْبَابِ زَوَالِهِمْ، وَعِقَابُ اللَّهِ لَهُمْ.

الثاني عشر: بَطَرُ النِّعْمَةِ:

وَهُوَ الطَّغْيَانُ عِنْدَ النِّعْمَةِ، وَعَدَمُ الْقِيَامِ بِشُكْرِهَا، وَيُطْلَقُ أَيْضاً عَلَى بَطَرِ النِّعْمَةِ: كُفْرَانِ النِّعْمَةِ، أَيِ جُحُودِ النِّعْمَةِ^(٣). وَمِنْ سُنَّتِهِ تَعَالَى فِي الْبَطَرِ تَخْرِيبُ دِيَارِهِمْ

(١) السنن الإلهية، عبد الكريم زيدان، ص ١٩٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٠٠.

وإهلاكهم، وعندما لا يستجيبون لدعوة الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

إنَّ إنعام الله عَزَّجَلَّ على الأمم الكافرة يجري وفق سُنَّةِ إلهية تتكرَّر في كلِّ أمة بعث الله تعالى إليها رسولاً فكذبته، وتتراوح مقتضياتها بين النعمة والشدة لعلَّهم يرجعون. وقد جرت عادة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بعد دعوة أقوامهم إلى التوحيد أن يُذكِّروهم بنعم الله تعالى عليهم، ودعوتهم إلى شكر المنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد خصَّ الله تعالى بعض الأمم ببعض النعم، فكلَّ نبيٍّ يُذكِّر بما خصَّ الله عَزَّجَلَّ قومه، دون إغفال النعم العامة الظاهرة^(١).

وكانت ثمود على شاكلة عاد في الحال والمال؛ أغدق الله تعالى عليهم النعم، فكانوا في رغد من العيش مع التمكين في الأرض، وكان نبيُّهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ يُذكِّرهم بتلك النعم في مستهلِّ دعوته ويُعرِّفهم بالمنعم جلَّ علاه، ويرشدهم إلى طريق الشكر، داعياً إياهم إلى عبادة الله وحده، ونبد عبادة الأوثان، وقد بيَّن بعض جوانب هذه الأعمار في الأرض محدِّراً إياهم من البطر، بقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَاتَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وهم عندما اتخذوا السهول قصوراً، ونحتوا الجبال بيوتاً. لم يفعلوا ذلك على جهة التمتع الحلال بالنعم، والاكتفاء بقدر الحاجة إلى السكن، بل فعلوا ذلك من

(١) السنن الاجتماعية في القرآن، د. محمد أمحزون (٣/ ٤٠٥).

منطلق الإسراف والبطر وكفران النعمة. مع الاغترار بما شيدوه من صروح منيفة وبيوت حصينة، كحال من يأمل الخلود في هذه الدار^(١).

ولذلك أنكر عليهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا المسلك، وخوفهم عاقبة إسرافهم وأشرهم، لكنهم لم يستجيبوا وقابلوا نعم الله بالكفران والجحود، فمضت فيهم سنة الله، وتحولت هذه النعم نقماً جلبت الهلاك على أهلها، وأصبحوا كأن لم ينعموا فيها يوماً من الأيام^(٢).

الثالث عشر: الخطايا والذنوب:

ومن أسباب العقاب الإلهي لقوم ثمود: وقوعهم في المعاصي، وارتكابهم الذنوب والخطايا. والذنوب والخطايا تعم جميع ما ذكرت من أسباب هلاك الأمم السابقة وغيرها، كالكفر والشرك، والظلم، والإجرام والاستكبار، والبطر.. لأن كل مخالفة لأمر الله ذنب يعاقب الله عليه، وإذا تجمعت الخطايا والذنوب على أمة فإن هذه الأمة تُعاقب ويحل بها الهلاك^(٣)، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُنَمِكْ لَّهُمْ وَاَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

إنّ الذنوب سبب الانتقام وزوال النعم^(٤). قال تعالى: ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤].

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ٣٧٨.

(٣) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (٣٣٧/٢).

(٤) تفسير المنار (٣٠٨/٧ - ٣٠٩).

- ﴿بَذَنِيهِمْ﴾ [الشمس: ١٤]؛ لبيان أنَّ ما أصابهم كان بسبب ذنوبهم، وفيها إنذار وتحذير من خطورة الذنوب.

الرابع عشر: انتهاك حُرَمَاتِ الله:

انتَهَك قوم ثمود حُرَمَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ بعدما طلبوا من صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ آيةَ بَيِّنَةٍ على رسالته ودعوته، وذكر المفسِّرون أنَّهم اقترحوا على صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ نَوْعَ الآيَةِ، وَكَيْفِيَّةَ خُرُوجِهَا وَصِفَتَهَا، فَطَلَبُوا نَاقَةً يُخْرِجُهَا أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ مِنْ صَخْرَةٍ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ قَرِيَّتِهِمْ، عَلَى أَنْ يَكُونَ مِنْ صِفَتِهَا كَيْتٌ وَكَيْتٌ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ صَالِحُ الْعَهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ عَلَى أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ إِنْ آتَاهُمْ بِمَا طَلَبُوا، فَلَمَّا أَتَوْهُ مَوَاقِيقَهُمْ وَعُهُودَهُمْ لَجَأَ إِلَى رَبِّهِ فَدَعَاهُ أَنْ يُؤْتِيَ قَوْمَهُ مَا طَلَبُوا طَمَعًا فِي إِيْمَانِهِمْ. وَاسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ، فَأَخْرَجَ لَهُمُ النَّاقَةَ مِنَ الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ كَمَا طَلَبُوا، وَذَلِكَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، مُخْرِجَ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَمُخْرِجَ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ، وَهُوَ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَإِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(١).

وهكذا خرجت الناقة بهذه الكيفية العجيبة الخارقة للعادة، والتي يعلم كلُّ عاقل أنَّها خارجة عن قدرة البشر، ورآها القوم بأمِّ أَعْيُنِهِمْ، وَعِنْدَئِذٍ طَلَبَ مِنْهُمْ صَالِحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِدَّةَ أُمُور:

- الْإِيْمَانُ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَبِعِبَادَتِهِ، وَبِذِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ، وَالتَّصَدِيقُ بِرِسَالَةِ صَالِحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لَا سِيَّمَا أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ أَعْطَوْهُ الْمَوَاقِيقَ عَلَى ذَلِكَ.

- تَقْسِيمُ الْمَاءِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّاقَةِ، فَيَوْمَ لَهُمْ، وَلِلْنَّاقَةِ يَوْمٌ، وَفِي يَوْمِهِمْ لَا تَرِدُ النَّاقَةُ الْمَاءَ فَيَأْخُذُونَ مَا يَكْفِيهِمْ وَيَكْفِي أَنْعَامَهُمْ، وَفِي يَوْمٍ النَّاقَةُ لَا يَرُدُّونَ الْمَاءَ.

(١) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ٤٠٠.

- حذرهم من المساس بالناقة بأيّ سوء، وكان تحذير صالح فيما يتعلق بهذا الأمر تحذيراً صارماً، لا لبس فيه ولا غموض، فمساس الناقة بأيّ سوء يستدعي العذاب العاجل^(١).

ومع وضوح الحجّة، وظهور البرهان، خسرت ثمود الامتحان، فاستجبوا العمى على الهدى، ونكثوا العهود، وأصرّوا على الكفر والتكذيب، وكانوا بذلك قد استوفوا سبباً لجلب العذاب العاجل، ولم يقف أمرهم عند هذا الحدّ، بل كانوا -لشدة شقاوتهم- كمن يُهرع إلى حتفه، فأمعنوا في العتوّ والعناد، وضاقوا ذرعاً بالناقة ويوم شربها، وكُبر عليهم رؤيتها تجوب وذيانهم، وحقولهم؛ شاهدة على قدرة الله، وعلى صدق صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأقدموا على ارتكاب المنكر العظيم الذي طالما حذرهم منه صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وانتهكوا حرمة الله، وعقروا الناقة، فاستوجبوا العذاب، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَنْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفُ فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨].

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَلِكَ وَعَدُ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤]. وإن الربط بالفاء بين عقر الناقة وهلاك القوم في هذه الآيات كلّها تدلّ دلالة واضحة على أنّ عقرها كان السبب المباشر لهلاكهم، وإن كانوا قد أتوا أسباباً أخرى للهلاك.

(١) المصدر السابق، ص ٤٠١.

والعقر: ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف^(١). ولمّا كان العقر سبباً للنحر، أُطلق العقر عليه من باب إطلاق اسم المسبّب على السبب^(٢).

وقد أسند العقر إلى جميعهم مع أنّ الذي باشره شخص واحد منهم، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوِيهَا ۖ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١١، ١٢]، وذلك لأنّ هذا الذي باشره عقر الناقة، وإنّما فعل ما فعل برضاهم^(٣)، قال الطبريّ رَحِمَهُ اللهُ: "وعن رضا جميعهم قتلها قاتلها، وعقرها من عقرها، ولذلك نسب التكذيب والعقر إلى جميعهم"^(٤).

ولم يكن نصيب عامّة ثمود من العقر مجرّد الرضا فحسب، بل كان مع ذلك تحريض وتحضيض العاقر الناقة ليقدم على عقرها، قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩].

وقد ذكرنا في الصفحات الماضية أنّ أشقى ثمود الذي عقر الناقة وهو قدار بن سالف^(٥)، وكان أحد التسعة المفسدين الذين قال الله عنهم: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨].

ولعلّ هذا الشقيّ قد ظنّ أنّ منعه في قومه، تحميه من العذاب الموعود به على عقر الناقة، فارتكب جريمته في نشوة المتكبر العاتي، ولم يدرك حرمة من انتهك؛ لقد انتهك حرمة الجبار العزيز، الذي لا يُغالب، فجنى على نفسه وعلى قومه

(١) لسان العرب (٥/٣٠٣٥).

(٢) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ٤٠٣.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) تفسير الطبريّ، نقلاً عن أسباب هلاك الأمم، ص ٤٠٣.

(٥) تفسير ابن كثير (٤/٥٥٢).

الذين مالؤوه، فأتاهم من الله ما لا قِبَلَ لهم ولا لأحد به، صيحةٌ واحدة قطعَت نياط قلوبهم، وتركتهم أجساداً بلا أرواح^(١).

الخامس عشر: سُنَّةُ الإِمْلاء والاستدراج:

إنَّ إِملاءَ الله عَزَّجَلَّ للأمم الكافرة، واستدراجهم لإهلاكهم، يجري وفق سُنَّةِ إلهية، تتكرَّر في كلِّ أمة بعث الله تعالى إليها رسولاً، فكذَّبته، بل هي السُنَّةُ الجارية التي في كلِّ أمم الأرض التي تكفر بأنعم الله تعالى، وجحدت كتبه ورسله، ولم تقبل شرعه وحكمه دستوراً للحياة^(٢).

والظاهر من الآيات الكريمة أنَّ الإِمْلاء يأتي مباشرة بعد التكذيب، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢].

وأما الأخذ، فيأتي على المدى والتراخي، لقوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرِيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَّا الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

وإذا علمنا أنَّ معاني الإِمْلاء للكفار التمكين لهم في الأرض، إذ إنَّ التكذيب يصدر عادة من الطغاة الممكَّنين في الأرض، فبسبب ذلك التمكين لم نعد نعجب أن يفتح الله تعالى أبواب كلِّ شيء على الذين نسوا ما ذُكِّروا به، فإنَّ هذا هو عين الإِمْلاء الذي تحدَّث به آيات كثيرة في كتاب الله عَزَّجَلَّ^(٣)، وفتح أبواب النعم على

(١) أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ٤٠٤.

(٢) السنن الاجتماعية في القرآن الكريم (٣/ ٤٨٥).

(٣) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، محمد قطب، دار الوطن، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ص ٥٦.

الأمم مع إصرارهم على الكفر والتكذيب إنَّما كان ويكون استدراجاً لهم إلى الهلاك أو الاضمحلال والسقوط.

وهذا ما شهدناه في الأقوام والأمم (قديماً وحديثاً)، ومن بينهم قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد وقعوا في سُنَّة الإِمْلاء والاستدراج، فقد كانوا في رغد من العيش مع التمكين لهم في الأرض، وقد بيَّن لهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بعض جوانب هذا التمكين الذي هو في الحقيقة استدراج وإِمْلاء لهم في قوله تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤].

إن قوم صالح عندما اتَّخذوا من السهول قصوراً، وَنَحَتُوا من الجبال بيوتاً، فعلوا ذلك مغترِّين بما بنته أيديهم من قصور منيعة في السهول والوديان، وبيوت حصينة في الجبال، ظانِّين أنَّها تمنعهم من عذاب الله، وكانت مبالغتهم في البناء، وإِسرافهم في الملذَّات كحال من يأمل الخلود في هذه الدار، فأنكر صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا المسلك، وخوَّفهم من العذاب، قال تعالى: ﴿أَتَرْكُونَ فِي مَا هَهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٤٩].

وهذا الاستفهام الإنكاري لو كان يستدعي جواباً؛ لكان جوابه كلاً ثم كلاً، فما كانت هذه النعم ولا غيرها بدائمة ولا بحائلة دون عذاب الله حين يأتي، وإنَّما تقع في دائرة الإِمْلاء، حيث أمهل الله عَزَّجَلَّ هؤلاء الكفَّار إلى حين، حتَّى يستوفي الكتابُ أجله.

واستدراجاً لهم حين كَذَّبوا نبيَّهم صالحاً، وطالبوه بآية دالَّة على صدقه، آتاهم الله الناقة آية بيِّنة، وحبَّة دامغة، لكنَّهم أَصْرُوا على كفرهم، بل عتوا عن أمر ربِّهم وتجرَّؤوا على انتهاك حرمة الله تعال، فعقروا الناقة، واستوجبوا عذاب الله،

فأخذتهم رجفةً شديدة زلزلت بهم الأرض، وصاعقة محرقة من فوقهم، وصيحة واحدة مفزعة فقطعت نياط قلوبهم وتركتهم في ديارهم جاثمين.

وبقيت مساكنهم وديارهم عبرة لأولي الألباب على مرّ الأيام والدهور^(١)، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۖ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۗ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

وإن التعبير القرآني: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]، يصوّر الأرزاق، والخيرات، والمتاع، والسلطان، متدفقاً كالسيول بلا حواجز ولا قيود، وهي مقبلة عليهم بلا حواجز ولا كدّ، ولا حتى محاولة، إنه مشهد عجيب يرسم حالة في حركة على طريقة التصوير القرآنيّ العجيب.

- ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ [الأنعام: ٤٤]؛ غمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة، واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها، بلا شكر ولا ذكر، وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم، ومن خشيته وتقواه، وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع، واستسلموا للشهوات، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة، كما هي عادة المستغرقين في اللهو والمتاع، ويتبع ذلك فساد النظم والأوضاع بعد فساد القلوب والأخلاق، وجرّ هذا وذلك إلى نتائجه الطبيعيّة من فساد الحياة كلّها، عندئذٍ جاء موعد السّنة التي لا تبدّل^(٢).

(١) السنن الاجتماعية في القرآن (٣/ ٤٩٠).

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ١٠٩٠).

- ﴿أَخَذْنَهُمْ بَعْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]؛ كان أخذهم على غرّة، وهم في شهوة وسكرة، فإذا هم حائرون، ومنقطعون الرجاء في النجاة، وعاجزون في التفكير في أي اتجاه، وإذا هم مُهلكون بجملتهم حتى آخر واحد فيهم.

- ﴿فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: ٤٥]؛ دابرُ القوم هو آخر واحد منهم، يُدبرهم أي: يجيء على أدبارهم، فإذا قطع هذا فأولئك أولى، و﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: ٤٥]؛ تعني الذين أشركوا، والشرك من أنواع الظلم، وهو أعظمها.

- ﴿وَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]؛ تعقيب على استئصال الظالمين، بعد هذا الاستدراج الإلهي والكيد المتين، وهل يُحمد الله على نعمةٍ أجلّ من نعمة تطهير الأرض من الظالمين، وعلى رحمةٍ أجلّ من رحمته بعباده بهذا التطهير؟

وقد أخذ الله تعالى قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، كما أخذ الفراعنة، والإغريق، والرومان، وغيرهم بهذه السُنّة، ووراء ازدهار حضارتهم ثمّ تدميرها ذلك السرّ المغيّب من هذا القدر الظاهر في سُنّته، وهذا التفسير الربّاني لهذا الواقع التاريخي المعروف^(١).

السادس عشر: الاشتغال بالدنيا عن الآخرة:

اشتغل قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بأمور الدنيا، وأصابهم الغرور بها، ونسوا الآخرة، وفرحوا بالأموال والأولاد، والقصور والبيوت في الجبال، والبساتين والزروع، وغاب عنهم فقهُ القدوم على الله، ولم يستعدّوا ليوم الرحيل، وانغمسوا في الترف والإسراف، وتناولوا على أهل الإيمان.

(١) المصدر السابق (٢/ ١٠٩١).

فمن الأسباب التي ساهمت في عقابهم: الانشغال بالدنيا، ونسيان الآخرة، وارتكابهم للموبقات والذنوب والخطايا، لغياب وازع الخوف من الله ومن حسابه يوم القيامة.

السابع عشر: الاستبدال:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، مضت سنة الله في الاجتماع البشري أنه ما أهلك الله قوماً إلا أنشأ من بعدهم قوماً آخرين، يقومون بعمارة الأرض، ذلك أن ذهاب أمة وإنشاء أخرى، لا يكون عبثاً وصدفة، ولكنه سنة الله في الأمم والدول والحضارات، لتتجدد خلايا الإنسانية، وتتداول الحياة الحضارية بين البشر، ليستمر العالم قائماً على عقيدة سليمة، وأسس صحيحة صالحة للبقاء^(١).

كما أن الحضارات لها سنن قيام وسقوط فلها سنن تجدد وانبعاث واستبدال، وقد تحدث القرآن الكريم عن الاستبدال الحضاري، وهذا ما حدث لقوم صالح عليه السلام حيث جمعت فيهم أسباب الهلاك، فمضت سنة الله فيهم بالاستئصال، ولكي تستأنف الإنسانية رسالتها بصالح عليه السلام والذين آمنوا معه. وكان صالح عليه السلام والذين آمنوا معه تميزوا بتوحيد الله وإفراده بالعبادة بمحاربة الشرك بكافة أشكاله وألوانه، وانطلقوا في أرض الله بشرع الله بعد استئصال قوم صالح عليه السلام.

(١) سنن الله في قيام الحضارات وسقوطها، ص ٧٣.

الثامن عشر: سُنَّةُ الْأَجَلِ الْجَمَاعِيِّ:

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، جعل الله لكل فرد أجلاً تنتهي به حياته الدنيا، وجعل سبحانه للأمم والحضارات والدول آجالاً تنتهي إليها، وتسقط في نهايتها، ويسدل الستار عليها، وكذلك لحركة التاريخ الجماعي للأمم سُننٌ كثيرة دقيقة تسير عليها، قدرها العليم الحكيم، لا تقصر عنها ولا تتجاوزها، أوقاتها محدّدة وأحداثها مقدّرة مكتوبة: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [الأعراف: ٣٤] (١).

ونظراً لارتباط هذه الآجال بمواعيد ثابتة محدّدة في علم الله، كجزء من نظام كوني متماسك، ووفق مقاييس زمنية قد تبدو للإنسان، ذي القدرات النسبية المحدّدة، طويلة، ونظراً إلى إرادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحُكْمَتِهِ فِي خَلْقِهِ شَاءَتْ أَنْ يُمَدَّ فِي هَذِهِ الْأَجْيَالِ كَيْ تَمْنَحَ لِكُلِّ قَوْمٍ، أَوْ أُمَّةٍ أَنْ تُكْفَّرَ عَنْ ظُلْمِهَا وَمَعَاصِيهَا، وَأَنْ تَسْعَى التَّزَامُ الطَّرِيقَ الْعَادِلَ الْمُسْتَقِيمَ، وَنَظَرًا لِهَذَا وَذَاكَ يَتَصَوَّرُ الْبَعْضُ أَنَّهُمْ بِمَنَآئِ عَنْ عِقَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ لَا تَدْهُورُ وَلَا سَقُوطُ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧].

وَيَتَطَرَّقُ الْبَعْضُ الْآخِرَ فَيَسْتَعْجِلُ الْمَصِيرَ قَبْلَ تَحَقُّقِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّحْدِي وَالِاسْتَفْزَازِ: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، إِلَّا أَنَّ أَوْلَئِكَ وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَدْرِكُوا أَنَّ كِتَابَهُمْ لَمْ يَبْلُغْ أَجْلَهُ، وَأَنَّهُ إِذَا جَاءَ فَلَيْسَ أَمَامَهُمْ إِلَّا أَنْ يِعَانِقُوا مَصَائِرِهِمُ الَّتِي صَاغَوْهَا بِأَيْدِيهِمْ سَلَفًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا

(١) السنن الإلهية في الخلق، عبد الحميد طهماز، ص ٣٥.

تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿النحل: ٦١﴾.

أي: لكل قوم ميقات لانقضاء مدتهم وأجلهم في الحياة، فإذا جاء وقت انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم لا يستأخرون ساعة، والإمداد بالساعة أقل مدة من الزمن، ولا يتقدمون بالقدر نفسه، لأن الله قضى بذلك منذ حين^(١).

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤٥﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَحْزِرُونَ﴾ [الحجر: ٤، ٥].

بيّنت الآية أن كل القرى الهالكة كان لها أجل مقدّر في أسباب هلاكها، وذلك لما أقام الله الحجّة على أهلها بتقدّم النذر، وفرص الإمهال، وسُنن الاستدراج، وتبقى سنة الله ثابتة، وهي أن هلاك الأمم مرهون بأجلها، فالهلاك الذي قدره الله مرتّب على سلوكها وأعمالها، وعلى اعتقادها وتصوّرها، ومن خلال هذا تنفذ مشيئة الله، فلا يغترّ المكذّبين تخلف بأس الله عنهم فترة من الزمن، ومن عدل الله أن يذوق كل واحد جزاء عمله وتصرفه، وسنة الله في طريقها المعلوم تمضي رويداً رويداً نحو الأجل المقدّر الذي يمنحه الله لتلك القرى، وحتى لا تبقى بقية خير، عند ذلك تبلغ الأمة أجلها، وتمضي إلى مصيرها^(٢).

وما من أمة عرفت في الحياة ثمّ تمرّدت على الحقّ، وتولّت عن العدل إلا والله مهلكها قبل يوم القيامة أو معذبها، وهذا قدر مقدّر في الكتاب المسطور، قال

(١) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص ٣٠٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٣.

تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

وهذا ما حدث لقوم ثمود، حيث بعث لهم صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ رسولاً لهدايتهم، فردّوا دعوته كبراً وعناداً، وأعرضوا عنها، وطلبوا تعجيل العذاب، فوقع عليهم العقاب الإلهي بسبب ذنوبهم مع تقدير الله لهم، وفق سنة الله ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [الأعراف: ٣٤]، فعلم الله لا يتبدّل، وسنته لا تتحوّل، وهي جارية وحاكمة وفق مشيئته وإرادته، وعلمه وحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

التاسع عشر: سنة الهلاك:

إنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قضى بجعل الحساب والجزاء يوم القيامة، ولكن جرت سنته بالفصل بين أهل الحقّ وأهل الباطل في الدنيا بحكمة ربّانية عليا، وذلك بإهلاك الظالمين، ونجاة المؤمنين في الصراع بين الدائر بين الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأعدائهم، وفي هذا الصراع دارت الدائرة وفق سنة الله على أهل الشقاوة، فمنهم من أغرقه الله بالطوفان، ومنهم من أرسل الريح العقيم، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أخذته الرّجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، ومنهم من مُسخوا فغدوا قردة وخنازير، على أنّ الهلاك الذي حلّ بأولئك الظالمين إنّما هو خزيّ لهم في الدنيا، ونصرة للمؤمنين، وعبرة لمن يجيء بعدهم من الأمم، ليتّعظوا بمصائر الغابرين، ويتعدوا عن سُبُل الشيطان التي كانت سبباً في إهلاك القرون الخالية المحادّة لله ورسوله.

وقد ورد لفظ (الهلاك) في القرآن الكريم بمعانٍ متعدّدة، حسب موقعه في السياق كالموت مطلقاً، والفساد، والعذاب^(١). والمعنى الأخير هو الأكثر استعمالاً في القرآن الكريم، وله صلة بموضوعنا.

أمّا الهلاك في الاصطلاح القرآنيّ فهو: ما ينزله الله تعالى بأعدائه من العذاب المستأصل المبيد، وقد ورد هذا كثيراً في قصص القرآن الكريم، وفي مصير الأمم الغابرة، التي انحرفت عن جادة الصراط المستقيم، وجحدت أوامر الله عزّ وجلّ، وأذت رسله، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧]، وقوم صالح من الأمم المتقدّمة التي مضت فيهم سنّة الهلاك.

وهذه السنّة ماضية في الحضارات والأمم والشعوب والمجتمعات، وهي من سنن الله القاصمة واسعة الأثر. وهي سبب الوقوع في الذنوب والفساد والظلم وغير ذلك.

- قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْتَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: ١٣].

(١) إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، الحسين محمد الدمغاني، دار العن للمايين، بيروت، ط ٤، ١٩٨٣ م، ص ٤٧٧.

العشرون: سُنَّةُ الْخَسِرَانِ:

تَحَقَّقَتْ سُنَّةُ الْخَسِرَانِ فِي قَوْمِ ثَمُودَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٣].

مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا يَفْلِحُونَ، وَأَنَّهُمْ خَاسِرُونَ، وَهِيَ سُنَّةٌ نَافِذَةٌ لَا تَتَخَلَّفُ، كَمَا أَنَّ الْفَلَاحَ لِلْمُؤْمِنِينَ^(١).

لَقَدْ مَضَتْ فِي قَوْمِ ثَمُودَ سُنَّةُ الْخَسِرَانِ عِنْدَمَا خَسِرُوا الْإِدْرَاكَ وَالْبَصِيرَةَ، فَضَاعُوا فِي صَحَارِي الشَّبَهَاتِ، وَبَحَارِ الشَّهَوَاتِ، وَوَدْيَانِ الضَّلَالِ، وَمَضَى فِيهِمْ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٣].

الحادي والعشرون: الْغَفْلَةُ عَنْ أَسْبَابِ الْهَلَاكِ:

مِنْ أَسْبَابِ هَلَاكِ قَوْمِ ثَمُودَ، وَمَضَى سُنَّةُ اللَّهِ فِيهِمْ: غَفَلَتُهُمْ عَنْ أَسْبَابِ الْهَلَاكِ، فَلَمْ يَنْتَبِهُوا إِلَى خَطُورَتِهَا، بَلْ مَارَسُوهَا عَلَى مَسْتَوَى الْأَفْرَادِ وَالْمَجْتَمَعِ.

وَهَكَذَا، فَإِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فِي قِصَّةِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ، وَجَّهَ الْأَنْظَارَ إِلَى الْإِعْتِبَارِ بِأَحْوَالِهِمْ، وَهِيَ مَلِئَةٌ بِالْدُرُوسِ وَالْعِبَرِ، وَالْفَوَائِدِ وَالسَّنَنِ، وَقَوَانِينِ اللَّهِ فِي حَرَكَةِ الشُّعُوبِ، وَزَوَالِ الْأُمَمِ، وَاضْمِحْلَالِ الْحَضَارَاتِ.



(١) فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ (٤/٤٨٣).



المبحث الرابع

أهمُّ صفات وخصائص صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ووفاته

أولاً: تعريف الرُّسل وصفاتهم

ثانياً: الفرق بين النبي والرسول

ثالثاً: أهمُّ صفات الرُّسل ومنهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ

رابعاً: الإيمان بالأنبياء والمرسلين

خامساً: أعداد الرسل

سادساً: التفاضل بين الأنبياء والرسل

سابعاً: أولو العزم من الرسل

ثامناً: حكمة إرسال الرسل عامّة

تاسعاً: وظائف الرسل

عاشراً: أمور تفرّد بها الأنبياء والرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

حادي عشر: وفاة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحبّه قبل وفاته

كان صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ من الأنبياء المرسلين الذين حققوا التوحيد لله عَزَّوَجَلَّ، وإفراده بالعبادة، ودعوا إلى ذلك، وآمن بعض الناس برسالته، وقد تميَّز عَلَيْهِ السَّلَامُ بصفات وخصائص حميدة تجسدت في شخصيته وأخلاقه، كالإخلاص، والصبر، والتقوى، وحسن العبادة، وكان ناصحاً لقومه فدعاهم إلى توحيدهِ وعبادته، واستغفاره والتوبة إليه^(١).

أولاً: تعريف الرُّسل وصفاتهم:

الرسول في اللغة: مشتق من الإرسال وهو التوجيه، فالرسول الذي يتابع أخبار الذي بعثه، أي: متتابعة. وسُمِّي الرسول رسولاً لأنه ذو رسالة^(٢).
والرسول: اسم من أرسلت، وكذلك الرسالة، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

والنبي: فعيل من النبأ مهموزاً، وأصله النبيء ترك الهمزة تخفيفاً، وهو بمعنى مُفْعِلٌ ومُفْعَلٌ فهو مُنْبِئٌ ومُنْبَأٌ، مُنْبِئٌ أي: مُخْبِرٌ من الله، قال تعالى: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ تَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْحَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]، وقال تعالى: ﴿نَبِيٍّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩].

فالنبي هو الذي يُخبر من الله، وهو الذي يُخبر الناس، أي: يُبلِّغهم أمر الله ونهيه ووحيه، وقد يكون لفظ (النبي) من التنبؤ غير مهموز، وهو الرفعة والمكانة.

(١) صفات الأنبياء من قصص القرآن، الدكتور عقيل حسن، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، ط ١،

٢٠١١م، ص ٧٥-١٠٠، لمن أراد التوسع.

(٢) موسوعة الأعمال الكاملة، القرضاوي (٨/ ٣٦٧).

أ- تعريف الرسول اصطلاحاً:

والرسول في الاصطلاح: هو رجل اصطفاه الله من البشر واختصّه بالوحي وأمره بتبليغه. وهذا التعريف يشمل الأنبياء أيضاً، لأنّ لفظي النبي والرسول إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا^(١).

ب- هل يُنبأ الأنبياء قبل سنّ الأربعين؟

يقول العلماء: الأنبياء لا يُنبأون إلّا في سنّ الأربعين، ولكنّ هذا الغالب، ليس دائماً، لأنّ قوم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قالوا: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، ومعنى (الفتى): صغير السن.

وقال تعالى في شأن سيّدنا يحيى بن زكريّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْخُكْرَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]. والحكم هو النبوة، وسيّدنا عيسى ما زاد عمره عن ثلاث وثلاثين سنة^(٢).

ج- الرسالة اصطفاً:

الرسالة منحة إلهية يختصّ بها من يشاء من عباده، فضلاً منه ونعمة، وليست الرسالة درجة علمية يمكن الحصول عليها بالاجتهاد أو التعبد أو التعلم، وإنّما هي اصطفاً، واختيار للرسل من بين سائر الناس. وقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

(١) المصدر السابق (٨/ ٣٦٨).

(٢) المصدر السابق (٨/ ٣٧٢).

د- الرسول يُوحى إليه:

إِنَّ أَحْصَى مَا يُمَيِّزُ الرَّسُولَ عَنْ سَائِرِ الْبَشَرِ، أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَالرَّسُولُ لَا يَصْدُرُ فِيهِمَا يُبَلِّغُهُ إِلَى النَّاسِ عَنْ نَفْسِهِ وَرَأْيِهِ، وَإِنَّمَا يَتَلَقَّى ذَلِكَ بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ. قَالَ تَعَالَى مُخَاطَباً رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

والوحي لغة: الإعلام في سرعة وخفاء. واصطلاحاً: إعلام من الله لنبىء بطريقة غير معتادة لدى البشر، تفيد الرسول العمل اليقيني القاطع بما أعلمه الله به^(١).

هـ- طريق البشر:

إِنَّ الْبَشَرَ يَحْصُلُونَ عِلْمَهُمْ بِطَرِيقِ الْحَوَاسِ أَوِ الْعَقْلِ، أَمَّا عِلْمُ الْأَنْبِيَاءِ تَنْقَسِمُ إِلَى أَنْوَاعٍ ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

النوع الأول: أَنْ يُلْقَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ الْمَعْنَى فِي قَلْبِ النَّبِيِّ مُبَاشَرَةً، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا﴾ [الشورى: ٥١].

ويكون ذلك في اليقظة والمنام وله صور عدة:

- إلقاء الله معنى يفيضه على قلب رسوله في حالة اليقظة يستيقن معه أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، بحيث لا يجد فيه شكاً، ولا يستطيع له دفعاً ويُسمَّى هذا النوع من الوحي (النفث في الرُّوع)، والرُّوع: القلب وفي الحديث: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ

فِي رُوعِي، أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ أَجْلَهَا، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»^(١).

وروح القدس: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ونفث في رُوعي: أي ألقى الوحي في قلبي.

- ومنها ما يكون رؤيا صادقة في النوم: ومن ذلك رؤيا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمر الله إِيَّاهُ بِذَبْحِ وَلَدِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. وفي صحيح البخاري، عن عائشة أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصَّبْحِ^(٢).

والنوع الثاني: ما يكون مكالمة بين الله تعالى وبين رُسُلِهِ، وهو المراد من قوله تَعَالَى: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

والنوع الثالث: ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو المراد بقوله تَعَالَى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

وذلك أشهر أنواع الوحي، ويسميه العلماء: الوحي الجليّ، ووحي القرآن كله من هذا النوع، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد، رقم (٣٥٤٧٣). وقال الحافظ في المطالب العلية (٩٢٧)، فيه انقطاع.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري في التفسير (٤٩٥٣).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

ثانياً: الفرق بين النبي والرسول:

اختلف العلماء في التفريق بين معنى النبي والرسول، على أقوال: فرأى بعضهم أنّهما سواء، فالنبيّ والرسول لفظان لمعنى واحد، ورأى البعض: أنّهما متفرقان من وجه ويجتمعان من وجه، كما قال القاضي عياض: والصحيح والذي عليه الجماء الغفير، أنّ كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً^(١).

والراجح في الفرق بين النبيّ والرسول، أنّ الرسول من بُعث بشرع جديد، وأمر بتبليغه، والنبيّ من أمر بالتبليغ ولكن بشرع من سبقه من الرسل، كحال أنبياء بني إسرائيل الذين كُلِّفوا بتبليغ شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والمراد بالشرع هنا، هو: التشريع الذي يحوي شيئاً جديداً لم يكن له في التشريع السابق، كما في حال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد قال الله في شأنه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلٍ لَّكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [آل عمران: ٥٠].

ثالثاً: أهم صفات الرُّسل ومنهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ:

الرسل هم سُفراء الله تعالى إلى الخلق لهدايتهم إلى الحق، ودعوتهم إلى الخير. وإن هداية البشر مهمة عظيمة، لا يصلح لها إلا من توفّرت فيهم صفات رفيعة من الصفات الإنسانيّة العظيمة، فالرسول رجل اصطفاه الله من البشر، واختصّه

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الحديث، ٢٠١٠م (١٢٥١)؛ تفسير القرطبي (١٢/ ٨٠).

بالوحي، وأمره بتبليغه، فهو مصطفى، ومُوحى إليه، ومُبَلَّغ عن الله. ومن أهم صفاتهم المتعلقة بالرسالة:

أ- الصدق:

الرَّسُلُ صَادِقُونَ فِي أَقْوَالِهِمْ، وَفِي أَعْمَالِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: عَلَى لِسَانِ الْكَافِرِينَ حِينَ يُبْعَثُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]. والرسالة لا يصلح لها كذاب، والرسول مُبَلَّغُونَ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى، وَدَاعُونَ إِلَى الْحَقِّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]. فيستحيل على النبي الكذب، وذلك بنقل وحي الله تعالى إلى الناس، فلو صدر منه الكذب لتسرَّب شكُّ الناس إلى الوحي الذي ينقله إليهم^(١). ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٣﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

ب- الفطنة:

هي أن يكون الرسول ذكياً عميق الفهم، وحاضر البديهة، وقويَّ الحُجَّة، وسديد الرأي، وليس غيباً ولا بليداً؛ لأنَّ الرسول يُرَبِّي أُمَّتَهُ، وَيُجَادِلُ خَصْمَهُ، وَيُقِيمُ الْبَرَاهِينَ عَلَى صَحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ^(٢).

وإذا نظرنا في قصَّة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومناظرته لقومه، وجدنا صفة الفطنة ظاهرة في تبشيره، وإنذاره، وحُسن جداله، وقدرته على إقامة الحُجَّة العقلية، والدليل الفطري في النشأة من الأرض، واستعمارهم فيها.

(١) موسوعة الأعمال الكاملة (٨/ ٣٧٨).

(٢) المصدر السابق (٨/ ٣٧٩).

ج- التبليغ:

لا بد لهذا الصادق الفَظَن أن يُبلِّغ ما أُوحي إليه من الأحكام والشرائع، وهذا مقتضى الرسالة، فقد قام هود عَلَيْهِ السَّلَامُ بتبليغ الرسالة حقَّ التبليغ.

د- العصمة:

هي حفظ الله تعالى رسله من المعاصي والذنوب، ليكونوا أسوة حسنة للناس، ولهذا نؤمن نحن المسلمين بعقيدة (عصمة الأنبياء) من الخطايا والردائل، والتي تُنافي تكليفهم هداية البشر، وتُنقِرُ الناس منهم، وتجعلهم عرضة للانتقاد.

وإن معنى العصمة: أَنَّهُمْ لَا يَتْرَكُونَ وَاجِبًا، وَلَا يَفْعَلُونَ مُحَرَّمًا، وَلَا يَقْتَرِفُونَ مَا يَتَنَافَى مَعَ الْخُلُقِ الْكَرِيمِ، فَأَفْعَالُهُمْ وَأَقْوَالُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ دَائِرَةٌ بَيْنَ الْوَاجِبِ وَالْمَنْدُوبِ، فَهُمْ مَعْصُومُونَ عَنِ الْكِبَائِرِ وَعَنِ الْمُنْفَرَاتِ، وَرَسَلَ اللَّهُ (صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ) مَعْصُومُونَ فِي تَبْلِيغِ الْوَحْيِ عَنِ الْكَذِبِ وَالنِّسْيَانِ وَالْغَفْلَةِ وَمَعْصُومُونَ عَنِ الزِّيَادَةِ فِيهِ أَوْ إِخْفَاءِ بَعْضِهِ. وَهُمْ مَعْصُومُونَ أَيْضًا مِنَ الْوُقُوعِ فِي كِبَائِرِ الذَّنُوبِ، وَعَنِ الصِّغَائِرِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى خَسَاسَةِ الطَّبَعِ، صِيَانَةٌ لَعَلَّوْا مَكَانَتَهُمْ^(١).

هـ- مكارم الأخلاق:

إن الرسل متّصفون بأرفع الأخلاق الإنسانية، ويتحلّون بأسمى الأخلاق الفاضلة: كالكرم، والعدل، والشجاعة، والصبر، والعفة، والأمانة، والحلم، والحياء، وسائر مكارم الأخلاق، ولذا فقد وصف الله تعالى نبيّنا الكريم بقوله:

(١) موسوعة الأعمال الكاملة (٨/ ٣٨١-٣٨٢). وللتوسع: العصمة في عقيدة أهل السنة، منصور بن رشد التميمي، ص ١٥؛ دراسات في التفسير الموضوعي، د. زاهر الألمعي، ص ٢٥٠؛ العصمة في الفكر الإسلامي، حسن حميد، ص ٤٤-٤٦.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. فالرسالة لا يصلح لها بخيل، ولا حقود، ولا حسود، وإنما يصلح لها من اتّصف بكرم النفس وطهارتها، وتحلّى بالأخلاق الفاضلة، وإنما خصّ الله رسله بهذه الصفات ليصحّ الاقتداء بهم، ولو لم يكونوا متميّزين بهذه الفضائل، معصومين من النقائص، لمّا كانوا أهلاً لاختصاص الله إياهم بوحيه، ولضعف ثقة الناس بهم ولضاعت الحكمة من رسالتهم^(١).

و- الكمال في الخلقة الظاهرة، والسلامة من الأمراض المنفّرة:

كما يجب الإيمان بصدق الرسل وأمانتهم، وتبليغهم وفطانتهم وعصمتهم، فكذلك يجب الإيمان بكمال خلقتهم، فهم يتميّزون بسلامة أبدانهم ممّا تنفر منه الطباع السليمة، فلا يمرضون مرضاً منفراً أو مُقْعِداً عن تبليغ رسالاتهم؛ كالجدري، والجذام، والبرص، والصرع، والحمّى، فإنّها قد تصيبهم، لأنّها لا تمنعهم من أداء رسالتهم، وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمرض، وتُصدّع رأسه، ومن ذلك ما رواه ابن مسعود: «دخلت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يوعك وعكاً شديداً، فمسسته بيديّ، وقلت: يا رسول الله إنّك توعك وعكاً شديداً، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أجل، كما يوعك رجلان منكم»^(٢).

وما يحكى عن سيّدنا أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ من أنّه اشتد به المرض، وصار الدود يخرج من بدنه، فهو كذب وافتراء، وتشويهات إسرائيلية يتنزّه منصب النبوة عنها^(٣).

(١) موسوعة الأعمال الكاملة (٨/ ٣٩٠).

(٢) رواه البخاري، رقم (٥٦٦٠).

(٣) موسوعة الأعمال الكاملة (٨/ ٣٩١).

رابعاً: الإيمان بالأنبياء والمرسلين:

إن الإيمان بأنبياء الله ورسله ركن من أركان الإيمان، فلا يتحقق إيمان العبد حتى يؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين، ويصدق بأن الله تعالى أرسلهم لهداية البشر وإرشاد الخلق، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأنهم بلّغوا ما أنزل إليهم من ربهم البلاغ المبين، فبلّغوا الرسالة وأدّوا الأمانة، ونصحوا الأمم، وجاهدوا في الله حق جهاده.

وقد قال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَكُنَ الْإِيمَانُ مِنْ بِلَادٍ أُولِي نِعْمَةٍ وَلَا مِنَ الْإِنْسَانِ وَلَا مِنَ الشَّيْءِ مَا نَحْنُ بِمُتَحَرِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. ومن السنة قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه، وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث^(١).

وإن الإيمان بأنبياء الله تعالى ورسله لا يتم حتى يؤمن العبد بجميعهم من غير حصر، ومن قصصهم الله علينا ومن لم يقصصهم، فقد أخبرنا جَلَّ وَعَلَا، بأن هناك أنبياء لم يقصصهم علينا. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. فنؤمن بما سمى الله في كتابه من رسله، ونؤمن بأن الله سواهم رسلاً وأنبياء لا يعلم أسماءهم إلا الذي أرسلهم، ونؤمن بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإيمانك به غير إيمانك بسائر الرسل، إيمانك بسائر الرسل: إقرارك بهم وإيمانك بمحمد إقرارك به وتصديقك إياه دائماً على ما جاء به،

(١) البخاري، رقم (٤٨).

فإذا اتبعت ما جاء به أديت الفرائض وأحللت الحلال، وحرمت الحرام، ووقفت عند الشبهات وسارعت في الخيرات^(١).

ومن أطاع رسولاً واحداً فقد أطاع جميع الرسل، ومن آمن بواحد منهم فقد آمن بالجميع، ومن عصى واحداً منهم فقد عصى الجميع، لأن كل رسول يصدق الآخر ويقول: إنه رسول صادق، ويأمر بطاعته، فمن كذب الذي صدقه، ومن عصاه فقد عصى من أمر بطاعته^(٢).

خامساً: أعداد الرسل:

أرسل الله سبحانه رسلاً إلى جميع الأمم، لا يعلم عددهم إلا الله سبحانه، وقد قص القرآن الكريم علينا بعضاً منهم، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

وإن الآيات القرآنية تشير إلى أن الأنبياء والرسل أعدادهم وفيرة، ومن دلائل ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤]؛ أي: متتابعين، ودلت الآية على أن الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تتابعوا واحداً تلو الآخر، مما يدل على كثرتهم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦]، و(وكم): هنا خبرية، معناها الكثير، والمعنى: ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم السابقة. وقد ورد ذكر خمسة وعشرين من الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم، وهم: آدم أبو البشر، ونوح شيخ المرسلين، وإدريس، وهود، وصالح،

(١) مجموع الفتاوى (٣١٣/٧).

(٢) المصدر السابق (١٨٠/١٩).

وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل بن إبراهيم، وإسحاق بن إبراهيم، ويعقوب بن إسحاق، ويوسف بن يعقوب، وشعيب، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان بن داود، وأيوب، ويونس، واليسع، وذو الكفل، وإلياس، وزكريّا، ويحيى بن زكريّا، وعيسى، ومحمد (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).

ومن هؤلاء الخمسة والعشرين أربعة من العرب وهم: هود، وصالح، وشعيب، ومحمد (صلى الله عليهم أجمعين)، وقد وردت في بعض الأحاديث الضعيفة أعداد المرسلين، وهي أحاديث لا تقوم بها حجة، ولا ينبغي لأهل العلم والإيمان أن يشغلوا الناس ويضيّعوا أوقاتهم بها.

وقد اختلف في (ذو القرنين، وتبع، والخضر) هل هم أنبياء أم لا؟

فذهب طائفة من أهل العلم إلى أنّ ذا القرنين نبي من الأنبياء وكذلك تبع، والأولى أن يتوقف في إثبات النبوة لهما، لما صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال: «ما أدري تبع أنبياء أم لا؟ وما أدري ذا القرنين أنبياء كان أم لا»^(١). وأمّا الخضر، فقد رجّح الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي رَحِمَهُ اللهُ أنّه نبي، لقوله تعالى في آخر قصته: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢] أي: أنّه قد أوحى إليه فيه^(٢).

سادساً: التفاضل بين الأنبياء والرسل:

أخبر القرآن الكريم أنّ الله فضّل بعض الرسل على بعض، فقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. والتفضيل راجع إلى اختيار الله تعالى، بمزايا وهبها الله لنبيه أو لأئمته أو لرسالته.

(١) رواه الحاكم في الإيمان (١/٣٦)، وصحّحه على شرط الشيخين.

(٢) موسوعة الأعمال الكاملة، يوسف القرضاوي (٨/٤٠٢).

وأفضل الرسل على الإطلاق، هم أولو العزم، وأفضل أولو العزم هو رسولنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ أنه جمع كل ما تفرّق في الرسل السابقين ورسالاتهم من مزايا ومحاسن وكمالات، فهو أفضل المرسلين، وسيّدهم، ورسالته أكمل الرسالات، وأعمّها، وأشملها، وأمّته خير أمة أخرجت للناس، ودينه هو الذي ارتضاه الله لعباده إلى أن تقوم الساعة.

وأفضل أولي العزم بعد رسولنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو أبونا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، واختلف في ترتيب الثلاثة الباقيين بعدهما^(١).

سابعاً: أولو العزم من الرسل:

العزم: القوّة في الدين، والإمامة في الصّبر، والتقوى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

والراجع إن أولي العزم من الرسل خمسة، وهم: نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى (عليهم الصلاة والسلام). وقد خصّهم الله بالذكر في كتابه في بعض المواضع:

- كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

- وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

(١) المصدر السابق نفسه.

وفي الآيتين الكريمتين، دليل على أن هؤلاء الخمسة، هم أولو العزم؛ لأن الله تعالى ذكر الأنبياء، ومن ثم عطف عليهم هذه المجموعة، وعطف الخاص على العام يفيد أن الخاص زيادة في الفضل. وقد خاطب الله تعالى نبيه محمداً بقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

أما سبب تسميتهم بذلك، فلما تميزوا به من الهمة العظيمة في الدعوة إلى الله، والصبر على ما نالهم من الأذى الشديد في سبيل الله، والثبات في مواجهة الباطل، والقوة في الحق. حيث قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]: "ذوو الحزم والصبر"، وقال الضحاك: "ذوو الجِدِّ والصبر" (١).

وقد أثنى الله عزَّ وجلَّ على أولي العزم من الرسل لما فيهم من جميل الخلال، وعظم الصفات، كما قال تعالى عن نبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجْتَبَلَهُ وَهَدَلَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١]. وقال: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. والخلة: هي كمال المحبة.

وقال عن نبيه ورسوله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وخاطب خاتم رسله محمّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] (١).

ثامناً: حكمة إرسال الرسل عامّة:

من حكمة الله تعالى في إرسال الرسل، أنّ الخلق بحاجة إلى الرسل لِيُبَلِّغُوهم ما يُحِبُّه الله ويرضاه، وما يغضب منه ويأباه، وكثير من العصاة والمنحرفين ضلّوا في متاهات الشقاوة، هذا مع وجود الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فكيف يكون الحال لو لم يُرسل الله تعالى رُسُلاً مبشّرين ومنذرين.

وإن الرسل بُعثوا، يُهَدِّبُونَ العباد، ويُخرجونهم من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ويُحرّرونهم من رِقِّ عبوديّة المخلوق، إلى حرّية عبادة ربّ العالمين الذي أوجدهم من العدم وسيفنيهم بعد الوجود، وبعثهم بعد الفناء، ليكونوا إمّا أشقياء وإمّا سُعداء.

ولو تُرِكَ الناس هملاً دون إنذار وتخويف، لعاشوا عيشةً ضنكاً في جاهليّة جهلاء، وضلالة عمياء، وعادات منحرفة، وأخلاقٍ فاسدة، وأصبحت الحياة مجتمع غابٍ، فيه القويّ فيهم يأكل الضعيف، والشريف يذلّ الوضيع. وهكذا فاقتضت حكمته جَلَّ وَعَلَا ألاّ يخلق عباده سُدىً، ولا يتركهم هملاً، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾ [القيامة: ٣٦].

ومن رحمة الله جَلَّ وَعَلَا بهم، أن مَنْ عليهم، فبعث رُسُلًا مبشّرين ومنذرين، يتلون عليهم آيات ربّهم، ويُعلّمونهم ما يُصلحهم، ويُرشّدونهم إلى أسباب سعادتهم في الدنيا والآخرة، وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين^(١).

أ- قطع المعاذير في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ب- إزاحة الغفلة والإعداد للهداية:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩].
وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].
وقال تعالى: ﴿مَنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

ج- رفع الاختلاف وردّ الناس إلى أصول يتفقون عليها:

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

د- إقامة القسط بين الناس:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

(١) نوح والطوفان العظيم، ص ٨١.

فهدف الرسل والرسالات السماوية كلها: إقامة العدل بين الناس، وليس المراد إقامة التعادل والتوازن بين بعضهم البعض فقط، بل بين القيم بعضها وبعض، والفضائل بعضها وبعض، والحقوق بعضها وبعض، فلا ينبغي أن يطغى حق على واجب، ولا أن يطغى رجل على امرأة، ولا أن يطغى حاكم على محكوم، ولا أن يطغى الفرد على المجتمع، والمجتمع على الفرد، أو أن تطغى المعاني الروحية على المعاني المادية، أو المادية على الروحية، إنه التوازن، إنه العدل الذي جاء به الرسل جميعاً: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ أَوِ اقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝﴾ [الرحمن: ٨، ٩]. لا طغيان، ولا إكسار، ولا تطفيف، ولا إفراط، ولا تفريط^(١).

هـ- الأسوة الحسنة:

إنَّ مهمّة الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) هي الدعوة إلى الله، وإلى الحق والخير، وتحويل هذه الدعوة إلى عمل، وسلوك، وتطبيق، ليقنّدي الناس بهم.

- قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَهُ ۝﴾ [الأنعام: ٩٠].

- وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝﴾ [الأحزاب: ٢١].

وإن هذه أهمّ المهمّات التي يقوم بها الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في هداية الناس إلى الحق والخير، وتحذيرهم من الباطل والشرّ، قال تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۝﴾ [الكهف: ٥٦]^(٢).

(١) موسوعة الأعمال الكاملة (٨/ ٤٠٩).

(٢) المصدر السابق نفسه.

تاسعاً: وظائف الرسل:

إنَّ لإرسال الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ غايات عظيمة، وأهدافاً سامية، وقد أجمل بعضها في الأمور الآتية:

- تبليغ الشريعة الربّانية إلى الناس.
 - تبين ما أنزل من الدين.
 - دلالة الأمم على الخير، وتبشيرهم بالشواب المعدّ إلى ما فعلوه وتحذيرهم من الشرّ وإنذارهم بالعقاب المعدّ إن اقترفوه.
 - إصلاح الناس بالقُدوة الطيّبة، والأسوة الحسنة في الأقوال والأعمال.
 - إقامة شرع الله بين العباد وتطبيقه.
 - شهادة الرسل على أممهم يوم القيامة قد بلغوهم البلاغ المبين.
- هذه بعض وظائف ومهام المرسلين، والتي تزيدهم شرفاً إلى شرفهم، وفضلاً إلى فضلهم، ويكفيهم فخراً أنَّهم يُبلّغون عن ربِّ العالمين، فسبحان مَنْ خَصَّهم بهذه الرتبة العلية، ومنَحهم هذه الوظيفة السنية، واصطفاهم واختارهم من بين سائر عباده، ليقوموا بهذه الخدمة المرضية^(١)، ويمكن التوسّع في وظائف الرسل بالرجوع إلى كتابي (نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والطوفان العظيم).

عاشراً: أمور تفرّد بها الأنبياء والرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ:

من الأمور التي اختص الله بها أنبياءه ورُسله دون العالمين، هي:

(١) النبوات، ابن تيمية، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ٢٠٠٦م (١/٢٨-٢٩).

أ- الوحي:

خصَّ الله الأنبياء دون سائر البشر بوحيه إليهم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

وهذا الوحي يقتضي عدّة أمور، يقارفون بها الناس، فمن ذلك تكليم الله بعضهم، واتصالهم ببعض الملائكة، وتعريف الله لهم شيئاً من الغيب، يقول الله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

ومن ذلك الإسراء بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى البيت المقدس، والعروج به إلى السماوات العلّاء، ورؤيته الملائكة والأنبياء، وإطلاعه على الجنة والنار، ومن ذلك رؤيته للمعدّبين في قبورهم، وسماعه تعذيبهم، وفي الحديث: «لَوْ لَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا، لَدَعَوْتُ اللَّهُ أَنْ يُسَمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»^(١).

ب- الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم:

مما اختصَّهم الله تعالى به أن أعينهم تنام، وقلوبهم لا تنام، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ: «وَالنَّبِيُّ نَائِمَةٌ عَيْنُهُ، وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ، وَكَذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ وَلَا تَنَامُ قُلُوبُهُمْ»^(٢).

وهذا وإن كان من قول أنس إِلَّا أَنْ مَثَلَهُ لَا يُقَالُ مِنْ قَبْلِ الرَّأْيِ، كما يقول ابن حجر^(٣)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَنَامُ عَيْنِي وَلَا يَنَامُ قَلْبِي»^(٤).

(١) صحيح مسلم، ك الجنة (٤/ ٢٠٠)، رقم (٢٨٦٨).

(٢) صحيح البخاري، رقم (٣٥٧٠).

(٣) فتح الباري (٦/ ٦٧٠).

(٤) فتح الباري (٦/ ٦٧٠)، رقم (٣٥٦٩).

ج- الأنبياء لا يُورثون:

مما اختصَّ الله به الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَنَّهُمْ لَا يُورَثُونَ، بل ما تركوه من الأموال يكون صدقة من بعدهم، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا نُورَثُ، مَا تَرَكَنَا صَدَقَةٌ»^(١).

وإن الحكمة من ذلك: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى صَانِ الْأَنْبِيَاءِ عَنْ أَنْ يُورَثُوا دِينًا، لئلا يكون ذلك شبهة لمن يقدر في نبوتهم بأنهم طلبوا الدنيا وخلفوها لورثتهم^(٢).

وأما قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦]، فالمراد بهذا الإرث: العلم والنبوة والملك، وليس المراد وراثته المالك، لَأَنَّهُ قَدْ كَانَ لَهُ بَنُونَ غَيْرُهُ، فَمَا كَانَ لِيُخَصَّ بِالْمَالِ دُونَهُمْ، وَلَأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي (الصحيح) من غير وجه، عن جماعة من الصحابة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا نُورَثُ، مَا تَرَكَنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ».

وفي لفظ: «إِنَّا معاشر الأنبياء لا نورث»، فأخبر الصادق المصدوق أَنَّ الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج، لا يخصُّون بها أقرباءهم، لَأَنَّهُ الدُّنْيَا كَانَتْ أَهْوَنَ عَلَيْهِمْ وَأَحْقَرَ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا هِيَ عِنْدَ الَّذِي أَرْسَلَهُمْ وَاصْطَفَاهُمْ وَفَضَّلَهُمْ^(٣).

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦]، ليس المراد به إرث المال، إِنَّمَا إِرْثُ الْعِلْمِ وَالنَّبُوَّةِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِظٍّ وَافِرٍ»^(٤).

(١) صحيح البخاري، رقم (٦٧٣٠).

(٢) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية (٤/ ١٩٥).

(٣) البداية والنهاية (١٧/ ٢).

(٤) العصمة في عقيدة أهل السنة، ص ٤٢.

د- تخيير الإنسان عند الموت:

مِمَّا تَفَرَّدَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ أَنَّهُمْ يُخَيَّرُونَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَعِنَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرُضُ إِلَّا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»، وَكَانَ فِي شَكْوَاهِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ أَخَذَتْهُ بِحَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ" (١).

هـ- لا تأكل الأرض أجسادهم:

إِنَّ مِنْ إِكْرَامِ اللَّهِ لِأَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَأْكُلُ أَجْسَادَهُمْ، فَمَهْمَا طَالَ الزَّمَانُ، وَتَقَادَمَ الْعَهْدُ تَبَقَى أَجْسَادُهُمْ مَحْفُوظَةً مِنَ الْبَلَى، وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ» (٢).

و- العصمة:

العصمة من الأمور التي خصَّ الله تعالى بها أنبياءه ورُسُلَهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ دُونَ سَائِرِ النَّاسِ، وَقَدْ عَرَفَهَا الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي الْمَفْرَدَاتِ، فَقَالَ: حِفْظُهُ إِيَّاهُمْ أَوَّلًا بِمَا خَصَّصَهُمْ بِهِ مِنْ صِفَاءِ الْجَوْهَرِ، ثُمَّ بِمَا أَوْلَاهُمْ مِنَ الْفَضَائِلِ الْجَسْمِيَّةِ، وَالنَّفْسِيَّةِ، ثُمَّ بِالنُّصْرَةِ، وَتَثْبِيتِ أَقْدَامِهِمْ، ثُمَّ بِإِنْزَالِ السَّكِينَةِ عَلَيْهِمْ، وَبِحِفْظِ قُلُوبِهِمْ، وَبِالتَّوْفِيقِ (٣).

وَقَدْ أَخَذَ الْحَافِظُ بْنُ حَجَرٍ التَّعْرِيفَ بِشَيْءٍ مِنَ التَّصَرُّفِ، فَقَالَ فِي الْفَتْحِ: وَعَصْمَةُ الْأَنْبِيَاءِ (عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) حِفْظُهُمْ مِنَ النَّقَائِصِ، وَتَخْصِصُهُمْ بِالْكَمَالَاتِ النَّفْسِيَّةِ، وَالنُّصْرَةِ وَالثَّبَاتِ فِي الْأُمُورِ، وَإِنْزَالُ السَّكِينَةِ (٤).

(١) صحيح البخاري، لك التفسير، رقم (٤٥٨٦).

(٢) سنن أبي داود، رقم (١٠٤٧).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، ص ٣٣٧.

(٤) فتح الباري (١١/٥١).

ومن خلال معرفة الرسالة، والنبوة، وصفات الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والحكمة من إرسالهم، ووظائفهم، وما تفرّدوا به، نتعرّف على صفات صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ أكثر، والحكمة من إرساله، والوظائف التي قام بها، وما تفرّد به خلال دعوته لهم.

حادي عشر: وفاة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحجّه قبل وفاته:

قال بعض المفسّرين: إنّ صالحاً والذين آمنوا معه، ذهبوا بعد هلاك قومهم إلى ناحية فلسطين. ويقول أهل حضرموت: إنّهم ذهبوا إلى حضرموت، وأقاموا بها، لأنّ أصلهم من تلك الناحية، أو هي فصيلة من أهل الأحقاف، وهناك قبر يزعمون أنّه لصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقال آخرون: إنّهم أقاموا في ديارهم بعد هلاك قومهم^(١). وآخرون قالوا: إنّهم ذهبوا إلى مكّة، وأقاموا بها إلى أن ماتوا، وقبورهم غربيّ الكعبة^(٢). ورجّح الشيخ عبد الوهّاب النجّار رَحِمَهُ اللهُ: من هذه الأقوال ما قال فيه: وأقرب الأقوال عندي إلى التصديق، أنّهم ذهبوا إلى الرملة ونواحي فلسطين، لأنّها أقرب بلاد الخصب إليهم، والعربي إنّما يطلب الكلاء لرعي ماشيته، والأرض ذات الماء. وقال الآلوسي: إنّ الذين نجوا مع صالح كانوا مئة وعشرين، أمّا الهالكون فكانوا خمسة آلاف بيت^(٣). وهذه الأقوال ليس عليها دليل صحيح، وإنّما من أقوال المؤرّخين وبعض المفسّرين.

(١) قصص الأنبياء، عبد الوهّاب البخار، ص ١٠٨.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

وقيل إنَّ صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ توفِّي وهو ابن ثمانٍ وخمسين سنة، وأقام في قومه عشرين سنة^(١). وليس في ذلك أيُّ دليل صحيح. وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: ويُقال إنَّ صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ انتقل إلى حَرَمِ الله، فأقام به حتَّى وفاته^(٢). ومن حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما مرَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوادي عُسفان^(٣)، قال: لقد مرَّ به هودٌ وصالحٌ على بكراتٍ^(٤) حميرٍ، خُطْمُهَا^(٥) اللَّيْفُ، أَزْرُهُمُ الْعَبَاءُ، وَأَرْدِيَتُهُمُ النَّمَارُ^(٦)، يُلْبُونُ يَحْجُونَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ^(٧).

(وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين)

﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات: ١٨٠-١٨٢].



(١) أحسن القصص، نائلة هاشم صبري، ص ١٣٤.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ١٣٠.

(٣) اسم موضع بين الجحفة ومكة على طريق المدينة إلى مكة المكرمة

(٤) بكرات: جمع بكرة، وهي الفتية من الإبل.

(٥) الخطم: جمع خطام، وهو الجبل الذي تقاد به الناقة.

(٦) النمارة: جمع (نمرة)، وهي الشملة المخططة من مآزر الأعراب كأنها أخذت من لون النمر.

(٧) الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إبراهيم محمد العلي، ص ٥٤؛ مسند أحمد (١/ ٢٣٢)؛ قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ١٣١، إسناده حسن.

الخلاصة

كان عناد قوم ثمود، واستكبارهم على دعوة نبيهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ سبباً رئيسياً في إهلاكهم، وانتقام الله منهم. فقد أفسدوا في الأرض وكفروا بأنعم الله، فجاءت قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم وافيةً وكافيةً لتدلل على قدرة الله وعظمته، وإمهاله، وبطشه بالقوم المستكبرين والظالمين. وإن القرآن الكريم رفض الاستكبار والظلم والعدوان في أكثر من موضع، حيث وردت الإشارة إلى الاستكبار أربعين مرة، وإلى العدوان سبعاً وستين مرة، ضمن سياق استنكاري صارم، ونهي قاطع عن ارتكابه. وقد اقترنت هذه الألفاظ بالإثم، والبغضاء، وسوء العاقبة، كما في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُونًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَاتَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٣٠].

وفي الختام، وبعد الانتهاء من عرض قصة نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بكامل تفاصيلها كما جاءت في كتاب الله العزيز، وبعد الوقوف على أهم التفاسير والمصادر التي تناولت دراسة قصته عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه، ووقفت على أهم دروسها وعبرها وفوائدها، يمكن أن نخلص إلى النتائج الآتية:

١. إن قوم ثمود قد أهلكتهم صفات الاستكبار والعلو والظلم والعدوان، وهي الصفات التي تكررت في سير الأقوام التي طغت وأعرضت عن دين الله.

٢. يُنسب الثموديون إلى ثمود بن عائر بن إرم بن سام، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن ثمود، إنما هو أخو (جديس، وطسم)، وأنهم أبناء عابر بن إرم بن سام بن نوح.

٣. اتفق المؤرخون على أن قوم ثمود كانوا من العرب العاربة، واختلفت آراؤهم بعد ذلك حول أصولهم وموطنهم الأصلي، حيث يعتقد فريق منهم أنهم بقية من قوم عاد الذين نشؤوا في اليمن، ثم انتقلوا إلى منطقة الحجر بعد أن غلبهم الحميريون.

٤. أظهرت الدراسات الأثرية أن الكتابات المنقوشة على الصخور تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد واستمرت حتى القرن الخامس الميلادي، مما يشير إلى أن قوم ثمود عاشوا على مسرح التاريخ لمدة ثلاثة عشر قرناً. ويُقال إن هلاكهم حدث قبل الميلاد بتسعة عشر قرناً، أي قبل قرابة خمسة قرون من هلاك قوم عاد.

٥. إن هلاك قوم ثمود، حدث قبل الميلاد بتسعة عشر قرناً، أي: قبل قرابة خمسة قرون من هلاك قوم عاد (بين عامي ٢٠٠٠-١٩٠٠ ق.م) على وجه التقريب.

٦. قوم ثمود خلفاء لقوم عاد في الحضارة والعمران، واتخذوا من السهول قصوراً ومن الجبال بيوتاً، ويشهد على ذلك ما تبقى من آثارهم التي تدل على براعتهم في نحت الصخور وبناء المدن. وكانوا أول من نحت الجبال، واتخذها مساكن، مما يدل على ذكائهم وشدة حذقهم في العمارة.

٧. إن قوم ثمود هم خلفاء عاد في القوة والصلابة، وكانت أجسامهم مفرطة في الطول والعظم، مما مكّنهم من تقطيع الصخور ونحتها واتخاذها مساكن.

٨. في الجانب العقائدي، عبدت ثمود الأصنام كما فعلت عاد، وعبدت ثمود ما يُقارب الأربعين صنماً منها (ود) و(جد) و(هد) و(شمس) و(مناة) و(اللات) وغيرها، حيث أشركوها مع الله في العبادة. وكان طغيانهم شاملاً في جميع نواحي الحياة، من عقائد وسلوكيات، واقتصاد وسياسة، حيث عمّ الفساد في مجتمعهم. ولكن أعظم فسادهم كان الفساد العقدي، حيث وقعوا في الكفر والشرك، وهو الفساد الذي قادهم إلى الهلاك المحتوم.

٩. إنَّ دين الله هو منهج شامل للحياة، إذ يقتضي أن يكون السلطان كله في شؤون البشر بيد الله وحده، وهذا هو جوهر عبادة الله وحده، ومعنى عدم وجود إله سواه.

١٠. دعا نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه إلى عبادة الله وحده، وإفراد الله بالعبادة، وتحقيق التوحيد ورفض الشرك بكافة أشكاله. ولما انحرفت البشرية عن العقيدة الصحيحة بعد نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، أرادت رحمة الله أن يرسل صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ مبشراً بالحق في ميدان التشريع.

١١. بعث الله نبيه صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ، حينما عمَّ الفساد؛ لِيُبَشِّرَ بالخير والحق والعدل، وبدأ سيّدنا صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتوحيد، وهو جوهر الرسالات السماوية جميعاً.

١٢. أرسل الله صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ في زمنٍ عمَّ فيه الفساد، لِيُبَشِّرَ بالخير والحق والعدل. بدأ نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ دعوته بالتوحيد، الذي يمثل جوهر الرسالات السماوية كافة.

١٣. توافرت في نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ صفاتُ الأنبياء وعلاماتهم من الخلق الكريم، وحب الخير، والابتعاد عن المعاصي. وعندما استكمل الله إعدادَه، جاءه الوحي، وهي سنة الله في أنبيائه، إذ عندما تصل نفوسُهم إلى درجة استعدادها لتلقي الوحي، يُفاجئون به.

١٤. التوحيد الذي جاءت به الرسالات السماوية يمكن تلخيصه في كلمة موجزة وهي "لا إله إلا الله"، التي تُعرف أيضاً بكلمة التوحيد، أو كلمة الإخلاص، أو كلمة التقوى.

١٥. إن المعنى الحقيقي للتوحيد هو: علم العبد واعتقاده واعترافه بتفرد الله؛ بكل صفة كمال، وأنه لا شريك له ولا نظير في كماله، وأنه هو الإله المستحق للعبادة.

١٦. الله لا شريك له في ذاته ولا في صفاته، ولا في عبادته ومعاملته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. هذا التعريف يستند إلى دلالة واضحة لمعنى "لا إله إلا الله"، حيث تدل بالمطابقة على تفرد الله في الألوهية، فلا تُصرف العبادة إلا له، وبالاتزام على تفرد الله في الربوبية، كما تدل على اتصافه بكافة صفات الكمال والجلال.

١٧. كان نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعو قومه، كما أمره الله وكما أمر غيره من الأنبياء الكرام، إلى إفرااد الله وحده بالعبادة، وعدم عبادة غيره، وعدم الدعاء أو الاستعانة أو الاستغاثة إلا به، وألا يُنذر أو يُذبح إلا له.

١٨. في قصة نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، نجد دعوته تركز على أهمية معرفة أسماء الله تعالى وصفاته، ليحمده العبد، ويُمجّده ويشني عليه، ويسأله المغفرة والرحمة، ويتوب إليه.

١٩. عندما يؤمن الإنسان بالتوحيد، لن ينظر إلى غير الله، فيكون خوفه منه، ورجاؤه فيه، وثقته به، واتكاله عليه. وإذا اعتقد بالتوحيد، سيرى أن كل ما سوى الله مُسَخَّرٌ لله، وسيشعر بالتححرر من ذلّ العبودية لغير الله، لأن كل مخلوق مُسَخَّرٌ لله. وقد اجتمعت آيات الكتاب الكريم وأحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على دعوة البشرية إلى التوحيد لتحررها من رقّ العبودية.

٢٠. إن التأمل في قصة نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته لقومه يبرز عظمة هذا النبي في أدائه لمهمة التبليغ، حيث مكث في قومه متحملاً للأذى والعناد والجحود، عسى أن يستجيبوا لدعوته.

٢١. كانت دعوة نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ دعوة للتوحيد الخالص وتحقيق عبودية الله تعالى، وترك عبادة الأصنام، كما جاء في قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

٢٢. يُقال عن الناقة بأنها "ناقة الله" لأنها جاءت من عند الله بطريقة غير معتادة، حيث خرجت من صخرة، وكانت عظيمة وهائلة، تختلف عن سائر النوق، والله أعلم.

٢٣. إِنَّ آيات النبوة هي الأدلة والبراهين على صدق الرسل فيما يدعون إليه، لأن الرسالة أمر خطير يترتب عليه صلاح البشر في معاشهم ومعادهم.

٢٤. من حق الناس أن يطالبوا من يدّعي الرسالة بإثبات صدقه وتأييد دعوته. والبراهين على ذلك كثيرة؛ فعلم الرسول وسلوكه المستقيم وسيرته الحسنة بين قومه تُعدّ آيات على صدقه. وكذلك دعوته إلى الله وحده دون أن يطلب أجراً من الناس، تُعدّ دليلاً على صدقه. وما يسميه القرآن "آيات" هو مصطلح علماء التوحيد "المعجزات".

٢٥. يجب على المؤمن الإيمان بمعجزات الأنبياء عموماً، لأنّ القرآن الكريم أخبرنا بوقوع الكثير من المعجزات على يد الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

٢٦. من أنكر وقوع المعجزات أو الآيات التي أثبتتها القرآن الكريم للأنبياء فهو كافر، لأنه أنكر ما ثبت بنصّ القرآن الكريم، وهو كتاب لا ينطق إلا بالحقّ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

٢٧. ذكّر نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه بفضل الله عليهم من خلال استخلافه لهم بعد قوم عاد، حتى وإن لم يكونوا في أرضهم ذاتها، حيث يبدو أنهم كانوا

أصحاب الحضارة العمرانية التالية في التاريخ لحضارة عاد. وقد امتد سلطانهم إلى ما بعد الحجر، فصاروا خلفاء ممكّنين في الأرض، محكّمين فيها.

٢٨. جمعت الحضارة الثمودية بين رفاهية العمران وفخامته، وبين إنشاء الحدائق وغرس الجنان.

٢٩. الإعراض عن عبادة الله تعالى ودينه وشرعه يؤدي إلى نشر الفساد، رغم أن نعم الله كثيرة والأرض صالحة للعيش الكريم والسعيد. فلا تفسدوها بموالاة الشيطان واتباع الشهوات والأهواء.

٣٠. كان قوم ثمود امتداداً لقوم عاد، وقد منحهم الله تعالى القوة والمال، فشيّدوا المدن وأقاموا القصور والعمران، ونحتوا الجبال لتكون حصوناً تحميهم من غوائل الدهر. فتحوا الطرقات وغرسوا الحدائق وفجّروا العيون، وظنوا أنهم خالدون في هذه الحياة، وغفلوا عن الله تعالى، وعبدوا الأصنام والأوثان. فأرسل الله إليهم نبيهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيُسَدِّدَ مَسِيرَتَهُمْ وَيُصَحِّحَ عَقِيدَتَهُمْ وَيُرْشِدَهُمْ إِلَى الطَّرِيقِ السَّوِيِّ، إِلَّا أَنَّهُمْ أَبَوْا وَأَصْرَوْا عَلَى الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ.

٣١. حارب نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ الفساد العقدي والاجتماعي والسياسي بكافة أشكاله، من الشرك والأذية للخلق. فرسالة الأنبياء والمرسلين تهدف إلى محاربة الفساد والتصدي له والعمل على تقليصه وتخليص الناس منه بما استطاعوا.

٣٢. انشقت الأرض أمام قوم ثمود واهتزت، وسمعوا صوتاً عالياً من انشقاقها وصيحة مدوية، وهذه الصيحة المدوية كانت تنتج عنها رجفة قوية، والرجفة تعني الحركة والاضطراب الشديد.

٣٣. كانت نصيحة نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في حياته صادقة، وأصبحت نموذجاً يُحتذى به عبر الأجيال، لكل مصلح وداعية في الحرص على الإخلاص في النصيحة، والعلم بما ينصح به، واللين والرفق في تقديم النصيحة.

٣٤. يؤكد الأنبياء جميعاً في رسالاتهم على حقيقة التوحيد ووحدانية الله وتفرد به بالعبادة، والتوجه إليه في كل شيء.

٣٥. انحرف قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ عن التوحيد وإفراد العبادة لله عَزَّجَلَّ بسبب العناد والاستكبار والظلم والطغيان المادي والإسراف والفساد. ونسوا عبادة الله في خضم انشغالهم بالماديات من قصور في السهول وبيوت في الجبال، ولم يشكروا الله على آلائه ونعمه العظيمة. فذكرهم نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بضرورة التوجه لعبادة الله وحده، ودعاهم إلى الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الرب القريب المجيب.

٣٦. بين نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الله عَزَّجَلَّ الذي دعاهم لتوحيده وإفراده بالعبودية هو الذي خلقهم من الأرض بخلق أبينا آدم منها.

٣٧. عرّف نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه بما عُرس في فطرتهم، وبما ينبغي أن يكون معلوماً بالضرورة، لأن كل دين ذكر بهذه الحقيقة حتى أصبحت جزءاً من الثقافة والمعلومات المتناقلة والمتداولة.

٣٨. المقصد العام للشريعة الإسلامية هو: عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كُلِّفوا به من عدل واستقامة، وصلاح في العقل والعمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط خيراتها، وتدبير لمنافع الجميع.

٣٩. كانت المنظومة المقاصدية حاضرة في دعوة نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لتحقيق توازن التدين والعمران، فدعوة الأنبياء، ومنهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، تسعى إلى صلاح الإنسان في داخله بالتقديس والتسييح وتحقيق التوحيد وإفراد العبادة لله وفق منهجه، والاعتقاد الذي جاءت به رسله، وعمارة الكون لتحقيق العمران والاستخلاف.

٤٠. دعا نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه إلى التوبة، والله عَزَّوَجَلَّ من أسمائه (التواب). والتوبة هي من شرائع الله الخالدة، وهي من الأحكام الشرعية للإنسان على مر الأزمان، وقد دعا إليها الأنبياء والرسل.

٤١. لا يكون الإنسان تائباً بمجرد الإقلاع والعزم والندم، بل يجب أن يكون لديه العزم الجازم على تنفيذ ما أمر به والقيام به. وهذه هي حقيقة التوبة، والتي تتضمن مجموع هذين الأمرين.

٤٢. دعا نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه إلى الاستغفار والتوبة، وحثهم على اللجوء إلى الله، مبيناً لهم أن ربهم قريبٌ مُجيب. ولكن ردّ قومه كان الإنكار والتوبيخ والصد والرفض.

٤٣. تُعدّ العقائد الباطلة الراسخة، المأخوذة عن الآباء أو غيرهم ممن يُحسن بهم الظن، من أكبر موانع قبول الحق. وقد كانت جميع الأمم المكذّبة ترفض دعوة الرسل، قائلين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. وهذا هو سبيل أهل الباطل في كل زمان، حيث يتعلقون بأوهى الحجج لتبرير اتباعهم للآباء.

٤٤. رفضت ثمود دعوة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بحجج واهية، وتقليد أعمى رسخ في النفوس، وهذا التقليد الأعمى هو ما أضّر بالكثيرين.

٤٥. اختار الله عَزَّجَلَّ الناقة لتكون معجزة نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، لذلك نسبها صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الله (ناقة الله). وعلى الرغم من أن كل شيء من المخلوقات منسوب إلى الله، فإن اختيار الناقة لتكون معجزة كان له فضل خاص في النسبة إلى الله. لكن قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يستجيبوا للترغيب أو التهيب أو النهي عن مساس ناقة الله، بل قاموا بعكس ما أمروا به.

٤٦. يَرِدُ في القرآن الكريم الاقتران بين اسم الله (القوي) واسم الله (العزیز) في سبع آيات. وهذا الاقتران يدل على أن العزة التي يتضمنها اسم الله (العزیز) تشمل عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع. ووصف الله بالقوة يرجع إلى كمال عزة الله تعالى.

٤٧. من آثار الإيمان باسم الله (القوي) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، التواضع لله ولخلقه، والشعور بالضعف أمام قوة الله عَزَّجَلَّ، والتوكل على الله وحده، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. كما يتضمن الإيمان الاستخفاف بقوة المخلوق والثقة في نصر الله عَزَّجَلَّ وكفايته للمؤمنين. مهما كانت قوة الكافرين وعددهم وعنادهم، فإن الله فوقهم ونواصيهم بيده، وقوتهم لا تساوي شيئاً بجانب قوة الله تعالى.

٤٨. تدخل ثمود في سلسلة الأقوام التي لعنها الله تعالى، وجاء اللعن بصيغة الإبعاد: ﴿أَلَّا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨]. فقد ارتكبت ثمود أعمالاً استحقت بها لعنة الله، من كفر وجحود وعناد واستكبار، وعجلت بالعذاب، وكذبت نبيها وحاولت قتله، وتناولت عليه بالاتهامات، فتارة رميته بالسحر وتارة بالكذب.

٤٩. كَذَّبَ قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ - وهم أصحاب الحجر - رسولهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ. ومن كَذَّبَ نبياً واحداً فكأنه كَذَّبَ الأنبياء جميعاً، ومن قتل نفساً فكأنه قتل الناس جميعاً. القاعدة ذاتها تنطبق هنا.

٥٠. إن تكذيب رسول واحد يعني تكديماً لجميع الرسل، ولا يصح الإيمان بمن يؤمن ببعض الرسل ويكفر بالبعض الآخر. من ينكر نبوة أي نبي من الرسل المذكورين في القرآن الكريم يكون كافراً، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.

٥١. لم يُكذَّب قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ سوى نبيهم صالح، ولكن بما أن صالحاً كان يمثل جميع الرسل، فقد قيل إنهم كَذَّبوا المرسلين جميعاً، وهذا توحيد للرسالة وللرسل وللمكذَّبين في كل عصر وكل مكان.

٥٢. سورة الشعراء مكية، وتحتوي على سبع وعشرين ومائتين (٢٢٧) آية. وقد تناولت أصول الدين من التوحيد والرسالة والبعث، شأنها شأن السور المكية التي تركز على العقيدة وأصول الإيمان.

٥٣. منع انحراف قوم صالح وتوجههم نحو الشر من رؤيتهم للأمر بشكل صحيح، وخلق فيهم روح التحدي التي بلغت ذروتها. وجاء صالح برسالته السماوية لإصلاح تلك النفوس الملتوية.

٥٤. أعرض قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ عن عبادة الله تعالى وأنكروا البعث، وتبعهم أئمة كفرهم في ذلك. فبعث الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لتذكيرهم بنعمة الله عليهم، بما مكَّنتهم من خيرات وسخر لهم من أعمال عظيمة، ورفع شأنهم إلى درجة من يظن الخلود.

٥٥. تعكس القراءتان الصحيحتان (فارحين، فرهين) تحقيق اجتماع معنيهما عند قوم ثمود. فقد كانوا في نحت البيوت فارحين، ماهرين، ثم أصبحوا بعد

ذلك فرهين، أي أشرين وبطرين. لم تقتصر مساكن ثمود على البيوت المنحوتة في الجبال، بل توسعوا في التقدم العمراني، فأنشأوا القصور الفخمة في السهول.

٥٦. تشير آيات القرآن إلى التقدم الحضاري عند ثمود في العمران والبناء والزراعة. فقد شيّدوا القصور والحدائق والعيون، وبنوا البيوت في الجبال، ونشأ على إثر ذلك نظام اجتماعي مؤسس على طبقتين: طبقة المستكبرين وطبقة المستضعفين.

٥٧. الفساد والإفساد محظوران في التشريع الإلهي، وقد حذّر منهما الأنبياء والرسل. وجاء القرآن الكريم لتأكيد تحريمهما، كما قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

٥٨. جميع الدجالين ومدّعي النبوة يخفّفون التكاليف عن أتباعهم. فقد أسقطوا الزكاة قديماً، وأباحوا الحرام والفساد حديثاً. وهذه تصرفات لا تستقيم؛ ليس هؤلاء سحرة أو مسحورين، بل هم مجرد كذب وافتراء على أنبياء الله ودعاة الخير في كل زمان ومكان.

٥٩. اسم الله العزيز يشير إلى العزة الكاملة، عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، التي لا يمكن أن ينالها أحد من المخلوقات. وقهر الله تعالى لجميع الموجودات، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته.

٦٠. لخص القرآن رسالة نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في جملة واحدة: ﴿إِنَّ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾، في أقصر وأبلغ عبارة. ذلك أن الحياة كلها تقوم على الإيمان بالله، وتحقيق توحيده، وإفراده بالعبادة، ومحاربة كل أشكال الكفر والشرك.

٦١. التطير هو التشاؤم، وهو مأخوذ من عادة الأقوام الجاهلة التي تتبع الخرافات والأوهام، إذ لا تخرج منها إلى نور الإيمان. فكان الواحد منهم إذا همّ بأمر ما، لجأ إلى طائر فزجره -أي: أشار إليه مطارداً- فإذا مرّ الطائر سانحاً عن يمينه إلى يساره استبشر، وواصل في الأمر. أما إذا مرّ الطائر بارحاً عن يساره إلى يمينه، تشاءم وتوقع الضرر.

٦٢. بُغِضَ أهل الفساد للمصلحين، واستهزأؤهم، بالناصحين موجود في كل زمان، لأن الناصح المصلح يهدم معاقل المفسدين بكلماته الطيبة، ويعدد مصالحهم وشهواتهم بإنكاره للمنكر ونهيه عنه، ودعوته لتوحيد الله وإفراده بالعبادة، ومحاربة الشرك كما فعل نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَام مع قومه.

٦٣. ترك الله عَزَّجَلَّ بيوت ثمود المحفورة في الغالب سليمة خالية من أهلها بسبب ظلمهم، لتكون آية وعبرة للأجيال اللاحقة. لتكون هذه البيوت إنذاراً لمن بعدهم حتى لا يكفروا مثلما كفروا، وإلا سينالون العذاب الذي نزل بهم. ولا يزال الناس يرون هذه البيوت المحفورة في الجبال إلى عصرنا هذا.

٦٤. وصف القرآن أحوال قوم صالح وأعمالهم بالظلم، لأن ظلمهم شمل عدة جوانب: الظلم الذي بينهم وبين ربهم بسبب إشراكهم به في العبادة، والظلم الذي كان بينهم وبين نبيهم والمؤمنين، والظلم الذي كانوا يرتكبونه بحق أنفسهم بحرمانها من الإيمان بالله وآياته ورسله.

٦٥. كان العقاب جماعياً، حيث نزل العذاب على جميع كفار ومشركي ثمود، وعلى من نفذ قتل الناقة، ومن رضي بالقتل والمعصية وسكت عن المنكر. استحقوا العقاب لأن الأمة متضامنة ومتكاتفه في الخير والشر، وإذا سكتت عن منكر كان في استطاعتها أن تقف في وجهه، عاقبها الله بالعقاب الشامل.

٦٦. الحياة الطيبة في الدنيا التي ينالها العامل الصالح وهو مؤمن، لا تنقص من أجره في الآخرة. بل وعد الله بأن يكون أجره في الآخرة على أحسن أعماله في الدنيا، وهو جزاء عظيم من رب كريم جواد.

٦٧. من يتق الله؛ باتباع أوامره وترك نواهيه، يجعل له مخرجاً من كل شدة، ويرزقه من حيث لا يرجو ولا يتوقع، ويبارك له فيما آتاه. ومن يتوكل على الله، أي: من يفوض إليه أمره، كفاه ما أهمه.

٦٨. يُخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ أن قبيلة ثمود كذَّبوا بالعقوبات التي نزلت على قوم نوح وقوم عاد، وكذَّبوا أيضاً برسولهم الذي أنذرهم وحذّرهم من عذاب الله، وهو نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ. كذَّبوا بالعذاب الذي أخبرهم به، واستنكروا دعوته.

٦٩. يجب على الرسول أن يوحي قومه إذا جاءهم رسول جديد، بأن يتبعوه ويؤمنوا به وينصروه. فالعادة أن القوم يتعصبون لرسولهم. لذا، يجب تعليمهم أن الهدف واحد والمنهج واحد، فإذا جاءكم من هذه صفته فاتبعوه، ولا تصادموه، لأن جميع الرسل يأخذون من مشكاة واحدة.

٧٠. خلق الله عَزَّوَجَلَّ النفوس، وبيّن لها طريق الفجور وطريق التقوى، وترك لها حرية الاختيار. جعل الفلاح والفوز لمن زكى نفسه، والخسار لمن دساها.

٧١. جاءت معجزة كل نبي على حسب نبوغ قومه. فجاءت معجزة موسى من نوع السحر الذي نبغ فيه بنو إسرائيل، ومعجزة عيسى مما نبغ فيه قومه من الطلب، ومعجزة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الفصاحة والبلاغة والبيان، لأن العرب لم يُظهروا نبوغاً في غير هذا المجال، فتحداهم بما يعرفونه ويجيدونه ليكون ذلك أبلغ في الحجّة عليهم.

٧٢. طلب قوم ثمود معجزة بعينها، فأجابهم الله وأنزلها لهم، ولكنهم استكبروا عن الإيمان وكفروا بالآية التي طلبوها، بل أكثر من ذلك ظلموا بها، فعقروها. وهذه السابقة مع ثمود هي التي منعتنا من إجابة أهل مكة فيما اقترحوه من الآيات، وليس عجزاً منا عن الإتيان بها.

٧٣. كلمة "إرم" في سورة الفجر ليست اسم مدينة كانت تسكنها عاد، وإنما هي بدل من "عاد"، أو عطف بيان لها، وعاد هي "عاد إرم".

٧٤. كلمة "إرم" في سورة الفجر، ليست اسم مدينة كانت تسكنها عاد، وإنما هي بدل من "عاد"، أو عطف بيان لها، وعاد هي "عاد إرم".

٧٥. حين بعث الله إلى قارون وفرعون وهامان موسى بن عمران بالآيات البينات والبراهين الساطعات، لم ينقادوا واستكبروا في الأرض على عباد الله وأذلّوهم، فردّوا الحقّ. فلم يقدروا على النجاة عندما نزلت بهم العقوبة.

٧٦. حذّر الله أهل مكة والناس من أن يفعل بهم ما فعل بالأمم السابقة، الذين كانوا أعظم قوة وتحزّباً على الباطل منهم.

٧٧. دعوة مؤمن آل فرعون، تضمنت تذكيره لقومه بالأمم السابقة، وما حلّ بهم من عذاب وعقاب وهلاك عندما ابتعدوا عن التوحيد ومنهج الله. استخدم حقائق التاريخ في دعوة فرعون وقومه.

٧٨. استخدم مؤمن آل فرعون علم التاريخ، ومعرفته، بتاريخ النبوات في تحذيره ونصحه لقومه، مبيناً لهم ما حلّ بالأمم التي رفضت البينات، وأظهر لهم ما فعله الله بقوم نوح وعاد وثمود، وما يجب عليهم تذكره لتفادي مصير تلك الأمم.

٧٩. بعد انحراف الإنسانية عن توحيد الله، وتطور البشرية في حياتهم المادية، وضعفهم في قيمهم الروحية، أرسل الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيُقِيمَ حُجَّةَ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ وَالْمَشْرِكِينَ وَالظَّالِمِينَ، واتبعت سنة الله في زوالهم واستئصالهم.

٨٠. من أهم أسباب العقاب الإلهي، وهلاك الحضارة التي أنشأتها قبيلة ثمود، هو الكفر بالله.

٨١. وصف قوم ثمود بالكفر يعني أنهم في تلك الحقبة التاريخية كانوا منفصلين عن الدين وبعيدين عن تكاليف الشريعة ومنهج الله عَزَّجَلَّ، مما أدى إلى الاستكبار والظلم والانحلال الأخلاقي. فقد مضت فيهم سنة الله بسبب أسباب عدة، منها الكفر بالله عَزَّجَلَّ، مما استوجب عليهم عذابه بالصيحة والرجفة والصاعقة والطاغية.

٨٢. أسباب هلاك الأمم السابقة متنوعة ومتعددة، إلا أن أخطرها وأعظمها على الإطلاق هو الشرك بالله جَلَّوَعَلَا. وبسببه لاقت العديد من الأمم مصير الهلاك، واستحققت العقوبة في الدنيا قبل الآخرة، لتصبح عبرة وعظة لمن يأتي بعدهم.

٨٣. أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ هَلَاكِ الْمَكْذِبِينَ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْآيَاتِ، وقد دلت بعض تلك الآيات على مطلق التكذيب الذي كان سبباً في هلاكهم.

٨٤. ركز القرآن الكريم في حديثه عن قصص الأمم الهالكة على الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل، وأوردت آيات كثيرة تدلّ على أن تكذيب الرسل كان سبباً رئيسياً في هلاك الأمم السابقة.

٨٥. التكذيب بالآيات من أبرز أسباب هلاك الأمم وأكثرها تكراراً في قصص السالفين. قلّما ترد قصة فيها ذكر أمة دون أن يُذكر فيها التكذيب بالآيات كأحد الشناعات التي ارتكبوها، والتي بسببها استحقوا الهلاك والدمار.

٨٦. يعدّ الظلم من أكبر أسباب سقوط الحضارات، وله مفهوم شامل وعريض يؤدي إلى فقدان التوازن في كافة مجالات الحياة. الظلم ينعكس على علاقة الإنسان بنفسه ومع الله ومع غيره، مما يؤدي إلى ظهور ظواهر نفسية واجتماعية واقتصادية مرضية، ويخلق تصورات فاسدة عن الوجود، فيعمّ الفساد الحياة الإنسانية بأسرها.

٨٧. استفحل الظلم في قوم ثمود، وظهرت آثاره بوضوح على مستوى المجتمع، حيث ارتكبوا كل أنواع الظلم واستمروا عليه. ونزل العقاب الرباني بقوم ثمود بسبب هذا الظلم.

٨٨. الاستكبار والتعالي من أبرز أسباب سقوط الحضارات التي ذكرت في القرآن، عندما وصل أهلها إلى درجة عالية من اليقين بتفوقهم وتمييزهم على غيرهم من البشر، ورفضوا ما يعارض الدين والمنطق والفطرة، مما يعرض الحضارات للضعف والتحلل أو الهلاك. فهي لا تسمح لنفسها بتصحيح مسارها والرجوع إلى الحق.

٨٩. منع الاستكبار قوم ثمود من الاستجابة لدعوة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وهدايات الله التي جاء بها، فكانت العقوبات شديدة وعظيمة. فالاستكبار من الجرائم التي عاقب الله عليها قوم ثمود.

٩٠. كان المكر صفة بارزة في قوم ثمود، حيث استخدموا جميع وسائل المكر وأساليبه لصدّ الناس عن دعوة التوحيد والاستجابة لعبادة الله. فضلوا الشبهات والاتهامات الباطلة، وأقاموا العوائق والعراقيل أمام دعوته.

٩١. سنة الله تعالى في الطغاة هي إنزال العقاب عليهم في الدنيا، وهي سنة ماضية لا تتخلف. جرت هذه السنة على الطغاة السابقين، وستجري على الحاضرين

والقادمين، فلن يفلت أحد منهم من عقاب الله في الدنيا، كما لا يفلت أحد من عقاب الآخرة.

٩٢. جرت عادة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بعد دعوة أقوامهم إلى التوحيد أن يُذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم، ويدعوهم لشكر المنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وقد خصّ الله بعض الأمم بنعم معيّنة، فكل نبي يُذكّر بما خصّ الله قومه، دون إغفال النعم العامة.

٩٣. كانت ثمود على شاكلة عاد في الحال والمال؛ فقد أغدق الله عليهم النعم، فكانوا في رغد من العيش وتمكين في الأرض. وكان نبيهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ يُذكّرهم بتلك النعم في مستهل دعوته، ويُعرّفهم بالمنعم جلّ علاه، ويرشدهم إلى طريق الشكر، داعياً إياهم لعبادة الله وحده، ونبذ عبادة الأوثان، محذراً إياهم من البطر.

٩٤. اشتغل قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بأمور الدنيا، وأصابهم الغرور بها، فنسوا الآخرة. فرحوا بالأموال والأولاد، والقصور والبيوت في الجبال، والبساتين والزروع. وغاب عنهم فقه القدوم على الله، فلم يستعدوا ليوم الرحيل، وانغمسوا في الترف والإسراف، وتناولوا على أهل الإيمان.

٩٥. للحضارات سنن في قيامها وسقوطها، وكذلك لها سنن في تجددها وانبعاثها واستبدالها. وقد تحدّث القرآن الكريم عن الاستبدال الحضاري، وهذا ما حدث لقوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث تجمّعت فيهم أسباب الهلاك. فمضت سنة الله فيهم بالاستئصال، لكي تستأنف الإنسانية رسالتها بصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن آمن معه.

٩٦. مضت سنة الله في قوم ثمود بالخسران عندما خسروا الإدراك والبصيرة، وضاعوا في صحاري الشبهات وبحار الشهوات ووديان الضلال. وطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٣].

٩٧. القصة القرآنية لصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه توجّه الأنظار إلى الاعتبار بأحوالهم، فهي مليئة بالدروس والعبر والفوائد. وتعرض سنن الله في حركة الشعوب وزوال الأمم واضمحلال الحضارات.

٩٨. كان صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ من الأنبياء المرسلين الذين حققوا التوحيد لله عَزَّجَلَّ، ودعوا إليه. آمن بعض الناس برسالته، وتميّز عَلَيْهِ السَّلَامُ بصفات وخصائص حميدة تجسدت في شخصيته وأخلاقه، كالإخلاص والصبر والتقوى وحسن العبادة. وكان ناصحاً لقومه، داعياً إياهم إلى توحيد الله وعبادته واستغفاره والتوبة إليه.

٩٩. الرسالة منحة إلهية يختص بها الله من يشاء من عباده، فضلاً ونعمة، وليست درجة علمية يمكن الحصول عليها بالاجتهاد أو التعبّد أو التعلّم، وإنما هي اصطفاء واختيار للرسل من بين سائر الناس.

١٠٠. من حكمة الله تعالى في إرسال الرسل أن الخلق بحاجة إلى الرسل ليلغوهم ما يحبه الله ويرضاه، وما يغضب منه ويأباه. وكثير من العصاة والمنحرفين ضلّوا في متاهات الشقاء رغم وجود الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فكيف يكون الحال لو لم يُرسل الله تعالى رسلاً مبشّرين ومنذرين؟

١٠١. الرسل بُعثوا لتهذيب العباد، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وتحريرهم من رق عبودية المخلوق إلى حرية عبادة رب العالمين الذي أوجدهم من العدم وسيفنيهم بعد الوجود، ويبعثهم بعد الفناء ليكونوا إمّا أشقياء أو سعداء.

١٠٢. لو تُرك الناس هملاً دون إنذار وتخويف، عاشوا عيشة ضنك في جاهلية؛ جهلاء وضلالة عمياء، وعادات منحرفة وأخلاق فاسدة، فيصبح المجتمع غائباً

حيث القوي يأكل الضعيف والشریف يذل الوضع. لذا، اقتضت حكمة الله جَلَّوَعَا لَا أن لا يخلق عباده سدى ولا يتركهم هملاً.

١٠٣. مهمة الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) هي الدعوة إلى الله وإلى الحق والخير، وتحويل هذه الدعوة إلى عمل وسلوك وتطبيق ليقبلي الناس بهم.

١٠٤. ذهب صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ والذين آمنوا معه بعد هلاك قومهم إلى ناحية فلسطين. ويقول أهل حضرموت إنهم ذهبوا إلى حضرموت وأقاموا بها لأن أصلهم من تلك الناحية، أو أنهم من فصيلة أهل الأحقاف، وهناك قبر يزعمون أنه لصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ.



المصادر والمراجع

١. إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، أحمد بن محمد البنا، عال الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٨٧ م.
٢. الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، إبراهيم محمد العلي، دار القلم، ٢٠٠٧ م.
٣. أحسن القصص في القرآن الكريم، نائلة هاشم، دار النفائس، ٢٠٢٠ م.
٤. أحسن القصص، زاهية الدجاني، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ٢٠٠٨ م.
٥. أحكام القرآن، الجصاص، مطبعة الأوقاف الإسلامية، ٢٠١٦ م.
٦. أحكام القرآن، إلكيا الهراسي، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٨ م.
٧. إحياء علوم الدين لحجة الإسلام، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ.
٨. أخلاق الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، محمد درويش، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض.
٩. الارتقاء من مقاصد الشريعة إلى المنظومة المقاصدية لتحقيق كفتي الميزان الدين والعمران، د. علي القره داغي، دار الأصاله، ٢٠٢٤ م.
١٠. أسباب هلاك الأمم السالفة كما وردت في القرآن، سعيد محمد بابا سيلا، دار ابن الجوزي، ٢٠٠٠ م.

١١. أسباب هلاك الأمم، عادل الشوربجي.
١٢. استنباط الأهداف من القرآن من سورتي يونس وهود، بسام عبد الملك، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، ٢٠١٨م.
١٣. الأسرار البلاغية في الفوائد القرآنية، عبد الله عبد الغني سرحان، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ٢٠١٢م.
١٤. أسماء الأنبياء دلالاتها ومعانيها، خالد محمد خالد، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، ط ١، ٢٠١٦م.
١٥. إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، الحسين محمد الدمغاني، دار العن للملايين، بيروت، ط ٤، ١٩٨٣م.
١٦. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، ٢٠١٣م.
١٧. إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمار، الأردن، ٢٠١٦م.
١٨. أعلام المكان في القرآن الكريم، يوسف أحمد أبو ريده، رسالة ماجستير/ جامعة الخليل، ٢٠٠٧م.
١٩. اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، مكتبة الرشد، ٢٠٠٦م.
٢٠. الأماكن الأثرية في شمال وجنوبي الجزيرة العربية، أحمد حسين، مكتبة التاريخ.
٢١. الأمة في الرؤية الإسلامية، عمر إسماعيل، دار الكتب القانونية، ٢٠١٣م.

٢٢. أنبياء القرآن، عبد المجيد همو، دار الحافظ، ٢٠٠٠م.
٢٣. أنبياء الله، أحمد بهجت، دار الشروق، ٢٠٠٦م.
٢٤. أنبياء في القرآن تركوا آثاراً، هدى حسن، دار المعرفة للطباعة والنشر، ٢٠٠٦م.
٢٥. أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، أبو يعلى البيضاوي، دار الرشيد، دمشق، بيروت، ٢٠١٢م.
٢٦. البحر المحيط في التفسير، محمد يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
٢٧. البداية والنهاية، ابن كثير، دار الريان للتراث، مصر، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٩٠م، بعناية عبد الرحمن اللاذقي ومحمد غازي، دار المعرفة، لبنان، ط ٤، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٢٨. البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبد الله الزركشي بدر الدين، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٩م.
٢٩. بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٦م.
٣٠. تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر، ٢٠٠١م.
٣١. تاريخ أرض القرآن، سليمان الندوي، دار القلم، ٢٠١٦م.
٣٢. تاريخ الأنبياء، محمود عبده نور الدين.

٣٣. التحرير والتنوير، تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، ١٩٨٣م.
٣٤. تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، فوز بنت عبد اللطيف الكردي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الحادي عشر، ١٤٢١هـ.
٣٥. التداول الحضاري في القرآن الكريم، د. فرج علام، دار روابط للنشر وتقنية المعلومات ودار الشقري للنشر، ٢٠١٨م.
٣٦. التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، دار الأماجد، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.
٣٧. التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، دار الريان للتراث، ٢٠١٨م.
٣٨. تفسير ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، حققه يوسف علي بديوي، حسن سويدان، دار ابن كثير، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.
٣٩. تفسير أبي السعود، أبو السعود محمد العمادي الحنفي، المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض، مطبعة السعادة، القاهرة.
٤٠. تفسير البغوي (معالم التنزيل)، الحسين بن مسعود البغوي، دار طيبة، ٢٠٠٧م.
٤١. تفسير الرازي، التفسير الكبير، الإمام فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٤٢. تفسير الزمخشري، محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٠١٣ م.

٤٣. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مكتبة الأسرة، ١٩٩٢ م.

٤٤. تفسير القرآن الثري الجامع، محمد الهلال، دار جوامع الكلم، الطبعة الأولى، ٢٠٢٢ م.

٤٥. تفسير القرطبي، دار إحياء التراث العربي، أبو عبد الله القرطبي، بيروت، لبنان، ١٩٦٥ م.

٤٦. التفسير المحرر للقرآن الكريم، الدرر السنية.

٤٧. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، القاهرة، ١٩٧٥ م.

٤٨. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.

٤٩. التفسير الموضوعي مجموعة باحثين، إشراف د. مصطفى مسلم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة الشارقة، الإمارات، طبعة ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.

٥٠. تفسير النابلسي، محمد راتب النابلسي، مؤسسة الفرسان، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م.

٥١. تفسير سورة الإسراء، د. أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم،

٥٢. تفسير سورة الحجر، د. أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ٢٠١٩م.

٥٣. تفسير سورة هود دراسة تحليلية - موضوعية، الدكتور: أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، المملكة الأردنية الهاشمية، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م.

٥٤. التفكير في الأسماء عن طريق العلماء، ضياء الدين الجماس، دار الهجرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٠م.

٥٥. التوبة في ضوء القرآن الكريم، آمال بنت صالح نصير، دار الأندلس الخضراء، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٥٦. تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٧م.

٥٧. جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، هجر للطباعة والنشر.

٥٨. الحق الواضح المبين، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مطبوع ضمن الكاملة في مؤلفات الشيخ السعدي، جزء العقيدة الإسلامية، مركز صالح بن صالح.

٥٩. الخارطة القرآنية، مشعل الفلاح، دار القلم، دمشق، ٢٠٢٢م.

٦٠. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، الإمام السيوطي، الناشر محمد أمين دمج، بيروت، لبنان.

٦١. دراسات تاريخية من القرآن، محمد بيومي، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م.
٦٢. دراسات في آثار المملكة السعودية، عبد الرحمن كباوي، إصدارات المهرجان الوطني للتراث، ١٩٩١م.
٦٣. دراسات في التفسير الموضوعي، الألمي، دار الميمان للنشر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩م.
٦٤. الدروس المستفادة من العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، عبد الهادي بن سعد الشمراني، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
٦٥. دعوة الرسل إلى الله، محمد العدوي، العصرية للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠م.
٦٦. الدعوة إلى الله في سورة هود، عبد الرحمن بن راجي بن رجاء العوفي، ١٩٩٢م.
٦٧. رسالة الأنبياء، د. عمر أحمد عمر، دار الجيل للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م.
٦٨. رواه الطبراني في الدعاء، معجم شيوخ الطبري الذين روى عنهم في كتبه المسند المطبوعة، أكرم بن محمد زيادة الفالوجي الأثري، الدار الأثرية، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
٦٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم السبع المثاني، أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.

٧٠. رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، محمد قطب، دار الوطن، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
٧١. زهرة التفاسير أبو زهرة، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، دون تاريخ.
٧٢. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، عزة الدعاس، دار الحديث، حمص، سوريا، ط١، ١٣٨٨هـ.
٧٣. السنن الاجتماعية في القرآن، محمد أمحزون، دار طيبة، ٢٠١١م.
٧٤. السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، شريف الخطيب، مكتبة الرشد، الدار العثمانية، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٧٥. السنن الإلهية في الخلق، عبد الحميد طهماز، الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م.
٧٦. السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٧م.
٧٧. سنن القرآن في قيام الحضارات، محمد هيثور، دار الوفاء، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٧٨. سنن الله في الحضارة الإنسانية، أحمد سريرات، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٣م.
٧٩. سنن النسائي، أحمد بن شعيب النسائي، المكتب التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٣٠م.

٨٠. السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي محمد محمد الصلابي، دار المعرفة، ٢٠١٠م.
٨١. شأن الدعاء، حمد محمد الخطابي، دار الثقافة العربية، ١٩٩٢م.
٨٢. شرح النووي على صحيح مسلم، يحيى بن شرف النووي، مؤسسة قرطبة للطباعة والتوزيع والنشر، ٢٠٠٩م.
٨٣. شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.
٨٤. الشرك في القديم والحديث، أبو بكر محمد زكريا، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٨٥. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الحديث، ٢٠١٠م.
٨٦. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
٨٧. صحيح البخاري، دار ابن كثير، محمد بن إسماعيل، البخاري، دمشق، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
٨٨. صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م.
٨٩. صفات الأنبياء من قصص القرآن، الدكتور عقيل حسن، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١١م.
٩٠. صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، د. محمد فوزي، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٨م.

٩١. ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبد الرحمن حبنكة الميداني، تحقيق: حسين مؤنس، دار القلم، دمشق، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
٩٢. طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول، عبد الرحمن السعدي، دار البصيرة، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.
٩٣. عصر ما قبل الإسلام، محمد مبروك نافع، مكتبة السعادة، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٤٨م.
٩٤. العصمة في الفكر الإسلامي، حسن حميد، طيبة الدمشقية للطباعة والنشر، ٢٠٠٨م.
٩٥. العصمة في ضوء عقيدة أهل السنة، منصور راشد، مكتبة الرشد، ٢٠١٥م.
٩٦. العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنكة، دار القلم، ٢٠٢١م.
٩٧. العلل والحجج، عبد الله آدم نصيف، ١٩٩٨م.
٩٨. علم القرآن التنموي، جمال حسن الحمصي، جمعية لحفظ القرآن الكريم، ٢٠١٩م.
٩٩. على طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، دار الفكر، عمان، الأردن، طبعة ٢٠١٠م.
١٠٠. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٦م.
١٠١. عمل اليوم والليلة، أحمد بن شعيب النسائي، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ٢٠٠٦م.

١٠٢. فبهذا هم اقتده، قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، عثمان الخميس، دار إيلاف الدولية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
١٠٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
١٠٤. فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان البخاري القنوجي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، ١٩٩٢م.
١٠٥. فتح القدير في الجمع بين فني التفسير، محمد علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، نشر وتوزيع المكتبة التجارية بمكة المكرمة.
١٠٦. الفساد في الأرض وموقف الإسلام منه، أسامة كباره، دار النهضة العربية، ٢٠٠٩م.
١٠٧. فقه دعوة الأنبياء، أحمد الأميري، دار السلام، ٢٠١٢م.
١٠٨. في رحاب قصص الأنبياء والرسل، عبود الراضي، دار الكتب العلمية، ٢٠١٧م.
١٠٩. في ظلال الأنبياء، محمد حمد الصوياني، شركة العبيكان للتعليم، ط ١، ٢٠٢٢م.
١١٠. في ظلال القرآن، سيد قطب، الطبعة الشرعية الثامنة والعشرون، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
١١١. في قصصهم عبرة، علي حسن العبيدلي، كلمات للنشر والتوزيع، ٢٠٢١م.

١١٢. القصة في القرآن الكريم، د. عصام الدين الهنامي، ٢٠٢٣م.
١١٣. قصص الأنبياء أحداثها وعبرها، محمد الفقي، مكتبة وهبة، ١٩٨٩م.
١١٤. قصص الأنبياء، ابن كثير، دار الطباعة والنشر الإسلامية، ط ٥، ١٩٩٧م.
١١٥. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مطبعة النصر، ٢٠١٩م.
١١٦. قصص الأنبياء، مصطفى العدوي، مكتبة مكة، طنطا، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.
١١٧. قصص الحيوانات في القرآن، خاليج الزواوي، مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع، ٢٠١١م.
١١٨. قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، دار النفائس، الطبعة الثالثة، ٢٠١٠م.
١١٩. قصص القرآن قراءة قرآنية، عمرو الشاعر، مكتبة النافذة.
١٢٠. القصص القرآني، الخالدي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
١٢١. الكامل في التاريخ، ابن الأثير، إعداد إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٤، ٢٠٠٣م.
١٢٢. كتاب المعارف، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م.
١٢٣. الكليات معجم من المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب الكفوي، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٧م.

١٢٤. لأنك الله، علي بن جابر الفيقي، دار الحضارة، ٢٠١٦م.
١٢٥. لسان العرب، محمد مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت.
١٢٦. ليس الحجر في مدائن صالح، مجلة العرب، ٢٠١٤م.
١٢٧. مجالس النور في تدبر القرآن الكريم وتفسيره، محمد عياش الكبيسي، دار نشر جامعة قطر، ٢٠١٩م.
١٢٨. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد حامد الفضلي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ.
١٢٩. مروج الذهب ومعادن الجوهر، كمال حسن المرعي، المكتبة العصرية، ٢٠١٢م.
١٣٠. مستدرک علی الصحیحین، الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.
١٣١. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب أرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٨م.
١٣٢. مسند الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن الدارامي السمرقندي، دار التأصيل، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.
١٣٣. المصنف في الأحاديث والآثار، عبد الله بن محمد أبي شيبة، دار التاج، لبنان، ط١، ١٩٨٩م.
١٣٤. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، دار العاصمة، دار الغيث، السعودية، ط١، ١٤١٩هـ.

١٣٥. مع الأنبياء في الدعوة إلى الله، محمد أبو فارس، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ٢٠١٥م.
١٣٦. مع الأنبياء في القرآن، عفيف عبد الفتاح طباره، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط١٥، ١٩٨٥م.
١٣٧. معاني النحو، فاضل السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٩م.
١٣٨. معجزات الأنبياء، عبد المنعم الهاشمي، مكتبة ابن حزم، لبنان، ٢٠٠٦م.
١٣٩. معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر ودار بيروت، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
١٤٠. معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، السيوطي، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٤م.
١٤١. مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م.
١٤٢. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم للطباعة والنشر، ٢٠٢٢م.
١٤٣. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مكتبة تزار مصطفى الباز، ٢٠٠٩م.
١٤٤. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ط٢، ١٩٩٣م.

١٤٥. المفهم لما أشكل من كتاب تلخيص مسلم، القرطبي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
١٤٦. مفهوم الاستكبار والاستضعاف، مصطفى أوعيشة، دار السلام للطباعة والنشر، ٢٠٢٣م.
١٤٧. مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، دار الغرب الإسلامي، ٢٠١٠م.
١٤٨. مقاصد القرآن الكريم ومحتوياته، عبد الله التليدي، دار الأمان، الرباط.
١٤٩. مقاصد سور القرآن الكريم، منذر محمد، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ٢٠٢١م.
١٥٠. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، دار الفكر، ١٩٧٩م.
١٥١. من أنباء القرى، أحمد الكبيسي، مؤسسة الرسالة العالمية، ط١، ٢٠٠٧م.
١٥٢. من حديث يوسف وموسى، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ٢٠١٠م.
١٥٣. منهاج السنة، ابن تيمية، ٢٠١٩م.
١٥٤. المنهاج القرآني في مواجهة الفساد، د. محمد سلطان، دار روزا، ٢٠١٧م.
١٥٥. موسوعة الأخلاق، إشراف علوي السقاف، الدرر السنية، ٢٠٢٠م.
١٥٦. موسوعة الأعمال الكاملة، يوسف القرضاوي.
١٥٧. موسوعة التفسير بالمأثور، المشرف العلمي مساعد الطيار، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م.

١٥٨. موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم ﷺ، صالح بن عبد الله بن حميد وعبد الرحمن بن محمد ملوح، دار الوسيلة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
١٥٩. موسى كليم الله، علي محمد محمد الصلابي، دار ابن كثير، ط ١، ٢٠٢٢م.
١٦٠. مؤمن آل فرعون، بشير الخياط، رسالة دكتوراة، جامعة درمان، السودان، ٢٠١١م.
١٦١. النبوات، ابن تيمية، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ٢٠٠٦م.
١٦٢. نصوص اللعن في القرآن وأثرها في الأحكام الشرعية، عمر شاعر الكبيسي، مؤسسة الريان للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٣هـ.
١٦٣. نظرات عصرية في القرآن الكريم، محمد لطفي جمعة، عالم الكتب، ١٩٩١م.
١٦٤. نظرات في أحسن القصص، محمد السيد الوكيل، دار القلم للطباعة والنشر، ١٩٩٤م.
١٦٥. نظرات في القرآن، محمد الغزالي، نهضة مصر، ٢٠٠٥م.
١٦٦. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، ٢٠٠٦م.
١٦٧. النظم القرآني في قصة صالح، سعد عبد الرحمن، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ٢٠١٤م.

١٦٨. نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أحمد بن عبد الله قلقشندي، مطبعة النجاش، ٢٠١٦م.
١٦٩. نهاية الأمم، عدنان الطرشة، العبيكان للنشر، ٢٠٠٦م.
١٧٠. نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية، علي محمد محمد الصلابي، دار ابن كثير، ٢٠١٩م.
١٧١. هذا ربي، خالد الخليوي، دار الحضارة، ط ١، ٢٠١٩م.
١٧٢. الوجود التاريخي للأنبياء وجدل البحث الأكيولوجي، سامي العامري، ٢٠٢١م.
١٧٣. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠م.
١٧٤. والله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، ٢٠١٥م.



فهرس الموضوعات

- الإهداء ٥
- تقديم: الأستاذ الدكتور فضل عبد الله مراد ٦
- مقدمة الكتاب ١٠

المبحث الأول

- أصل الثموديين، وحديث التاريخ عنهم، وعصرهم، ونقوشهم، ومساكنهم، وحياتهم ١٧
- أولاً: أصل الثموديين: ١٩
- ١ - سبب تسمية "ثمود": ٢٠
- ٢ - ثمود بعد عاد: ٢١
- ثانياً: ثمود في الكتابات القديمة: ٢٢
- ثالثاً: مساكن ثمود: ٢٥
- رابعاً: الرسوم والنقوش الصخرية الثمودية: ٣٢
- خامساً: المجتمع الثمودي: ٣٤
- سادساً: حضارة ثمود: ٣٦
- سابعاً: دين أهل ثمود: ٣٨

ثامناً: ذكر صالح عليه السلام وقوم ثمود في القرآن الكريم: ٣٩

المبحث الثاني

قصة صالح عليه السلام في سورة الأعراف، وهود، والحجر، والشعراء، والنمل، والقمر،

والشمس ٤١

أولاً: قصة صالح عليه السلام في سورة الأعراف: ٤٣

١- قال تعالى: ﴿وَالِئِنْ شَعُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا...﴾ [الأعراف: ٧٣] ٤٦

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ...﴾ [الأعراف: ٧٤] ٦٦

٣- قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ...﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦] ٧٤

٤- قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ...﴾ [الأعراف: ٧٧] ٧٩

٥- قال تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَضْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨] ٨١

٦- قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلْقَوْمَ لَقَدْ أَبْلَغْتُمْ...﴾ [الأعراف: ٧٩] ٨٤

ثانياً: قصة صالح عليه السلام في سورة هود: ٩٠

١- قال تعالى: ﴿وَالِئِنْ شَعُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا...﴾ [هود: ٦١] ٩١

٢- قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا...﴾ [هود: ٦٢] ١٠٧

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَلْقَوْمَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ...﴾ [هود: ٦٣] ١١٢

٤- قال تعالى: ﴿وَيَلْقَوْمَ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ...﴾ [هود: ٦٤] ١١٥

- ٥- قال تعالى: ﴿فَعَرَّوْهَا فَفَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ...﴾ [هود: ٦٥]..... ١١٨
- ٦- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ [هود: ٦٦]..... ١٢١
- ٧- قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ...﴾ [هود: ٦٧]..... ١٣٠
- ٨- قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا...﴾ [هود: ٦٨]..... ١٣٢
- ثالثاً: قصّة قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَام في سور الحجر: ١٣٤
- ١- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠]..... ١٣٥
- ٢- قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَهُمْ ءَايَاتُنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر: ٨١]..... ١٣٨
- ٣- قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢]..... ١٤٠
- ٤- قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣]..... ١٤٢
- ٥- قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٤]..... ١٤٣
- ٦- مرور النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحجر ديار ثمود: ١٤٤
- رابعاً: قصّة صالح عَلَيْهِ السَّلَام في سورة الشعراء: ١٤٥
- ١- قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ...﴾ [الشعراء: ١٤١-١٤٥]..... ١٤٧
- ٢- قوله تعالى: ﴿أَتَذَرُكُونَ فِي مَا هُمْنَا ءَامِنِينَ...﴾ [الشعراء: ١٤٦، ١٤٧]..... ١٥١
- ٣- قوله تعالى: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَٰضِئٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨]..... ١٥٣
- ٤- قال تعالى: ﴿وَنَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]..... ١٥٥

- ٥- قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٥٠]..... ١٥٧
- ٦- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ...﴾ [الشعراء: ١٥١، ١٥٢]..... ١٥٨
- ٧- قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]..... ١٦١
- ٨- قال تعالى: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ...﴾ [الشعراء: ١٥٤]:..... ١٦٣
- ٩- قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ...﴾ [الشعراء: ١٥٥، ١٥٦]:..... ١٦٤
- ١٠- قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧]:..... ١٦٥
- ١١- قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً...﴾ [الشعراء: ١٥٨، ١٥٩]:..... ١٦٦
- خامساً: قصة صالح في سورة النمل: ١٦٩
- ١- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا...﴾ [النمل: ٤٥]:..... ١٧١
- ٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ...﴾ [النمل: ٤٦]:..... ١٧٢
- ٣- ﴿قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَاعُوا عِنْدَ اللَّهِ...﴾ [النمل: ٤٧]:..... ١٧٤
- ٤- قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ...﴾ [النمل: ٤٨، ٤٩]:..... ١٧٧
- ٥- قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا...﴾ [النمل: ٥٠، ٥١]:..... ١٨١
- ٦- قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ يَبُوءُهُمْ حَاوِيَةٌ يَمَا ظَلَمُوا...﴾ [النمل: ٥٢]:..... ١٨٢
- ٧- قوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣]:..... ١٨٥
- سادساً: قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة القمر: ١٨٩

- ١- قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣]..... ١٩١
- ٢- قال تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّا وَحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤]:... ١٩٣
- ٣- قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَلْقَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ [القمر: ٢٥]..... ١٩٦
- ٤- قال تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ عَدَا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُّ﴾ [القمر: ٢٦]:..... ١٩٩
- ٥- قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُونَ النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧]:... ٢٠٠
- ٦- قوله تعالى: ﴿وَنَبِّهْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨]:... ٢٠٣
- ٧- قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]..... ٢٠٤
- ٨- قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ [القمر: ٣٠]..... ٢٠٦
- ٩- قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١]:... ٢٠٧
- ١٠- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ٣٢]:... ٢١٠
- سابعاً: قصّة صالح عليه السلام في سورة الشمس: ٢١٠
- ١- قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا﴾ [الشمس: ١١]:..... ٢١٢
- ٢- قال تعالى: ﴿إِذْ أُنْبِئَتْ أَشَقِيهَا﴾ [الشمس: ١٢]:..... ٢١٣
- ٣- قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣]:..... ٢١٥
- ٤- قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ...﴾ [الشمس: ١٤]:..... ٢١٦
- ثامناً: السُّور التي فيها إشارات سريعة لقصّة صالح عليه السلام مع ثمود: ٢١٩

- ١- سورة الإسراء..... ٢١٩
- ٢- سورة فصلت ٢٢٤
- ٣- سورة الفجر ٢٢٦
- ٤- سورة الذاريات ٢٣٤
- تاسعاً: ذكر ثمود مع الأمم الهالكة في القرآن الكريم:..... ٢٣٥
- ١- قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ...﴾ [التوبة: ٧٠]..... ٢٣٥
- ٢- في قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ...﴾ [إبراهيم: ٩]..... ٢٣٦
- ٣- في قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ...﴾ [الحج: ٤٢-٤٦]..... ٢٣٧
- ٤- في قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى...﴾ [الفرقان: ٣٥-٣٩]..... ٢٤٠
- ٥- قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ...﴾ [العنكبوت: ٣٦-٤٠]..... ٢٤٠
- ٦- قوله تعالى في سورة ص: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ...﴾ [سورة ص: ١٢-١٤]..... ٢٤٤
- ٧- قوله تعالى في سورة غافر: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمُ...﴾ [غافر: ٣٠، ٣١]..... ٢٤٤
- ٨- قوله تعالى في سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ...﴾ [سورة ق: ١٢-١٤]..... ٢٤٦
- ٩- قوله تعالى في سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا...﴾ [النجم: ٥٠، ٥١]..... ٢٤٨
- ١٠- ثمود في سورة الحاقة ٢٥٣
- ١١- ثمود في سورة البروج ٢٥٥

المبحث الثالث

- ٢٥٩..... أسباب هلاك قوم ثمود
- ٢٦١..... أولاً: الكفر بالله عزَّ وجلَّ:
- ٢٦٢..... ثانياً: الشرك بالله:
- ٢٦٣..... ثالثاً: التكذيب:
- ٢٦٦..... رابعاً: الظلم:
- ٢٦٨..... خامساً: استعجال العذاب:
- ٢٦٨..... سادساً: الإسراف والتَّرف:
- ٢٦٩..... سابعاً: الاستكبار:
- ٢٧٠..... ثامناً: الإجرام:
- ٢٧١..... تاسعاً: المكر:
- ٢٧٣..... عاشراً: الفساد:
- ٢٧٥..... الحادي عشر: الطغيان:
- ٢٧٥..... الثاني عشر: بَطْر النعمة:
- ٢٧٧..... الثالث عشر: الخطايا والذنوب:
- ٢٧٨..... الرابع عشر: انتهاك حُرَمات الله:

- الخامس عشر: سُنة الإملاء والاستدراج: ٢٨١
- السادس عشر: الاشتغال بالدنيا عن الآخرة: ٢٨٤
- السابع عشر: الاستبدال: ٢٨٥
- الثامن عشر: سُنة الأجل الجماعي: ٢٨٦
- التاسع عشر: سُنة الهلاك: ٢٨٨
- العشرون: سُنة الخسران: ٢٩٠
- الحادي والعشرون: الغفلة عن أسباب الهلاك: ٢٩٠

المبحث الرابع

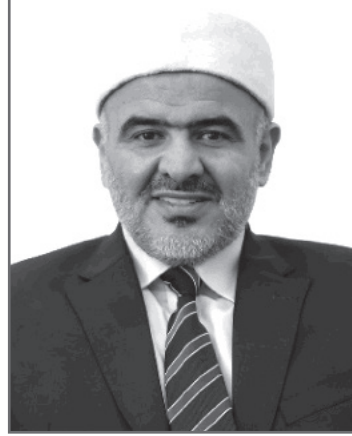
- أهمُّ صفات وخصائص صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ووفاته ٢٩١
- أولاً: تعريف الرُّسل وصفاتهم: ٢٩٣
- ثانياً: الفرق بين النبي والرسول: ٢٩٧
- ثالثاً: أهمُّ صفات الرُّسل ومنهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ٢٩٧
- رابعاً: الإيمان بالأنبياء والمرسلين: ٣٠١
- خامساً: أعداد الرسل: ٣٠٢
- سادساً: التفاضل بين الأنبياء والرسل: ٣٠٣
- سابعاً: أولو العزم من الرسل: ٣٠٤

٣٠٦.....	ثامناً: حكمة إرسال الرسل عامة:
٣٠٩.....	تاسعاً: وظائف الرسل:
٣٠٩.....	عاشراً: أمور تفرّد بها الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ:
٣١٣.....	حادي عشر: وفاة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحجّه قبل وفاته:
٣١٥.....	الخلاصة.
٣٣٤.....	المصادر والمراجع.
٣٥١.....	فهرس الموضوعات.



السيرة الذاتية للمؤلف

د. علي محمد محمد الصّلابي
مفكر ومؤرخ وفقيه



- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م.
- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام ١٩٩٣ م، وبالترتيب الأول.
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام ١٩٩٦ م.
- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام ١٩٩٩ م.
- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم، والفقه، والتاريخ، والفكر الإسلامي.
- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي على الثمانين مؤلفاً.

كتب صدرت للمؤلف

١. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
٢. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.
٣. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.
٤. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.
٥. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.
٦. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.
٧. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
٨. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.
٩. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
١٠. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
١١. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
١٢. الوسطية في القرآن الكريم.
١٣. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
١٤. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
١٥. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.

١٦. خلافة عبد الله بن الزبير.
١٧. عصر الدولة الزنكية.
١٨. عماد الدين زنكي.
١٩. نور الدين زنكي.
٢٠. دولة السلاجقة.
٢١. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.
٢٢. الشيخ عبد القادر الجيلاني.
٢٣. الشيخ عمر المختار.
٢٤. عبد الملك بن مروان وبنوه.
٢٥. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.
٢٦. حقيقة الخلاف بين الصحابة.
٢٧. وسطية القرآن في العقائد.
٢٨. السلطان عبد الحميد الثاني.
٢٩. دولة المرابطين.
٣٠. دولة الموحدين.
٣١. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.
٣٢. الدولة الفاطمية.

٣٣. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.
٣٤. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.
٣٥. استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول ﷺ، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.
٣٦. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.
٣٧. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.
٣٨. المشروع المغولي: عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.
٣٩. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.
٤٠. الشورى في الإسلام.
٤١. الإيمان بالله جَلَّ جَلَالُهُ.
٤٢. الإيمان باليوم الآخر.
٤٣. الإيمان بالقدر.
٤٤. الإيمان بالرسول والرسالات.
٤٥. الإيمان بالملائكة.
٤٦. الإيمان بالقرآن والكتب السماوية.
٤٧. السلطان محمد الفاتح.

٤٨. المعجزة الخالدة.
٤٩. الدولة الحديثة المسلمة: دعائمها ووظائفها.
٥٠. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.
٥١. التداول على السلطة التنفيذية.
٥٢. الشورى فريضة إسلامية.
٥٣. الحريات من القرآن الكريم: حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.
٥٤. العدالة والمصالحة الوطنية: ضرورة دينية وإنسانية.
٥٥. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.
٥٦. العدل في التصور الإسلامي.
٥٧. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.
٥٨. الأمير عبد القادر الجزائري.
٥٩. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.
٦٠. سنة الله في الأخذ بالأسباب.
٦١. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.
٦٢. أعلام التصوف السني: "ثمانية أجزاء".

٦٣. المشروع الوطني للسلام والمصالحة.
٦٤. الجمهورية الطرابلسية (١٩١٨ - ١٩٢٢) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر.
٦٥. الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.
٦٦. المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَام: الحقيقة الكاملة.
٦٧. قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَام
٦٨. نوح عَلَيْهِ السَّلَام والطوفان العظيم.. ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.
٦٩. إبراهيم خليل الله عَلَيْهِ السَّلَام: "داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة".
٧٠. موسى عَلَيْهِ السَّلَام كلیم الله.
٧١. موسى عَلَيْهِ السَّلَام والخضر.
٧٢. موسى عَلَيْهِ السَّلَام في سورة طه.
٧٣. موسى عَلَيْهِ السَّلَام في سورة القصص.
٧٤. موسى عَلَيْهِ السَّلَام في سورة الشعراء.
٧٥. مؤمن آل فرعون في سورة غافر.
٧٦. لا إله إلا الله (أدلة وجود الله وأول المخلوقات)
٧٧. سقوط الدولة العثمانية (الأسباب - التداعيات).
٧٨. سقوط الدولة الأموية (الأسباب - التداعيات).

٧٩. مختصر نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العظام.
٨٠. النبي الوزير يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ من الابتلاء إلى التمكين.
٨١. ذكريات لا تنسى.
٨٢. الأنبياء الملوك داوود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وهيكلي سليمان المزعوم.
٨٣. لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته في مواجهة الفساد والشذوذ الجنسي وعقاب الله للظالمين.
٨٤. تجديد بناء المسجد الأقصى في عهد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وقصة الهيكل المزعوم.
٨٥. نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ وأسباب زوال حضارة قوم عاد.
٨٦. نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأسباب هلاك قوم ثمود.
٨٧. الأبعاد الإنسانية والحضارية في شخصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
٨٨. نبي الله أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ "طريق الشفاء" ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إيماناً من الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين بأن الأمة الإسلامية إنما تنهض بالعلوم النافعة، وتنهض بالأفكار العالية، وترتقي بالأخلاق الراقية، وتتقوى بالحضارة الجامعة، وشاء الله تعالى أن تمتاز حضارة الإسلام بالقراءة الصحيحة لكتاب الله المسطور (القرآن والسنة) وكتاب الله المنظور (الكون وما فيه) قراءة دقيقة تجديدية تحليلية في ظلال الإيمان والأخلاق، وكرامة الإنسان وحقوقه، حيث دل على ذلك قوله تعالى: {اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: 1-5].

وبهذه القراءة الجامعة للوحي الصحيح، والعقل المستضيء بنور الله تعالى، يتحقق الاستخلاف والشهود الحضاري النافع، القائم على العزة، والعدل، والرحمة للعالمين. ونحن في الاتحاد تبيننا هذا المشروع بطريقة جديدة وهي: نشر خلاصة جهود العلماء المتخصصين في فروع العلوم الإسلامية، بدل أن نبدأ من جديد.

فالיום نقدم جهود فضيلة العالم المحقق المتخصص في سير الأنبياء (عليهم السلام) الدكتور علي محمد الصلابي التي بذل فيها جهوده المباركة خلال سنوات طوال: مستهدفاً الإسهام في هذا المشروع الحضاري العظيم، جزاه الله خيراً.

وبعد هذه الموسوعة سنقدم موسوعة أخرى في السياسة، ثم في الاقتصاد، ثم في الفكر إلخ... بتوفيق الله تعالى آملمين من أمتنا -وبخاصة علماءها ومفكروها- دعم هذا المشروع، وإفادتنا بملاحظاتهم القيمة.

والله أسأل أن يجعل هذه الموسوعات التي نقدمها إلى أمتنا خالصة لله تعالى، ونافعة للبلاد والعباد، ومحقة الغايات التي وضعت لها، والمقاصد التي أريد منها.. آمين.

محكمكم جميعاً: أ.د. علي محيي الدين القره داغي رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

TK: 978-625-5637-70-3
ISBN: 978-625-5637-74-1



9 786255 637741

asaletyayinlari.com.tr

asaletyayinlari

